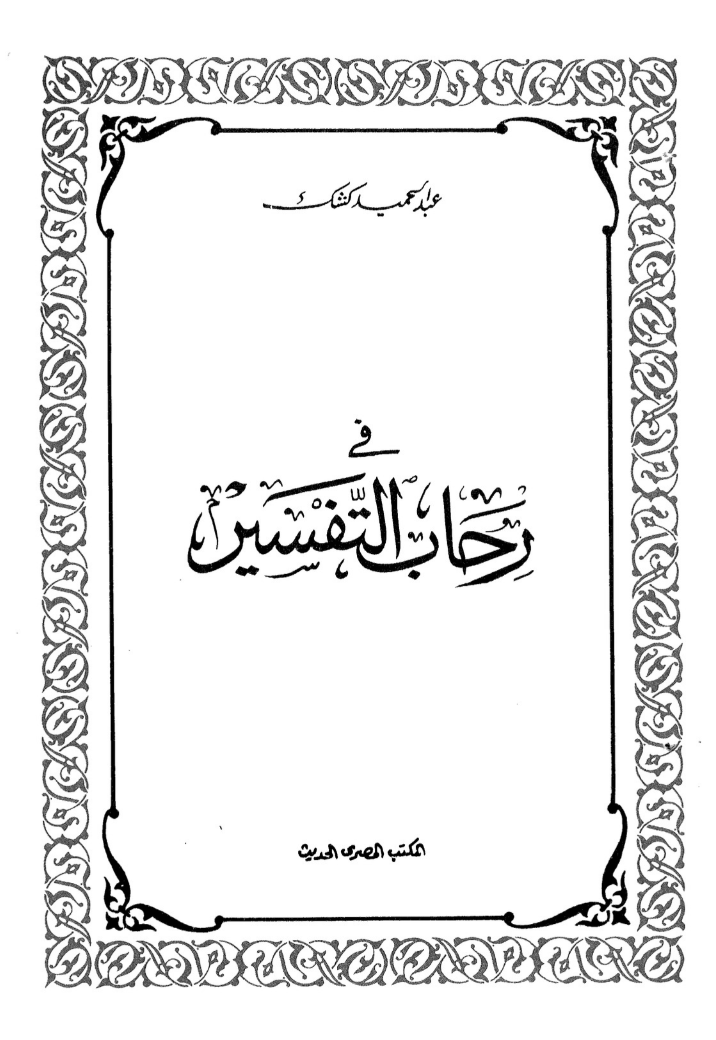
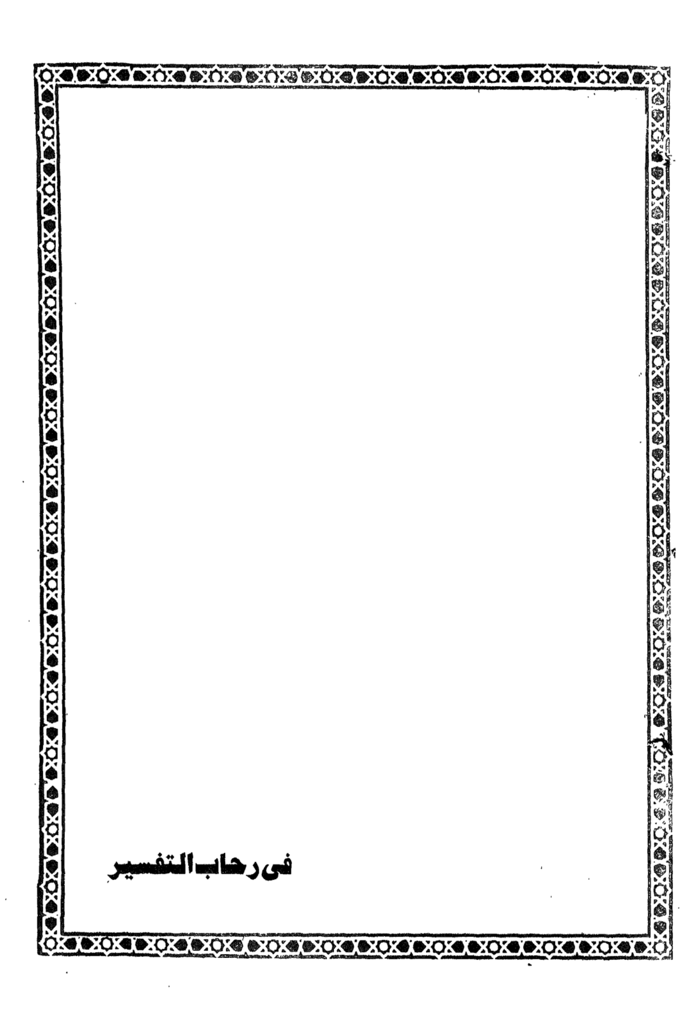


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

المكتب المصري الحديث



في رحاب التفسير

الناشر : المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢٢

عبد الحميد كشك



المكتب المصري الحديث



عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :

قال النبى ﷺ : (إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعَلّمه) .

رواه البخارى

في رحاب التفسير

ظل الداعية الإسلامي الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقي بأحبائه من المسلمين ، من فوق منبره في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، في خطب الجمعة ، وفي دروسه وفتاويه التي كانت تشغل كل أيام الأسبوع ، فتنشرح الصدور ، وتصفو الأفئدة وتتطهر النفوس وتتغذى العقول والأرواح ‥ وتتنزل السكينة والرحمة …

واشتهر مجلس الشيخ ، وذاع صيته حتى بلغ آفاق الأرض إلى عنان السماء ‥ وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن وقرى ‥ وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامي كله ‥ وفي يوم الجمعة يمتلىء المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من المصلين فيؤمون ما يحيط المسجد من شوارع وطرقات ‥ وما أن ينتهي الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلقف الأيدي الأشرطة كي تسمعها النساء في البيوت ، ولكي تطير إلى قارات الدنيا الست تنقل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ما قاله الشيخ فلا يحرمون من نفعه ·

وفي سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره ‥ ومنع من أن يلقى الأحبة ‥ في دروس أو فتاوى ‥ فكانت الضارة النافعة ‥ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ‥ وعجيبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير ‥ فعكف الشيخ على القرآن الكريم ‥ مأدبة الله ، الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد أنواره التي تبدد الظلمات ‥ يحيي به لياليه يطالع آياته ‥ ويعاينها ويفسرها ‥ تفسيرا يضيف إلى كل ما سبقه الكثير ، تفسيراً يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها ، في عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يكتنفه من ظلمات ركام الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما في الصدور ‥ فتتبدد الظلمة ‥ وتنقشع الغمة ‥

وعاش الشيخ أيامه في هذه الأعوام الست – ولا يزال – في رحاب التفسير معتكفا عليه في بيته ، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة ، مهما برق لمعانه أو اشتد إغراؤه ، أو زاد إلحاحه ‥ فقد استشعر لذة القران وأظلته نعماؤه ‥ وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظروف للاضطلاع بهذه المهمة التي تحتاج لهذا التفرغ الكامل ‥

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه ‥ وهو لا يزال يمضي في طريقه يشق عباب البحر وشاطىء النهاية يلوح من بعيد ‥ يزداد منه اقترابا كل يوم ‥ طالبا منا أن نقدمه إلى المسلمين في كل مكان كما قدمنا من قبل مكتبته التي انتشرت في كل مكان ‥ وسخر الله لنشرها حتى الكفار من الموارنة والملحدين يزوّرون طبعاتها ويصلون بها إلى ما لم نصل إليه من بقاع الأرض ، قاصدين لماعات الدنيا التي ما قصدناها ‥ فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومنّه وكرمه ·

نسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم مبرأ من كل ما عداه من أغراض ، فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى الجنة وشفيعا يوم الازفة إذ القلوب لدى الحناجر ، ونورا لنا يوم ندخل قبورنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين · آمين يارب العالمين ·

احمد يحيى

المقـــدمة

بســـــم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ولىّ الصالحين . ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(1) .

سبحانه هو اللطيف بعباده ، ومن مظاهر لطفه بخلقه أن وهبهم العقل الذى يميزون به بين الخبيث والطيب ، والضار والنافع ، والظلمات والنور . وأرسل إليهم ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل ﴾(2) . وأنزل كتبًا تهدى السالكين إلى طريق الرشاد والسداد ، وعلى رأس هذه الكتب « القرآن العظيم » . نزل به أعظم ملك هو الروح الأمين ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، فى أعظم شهر هو شهر رمضان ، من أعظم مكان هو أم الكتاب ، فى أعظم بلد « مكة » ، بأشرف لغة ، على أعظم نبى هو سيد الأولين والآخرين ، الذى مدحه ربه بما منحه فقال : ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(3) .

وقال عنه مبيناً الحكمة من إرساله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(4) . وقال عن أتباعه : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(5) .

وقد أمره مولاه ومصطفيه أن يعلن عموم رسالته فقال : ﴿ قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(6) .

فتأمل معى قوله جل شأنه : ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ إنه القرآن . فالله نور السموات والأرض ، والقرآن نور ، والنبى الذى جاء بالقرآن نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(7) .

فعجباً لأمر الأمة : ربها نور ، وكتابها نور ، ونبيها نور ، كيف ترضىٰ لنفسها أن تعيش فى الظلمات ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾(8) .

---

(1) سورة الفتح آية : ٢٨ .
(2) سورة النساء آية : ١٦٥ .
(3) سورة القلم آية : ٣ ، ٤ .
(4) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(5) سورة الأعراف آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(6) سورة الأعراف آية : ١٥٨ .
(7) سورة المائدة آية : ١٥ .
(8) سورة التغابن آية : ٨ .

وبعد . . . فهذا تفسير للكتاب العزيز ، قصدت به تيسير الطريق لذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، لمن أراد أن ينفعه الله بهدى كتابه ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا ﴾[١] ، لا سيما وقد طغت الماديات على المعنويات ، واشتغل الناس بالدنيا ، وارتكبوا فى سبيل تحصيلها وجمع مالها مايندى له جبين الحياء خجلا . فماجت الفتن موج البحر ، وعرضت على القلوب كما تعرض الحصير عوداً عودا ، فأنكرتها قلوب وأشربتها أخرى . فكانت القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، وعلى أسود مر باداً مثل الكوزى مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فما المخرج من تلك الفتن ؟ هذا سؤال وجهه الإمام الجليل علىّ بن أبى طالب إلى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية محمد ﷺ . قال علىّ رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج يارسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾[٢] . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم)[٣] .

فصل فى فضل القرآن والترغيب فى تلاوته

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾[٤] .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله فى فضل القرآن :

وخير جليس لا يمل حديثه ... وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه ... وأجدر به سؤلا إليه موصلا

(١) سورة الإسراء آية : ٩ . (٢) سورة الجن اية : ١ ، ٢ .
(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) سورة فاطر آية : ٢٩ ، ٣٠ .

فيـــا أيهـــا القـــارى بـــه متمسكـــا ... فجـــلالـــه فى كـــل حـــال مبجـــلا
هنيئـــا مـــريئـــا والـــداك عـــليهـــما ... مـــلابس أنـوار من التـــاج والحـلىَ

ويشرفنا أن نكون من أمة القرآن الذى أمر الله بترتيله ، فقال : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾[١] . . وعلى قارىء القرآن أن يقف عند عجائبه ويحرك به القلوب . فاقرءوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

ولنبى القرآن ﷺ حشد مقدس ومسيرة مباركة من الأحاديث رواها الإمام المنذرى فى كتابه الشهير «الترغيب والترهيب» ، رأينا من الخير أن نعطر بها تلك الصفحات ، لأنها تشع نورا وتفيض بركة وسرورا ، وتتقاطر رحمة وحبورا ، وأصحاب الأفئدة المستنيرة وأولو الألباب الباصرة يدركون ذلك بأعين البصائر . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴾[٢] . نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا .

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٣] . أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وكم للقرآن من ثواب جزيل لتاليه ، لو تعلم الأمة حقيقة هذا الثواب ، ما غفلت عن ترتيله وتزكية القلوب به ، وتعطير الألسنة بقراءته . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[٤] .

فأنت ترى فى الحديث الأول أن خيرية العباد مقدورة بتعلم القرآن وتعليمه ، ويرغب النبى ﷺ فى الوعظ والإرشاد ، ويدعو العلماء إلى تعليم المسلمين ، والعمل بأحكام الدين ، والجهاد فى تفهيم الضالين ، والإقناع بالحجة وكثرة الاطلاع .

وترى فى الحديث الثانى أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة . وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فى ميادين الجهاد ، فرسانا بالنهار ، رهبانا بالليل ، إذا جنَّ عليهم الليل سمعت لهم دويا بالقرآن كدوى النحل ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مرّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، ذلك كله لأنهم اتخذوا القرآن هاديا ورائدا ومعلما ومرشدا . مصداقا لقول الباري

---

(١) سورة المزمل آية : ٤ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .
(٣) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٢٣٦ ط الشعب ١٣٧٨
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

تبارك اسمه : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[١] . وجدوا فيه الدواء والشفاء : ﴿ وننـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٢] . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[٣] . ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[٤] .

أعلمت ما منازل السكينة والرحمة والملائكة ، وذكر الله فى الملأ الأعلى ؟ إنها فى مجالس القرآن تلاوة ودراسة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)[٥] . ومعنى قوله ﷺ نزلت عليهم السكينة : أى الطمأنينة والوقار والسعادة والقبول ، أما غشيتهم الرحمة أى عمتهم وأحاطت بهم .

ومجالس القرآن شاملة لكل مكان . بهذا نطق الحديث الشريف : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة) . ومعنى ذكرهم الله فيمن عنده أى أثنى عليهم سبحانه فى الملأ الأعلى تنويها بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم ، وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا . وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره . لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

يعلمنا رسول الله ﷺ انتهاز الفرص لإجابة الدعاء أن تذهب وتتوضأ وتصلى ركعتين لله تعالى ثم تجلس مع صالحين تذكرون الله وتتلون كتابه ، وتفهمون تفسير آياته ، ثم تكثرون من الاستغفار والصلاة على المختار ﷺ ، وحينئذ ينتظر إغداق إحسان الله ونزول رحماته وشمول بركاته .

عن معاوية رضى الله عنه أن رسول ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : (ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة)[٦] .

فاتقوا الله أيها المسلمون واحرصوا على تعلم القرآن ، وربوا أبناءكم على حفظ آياته تربحوا وتنجحوا ، فهو الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل والغى والفساد إلى نور العلم والاستقامة والصلاح ، وسطع نور هديه فى الأكوان ، وظهرت آثار عدله ورحمته فى كل مكان . قال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٧] ، نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد ﷺ ، فمحا الران عن القلوب ، وفتحت به نوافذ الفطن ، وأزال الغشى عن الأبصار ، وعنت لعظمته وجوه الفصحاء ،

---

(١) سورة الإسراء اية : ٩
(٢) سورة الإسراء اية : ٨٢ .
(٣) سورة فصلت اية . ٤٤
(٤) سورة يونس اية : ٥٧ ، ٥٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٨٠ .
(٧) سورة فصلت اية : ٤٢

وتطاحنت لسحر بيانه عزة البلغاء ، فأذعنوا له صاغرين ، وخروا لآيات بلاغته ساجدين ، وأيقنوا أنه تنزيل من رب العالمين .

ومن فضل الله تعالى على أهل القرآن أنه لم يجعل الجزاء الحسن مقصوراً على تاليه ، إنما شمل بمزيد فضله سامعه مادام يلتزم آداب السماع التى أمر الله تعالى بها فى كتابه فقال : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾(١) . وما أشد حاجة المسلمين إلى معرفة آداب السماع فى مجالس القرآن . إن الأفئدة لتنفطر أسىً وإن القلوب لتنخلع حزنا وإن جبين الحياء ليندى خجلا عندما تسمع القرآن يتلى والجالسون فى غفلة معرضون : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم ﴾(٢) . أليس مما يدعو للأسف أن يقول المستمع للقارىء وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾(٣) ، آيات تشيب من هولها نواصى الولدان ، وتقشعر لجلالها الأبدان ، يقول المستمع الغافل «ربنا يزيدك» . ولست أدرى من أى شىء يزيده بعد أن بلغ طول السلسلة سبعون ذراعا ! ومستمع آخر لعله كان نائما واستيقظ على قول القارىء : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾(٤) فصاح بأعلى صوته : «اللهم اجعلنا جميعا منهم» . إنه لا يدرى زمر النار أم زمر الجنة ؟ وهذا دليل على غفلة القلوب . وكما قال شوقى :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورب مستمع والقلب فى صمم

إن الله تعالى شمل السامع والتالى بعنايته ، إذا التزم كل منهما آداب السماع والتلاوة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)(٥) . واعلم يا أخى أنك إذا شغلت بتلاوة القرآن عن الدعاء فإن الله تعالى يعطيك بفضل القرآن أعظم مما يعطى السائلين ، وهذه إحدى بركات القرآن والاشتغال به ، لأنه أفضل الكلام وأصدق الحديث . بهذا نطق الرسول الكريم . عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)(٦) .

واعلم بأن الناس مع القرآن أربعة أنواع من حيث القراءة والعمل . وقد جاء ذلك التقسيم رائعا وبديعاً فى قول رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها طيب ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه ، ومثل

(١) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢ ، ٤ .
(٣) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .
(٤) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه)[١] . والمقصود بالأترجة التى تجمع طيب الطعم والريح : كالتفاحة . وجاء فى الفتح : أن التمثيل وقع بالذى يقرأ القران ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهى لا مطلق التلاوة . وفى هذا الحديث بيان فضيلة القرآن والدعوة إلى العمل به . جاء فى عمدة القارى أن كلام الله المجيد له تأثير فى باطن العبد وظاهره ، وأن العباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير ، وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق الحقيقى ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه ، وهو المرائى أو بالعكس وهو المؤمن الذى لم يقرأه ، وإبراز هذه المعانى وتصويرها فى المحسوسات ما هو مذكور فى الحديث ، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ، ولا أحسن ولا أجمع من ذلك لأن المشبهات والمشبه بها واردة على تقسيم الحاضر ، لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن ، والثانى إما منافق صرف أو ملحق به . فعلى هذا قس الثمار المشبه بها ، ووجه الشبه فى المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح . وقد ضرب النبى ﷺ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التى بينها وبين الأعمال ، فإنها من ثمرات النفوس ، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والثمرة بالمؤمن ، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيها على علو شأن المؤمن ، وارتفاع علمه ودوام ذلك ، وتوقيفا على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه .

شىء بديع يكسب قارىء القرآن : نفحات صمدية وبركات إلهية صادرة من تلاوة كلام رب العالمين . فأفاد ﷺ أن قارىء القرآن رائحته ذكية ، ومنافعه جليلة وقربه رحمة ، ومصاحبته طاعة ومودته رضوان وكلامه مثمر . وفيه الحث على الإنصات والاستماع ، وتخلق القارىء بمكارم الأخلاق . وإذا قرأ العاصى القرآن فكالوردة رائحتها ذكية ولا تؤكل . فتمر نفحات عطرية من فيه وهو غير عامل بما يقرأ ، فيستفيد السامع المنصت فقط ، ومن يرضى أن يكون ريحانة لغيره محروما من شمها ، فاقدا عطرها بعيدا عن ثمرها ؟ .

وكذا العاصى الذى لا يقرأ ولا يسمع ، فكالشجرة المرة كريهة الطعم معدومة الرائحة . فلا حول ولا قوة إلا بالله . . فعليك يا أخى بالإنصات إلى القرآن ، والتأمل فى آياته ، وأن تقرأ ما تيسر منه عسى أن تشملك رحمة الله جل جلاله . قال تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾[٢] ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾[٣] . ولا تيأس من قراءة القرآن إن كان شاقا على لسانك ، بل عليك أن تجاهد اللسان بقراءة آياته المحكمة ، فإن كثرة قراءته تيسر تلاوته . قال جل شأنه : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٤] . واعلم بأن الله يعطى الثواب على قدر المشقة . فإذا ما صرت ماهرا بتلاوته فلك عند الله درجة السفرة الكرام البررة . بهذا نطق الحديث الشريف . قال ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)[٥] .

---

(١) [illegible] ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) سورة المزمل اية ٢٠ .
(٣) سورة الزمر اية ١ .
(٤) سورة القمر اية : ١٧ .
(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ومن الوصايا النبوية العالية ، الوصية بتلاوة القرآن . إذ أن تلاوته نور وذخر . قال أبو ذر رضى الله عنه : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : (عليك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن ، فإنها نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء)(١) .

وليس فضل القرآن مقصورا على الدنيا ، بل يتعدى ذلك إلى يوم الحشر ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . قال ﷺ : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)(٢) . وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه : (اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه)(٣) .

بل إن هذا الفضل لا يقتصر على قارىء القرآن وحده ، بل يتعداه إلى والديه ، حيث نبهنا إلى ذلك الرسول الكريم بقوله : (من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا) . فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟

إن أقصى ما يتمناه العبد هو رضا الله ، فيوم يبلغ هذه المكانة فقد حيزت له السعادة الأبدية . قال أحد الصالحين يناجى ربه :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

أتعلم ما هى الوسيلة لبلوغ رضا الله ؟ إنه ذلك القرآن . فمن أفضاله يوم الحشر أنه يسأل ربه الرضا لصاحبه فيؤتيه الله سؤله . انصت معى فى خشوع وجلال إلى هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول : يارب زده فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة)(٤) .

ومن أفضال القرآن يوم الحشر أنه يصعد بصاحبه فى درج الجنة على قدر ما يحفظ . فكلما قرأ آية صعد بها درجة . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤ ها)(٥) .

قال الخطابى : « جاء فى الأثر أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارىء ارق فى الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة »(٦) .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .

وأفضل ما يتجلى به القرآن على أصحابه يوم الفزع الأكبر ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(١) . إنه يوم ما أطوله ، ويا له من خطب ما أهوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، فى هذا اليوم اختص الله ثلاثة أنواع من عباده . لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا تهولهم تلك الشدائد ، منهم صاحب القرآن الذى يتلوه ويؤم الناس به وهم راضون عنه . وإليك هذه الأنواع الثلاثة كما بينها الصادق المعصوم . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يُفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم به راضون . وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله . وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين مواليه)(٢) .

ما أجمل أن يشبه الرسول ﷺ صاحب القرآن بجراب محشو مسكا ، يفوح شذاه فيملأ المكان طيبا تنشقه القلوب والأرواح ، ويفيض على الناس عبيرا فواحا وأريجا يبعث فى النفس طمأنينة وسكينة . فاستمع معى إلى حث رسول الإسلام على قراءة القرآن . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا ، فقال : ما معك يافلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك)(٣) .

لو علمت فضل القرآن فى محكمة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة ما غفلت عن قراءته ، وما اشتغلت عن نوره وبركاته ، ولظلت أضواؤه متصلة بقلبك ووجدانك ، إنه يقوم بدور الشفيع لك عند الواحد القهار ، ويؤدى فى محكمة الله شهادة يقبلها العليم الخبير فيك ، أتدرى ما هى ؟ إنه أسهرك الليالى مما جعل النوم يجفوك مصداقا لقول الله : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾(٤) .

فاستمع معى إلى نص هذا الخبر : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيشفعان)(٥) .

لقد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تشاهد هذا المنظر البديع الذى يصوره لنا الصحابى الجليل «أسيد بن حضير» وهو يقصه على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، والرسول يأمره أن يقرأ ، وقد استحضر أسيد الصورة كاملة . إنه مشهد قرآنى رائع ومقام نورانى كريم . إن الملائكة تستمع إلى أسيد وهو

(١) سورة الحج آية : ٢ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٤٦ .
(٤) سورة الذاريات الآيات : ١٥ - ١٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٤٧ .

يقرأ ، بل إن فرسه يضطرب من خشية الله حتى كادت أرجل الفرس تطأ ابنه يحيى ، وها هو ذا أسيد أمام رسول الله يقص عليه ما رآه رأى العين :

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مِرْبَدِه[١] إذ جالت[٢] فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضا . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السُّرُج عرجت[٣] فى الجو حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضا ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم)[٤] . رواه البخارى ومسلم واللفظ له. ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : (فالتفت فإذا أمثال المصابيح مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله ما استطعت أن أمضى ، فقال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب)[٥] .

لو علمت ميزان القرآن فى العمل وما له من فوائد تعود على تاليه المخلص فى تلاوته ، لعلمت أن هناك كنزا يدخره الله لك يوم تلقاه ، فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . إن لك بكل حرف تتلوه من القرآن حسنة ، وإنها لحسنة مضاعفة أى بعشر أمثالها . فقف عند هذا الحديث منصتا بأذن قلبك لتنال من بركاته وأنواره . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا إلى مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله . والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألِفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف)[٦] .

هل علمت أن بركة القرآن كما شملت والديك يا قارىء القرآن فإنها تمتد إلى أكثر من ذلك ، إن للقرآن شفاعة تجعل لقارئه بركة تعم عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار ، وما أدراك ما تلك الشفاعة ؟ إن فيها النجاة من نار وقودها الناس والحجارة وكفى بالنجاة فضلا ، وكفى بالشفاعة منقذا . هلا سمعت إلى قول الصادق المعصوم : (من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار)[٧] .

---

(١) مربده : المربد الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم .
(٢) جالت فرسه : أى دارت وانزعجت .
(٣) السرج عرجت : المصابيح صعدت .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ .

ونختتم هذا الفصل بقوله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين[1])[2] .

فصل فى حرمة القرآن وآداب تلاوته وحقوقه على قارئه

هل علمت يا حامل القرآن وقارئه ما حرمة هذا الكتاب ؟ وما يلزمك من أدب عند قراءته ؟

يقول القرطبى : قال الحكيم الترمذى أبو عبد الله فى «نوادر الأصول» :

* فمن حرمة القرآن ألا يمسه القارىء له إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك ويتخلل ، فيطيب فمه إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبى مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ، ونظفوها ما استطعتم .
* ومن حرمته أن يلبس نظيفا كما يلبس للدخول على الأمير ، لأنه مناج ربه .
* ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . . وكان «أبو العالية» إذا قرأ اعتم (أى لبس العمامة) ، ولبس وارتدى واستقبل القبلة .
* ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . . روى شعبة عن أبى حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه ماء ، إذا تنخع تمضمض ، ثم أخذ فى الذكر ، وكان كلما تنخع تمضمض .
* ومن حرمته إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن .
* ومن حرمته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتدائه للقراءة ، ويقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ .
* ومن حرمته إذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة .
* ومن حرمته أن يخلو بقراءته ، حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ منه فى البدء .
* ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل .
* ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به .
* ومن حرمته أن يقف على آية (الوعد) فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية (الوعيد) فيستجير بالله منه .
* ومن حرمته أن يقف على أمثاله ، فيتمثلها ، وأن يلتمس غرائبه .
* ومن حرمته أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء ، حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات .

---

(١) من المقنطرين : أى ممن كتب له قنطار من الأجر . (٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ، ص ٢٧١ .

* ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : «صدقت ربنا وبلّغ رسولك ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط» ثم يدعو بما شاء من الدعاء .

* ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ ، فإنه روى عن رسول الله ﷺ (أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا ، فأمره أن يقرأ على السور ، أو كما قال)[1] .

* ومن حرمته إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا ، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب ، علما كان أو غيره .

* ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه ، أو على شىء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض .

* ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ ، فإن لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف الصالح يستشفى بغسالته .

* ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب ، فإن ذلك جفاء عظيم .

* ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف ولو مرة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة !

* ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه ، فإن العين تؤدى إلى النفس ، وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن فى الصدر : فإذا قرأه عن ظهر قلب ، فإنما يسمع أذنه فتؤدى إلى النفس ، فإذا نظر فى الخط ، كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك حرى للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن .

روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (اعطوا أعينكم حظها من العبادة . قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر فى المصحف والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه)[2] .

وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : (أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظراً)[3] .

* ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى ، قال حدثنا هشيم بن بشير ، عن المغيرة عن إبراهيم ، قال : كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك ﴿ جئت على قدر يا موسى ﴾[4] ومثل قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسـلفتم فى الأيام الخالية ﴾[5] ، يقال هذا عند حضور الطعام ، وأشباه ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ١٧٥ ط دار الفكر .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٤) سورة طه آية : ٤٠ .
(٥) سورة الحاقة آية : ٢٤ .

* ومن حرمته ألا يتلى منكوسا ، كفعل معلمى الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة ، فإن ذلك مخالفة .
* ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء ، كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانية فإن ذلك كله زيغ .
* ومن حرمته أن يجلل تخطيطه إذا خطه . عن أبى حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة فمر علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته ، فقال له : أجل قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى . فقال : هكذا نوره كما نوره الله عز وجلّ .
* ومن حرمته ألا يجهر بعض القارئين على بعض فى القراءة ، وألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله .
* ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق ، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء . . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ؟! هذا لمروره بنفسه ، فكيف مرور القرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء ؟! .
* ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ، ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله .
* ومن حرمته ألا يصغر المصحف : روى الأعمش عن إبراهيم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا . فضربه بالدرة وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله ﷺ أنه (نهى أن يقال : مسيجد أو مصيحف)[1] .
* ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه : بأن يحلى بالذهب أو يكتب بالذهب ، فتخلط به زينة الدنيا . روى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب ، أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم ، فالدبار[2] عليكم)[3] . وقال ابن عباس ــ وقد رأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق وزينته فى جوفه .
* ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ، ولا على حائط ، كما يفعل ببعض المساجد المحدثة : حدثنا محمد بن على الشقيقى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر ابن عبدالعزيز يحدث قال : مر رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض ، فقال لشاب من هذيل : (ما هذا ؟ قال : من كتاب الله كتبه يهودى ، فقال : لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه)[4] . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط ، فضربه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٥ ط الشعب .
(٢) الدبار : أى الهلاك .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٥ ط الشعب .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٦ ط الشعب .

* ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور . ولذلك كان رسول الله ﷺ (إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور) . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : (عليك بالحال المرتحل . قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : صاحب القرآن ، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يضرب من أوله ، كلما حل ارتحل)[1] : (قلت) : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله : ذكر أبو بكر الأنبارى ، أنبأنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا جرير عن منصور ، عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا ، وجهوا إلينا : احضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن ! وأخبرنا إدريس : حدثنا خلف ، حدثنا هشيم العرام ، عن إبراهيم عن اليمنى قال : من ختم القرآن أول النهار صلّت عليه الملائكة حتى يمسى ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح . . قال فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار .

* ومن حرمته : ألا يقال سورة صغيرة ،وكره أبو العالية أن يقال سورة صغيرة أوكبيرة وقال لمن قالها : أنت أصغر منها ، وأما القرآن فكله عظيم . ذكره مكى رحمه الله . وقد روى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة[2] .

وبعد : أعلمت يا أخى هذه الآداب ، وتلك الحرمات ؟ وإذا كنت علمتها ، فهل عملت بها ؟

والله إن القرآن الكريم بيننا ونحن فى مسيس الحاجة إليه !

فهلا عرفنا له حقه ؟

إن فى القرآن آية تسمى «بكاءة المؤمنين» وهى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[3] .

كانوا إذا قرئت عليهم فاضت أعينهم بالدمع ، يقول كل منهم : ترى من أى الفريقين أنا ؟ أمن الذين اجترحوا السيئات ، أم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ لقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ونفسه تعاف الطعام ، لما نزل عليه قوله تعالى فى وصف أهل النار : ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾[4] وإن أمير المؤمنين «عمر» ـ وهو جبار الجاهلية ، وعملاق الإسلام ـ خر مغشيا عليه ، وظل شهرا مريضا ، عندما سمع القارىء يقرأ سورة ﴿ والطور ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع ﴾[5] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٦ ط الشعب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٣-٢٧ ط الشعب .
(٣) سورة الجاثية آية : ٢١ .
(٤) سورة المزمل الآيتان : ١٢ ، ١٣ .
(٥) سورة الطور الآيات : ١ - ٨ .

والحسن البصرى رضى الله عنه طلب شربة ماء ، فلما شربها بكى بكاء مراً ، فقيل له : يا تقى الدين ما أبكاك ؟ قال : تذكرت قول الله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾[1] .

الحث على مدارسة القرآن والواجب على قارئه وحافظه :

عندما يلجأ المسلم إلى الله ويركن إلى جنابه : ينشرح صدره ، ويشعر قلبه بالطمأنينة ، ويستقر فؤاده بالسكينة . . وهل يجد البشر فى أرجاء هذه الدنيا منارا يستضيئون به أو يأوون إليه إذا لفحتهم حرور الحياة أفضل وأعز من كتاب الله ؟ .

إننى أقف مرفوع الرأس ، عزيز الجانب ، عندما أقرأ هذا الحديث الشريف ، الذى دار بين معاذ بن جبل وبين نبى الرحمة وإمام الهدى محمد ﷺ . . إذ يقول معاذ : يارسول الله عظنا موعظة ننتفع بها .

فبأى شيء وعظه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟

كانت الموعظة تحديدا للمفاهيم ، وتبيانا للحقائق ، بأسلوب فيه الإعجاز والبلاغة كلها . قال الرسول ﷺ فى موعظته : (إن أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والهدى يوم الضلالة ، والظل يوم الحرور : فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن ، حرز من الشيطان ، ورجحان فى الميزان) .

صدقت يا سيدى يا رسول الله . فالقرآن هو القدوة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، والمنهج المستقيم ، وهو الضياء ، والدواء ، والشفاء ، وهو مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة .

لقد بلغ من ترغيب الرسول ﷺ فى الحرص على تلاوة القرآن ودراسته أنه قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)[2] . أرأيت مكانا أجل وأعظم من هذه الروضة المباركة ؟ إنه مكان تتنزل فيه السكينة . . وما أدراك ما هى ؟ إنها مملكة من ممالك الله العليا ، يختص بها من يشاء من عباده ، إذا حلت بالقلوب أكسبتها طمأنينة واستقرارا ، ومن ثم فقد ورد ذكر السكينة فى كتاب الله تعالى فى مواقف حاسمة تكاد تنخلع منها القلوب لشدة ما فيها من الهول . فإذا بالسكينة تنزل على الأفئدة كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى .

ورد ذكر السكينة عندما كان رسول الله ﷺ فى الغار مع أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه . والموقف شديد يفسره قول أبى بكر : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موقف قدميه لرآنا ، فيقول الرسول العظيم محمد ﷺ : (يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾[3]) .

---

(1) سورة الأعراف آية : ٥٠ .
(2) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٤٧٨ .
(3) سورة التوبة آية : ٤٠ .

وعندئذ تنزل السكينة ، وهى النعمة العظمى ، فيقول سبحانه : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾[(١)] .

وفى غزوة «حنين» ، وقد احتدم الخطب ، وادلهم الأمر ، كما قال ربنا جلّ وعلا : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾[(٢)] فماذا حدث والشدة قد استحكمت حلقاتها ؟ . . فالكثرة العددية لم تغن شيئا ، والأرض بأرجائها الرحبة قد ضاقت ، والنبى ﷺ فى ثبات وعزيمة ينادى : (أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب)[(٣)] .

إنها السكينة قد نزلت كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾[(٤)] .

وجاءت السكينة فى سورة «الفتح» امتنانا من الله تعالى على عباده لتكون غايتها ازدياد إيمان المؤمنين . . قال جل شأنه : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾[(٥)] .

وتأتى السكينة فى موضع آخر من سورة «الفتح» أيضا فى بيعة الرضوان ، حين وقف الصحابة يبايعون رسول الله ﷺ على القتال صفا واحدا إن كان أهل مكة قتلوا عثمان بن عفان سفير رسول الله إليهم ، فتنزل السكينة تثبيتا وتقوية وتوكيدا . . قال جل شأنه : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾[(٦)] .

كما تجىء فى موضع ثالث من سورة «الفتح» أيضا . . وذلك أثناء توقيع المعاهدة بين المسلمين والمشركين فى صلح الحديبية ، وحين ركب سهيل بن عمرو مندوب المشركين رأسه ويأبى أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ، ويكتب باسمك اللهم ، كما يأبى أن يذكر فى المعاهدة اسم رسول الله ، بعنوان الرسالة ، ويقول : بل اكتب (محمد) بن عبد الله إلى غير ذلك من التعنت والتعسف ، وعندئذ تثور ثورة المسلمين ، لكن الله تعالى ـ لحكمة يعلمها ، وخير كثير سوف يعود على المسلمين من تلك المعاهدة ـ ينزل السكينة على المؤمنين تثبيتا وتقوية . . يقول جل شأنه وصفا لهذا الموقف : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾[(٧)] .

والمراد بكلمة «التقوى» هنا هى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

تلك مواقع السكينة فى جلالها وجمالها وكمالها .

---

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .
(٢) سورة التوبة آية : ٢٥ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٤ ص ٤٠٥ ط الشعب .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٦ .
(٥) سورة الفتح آية : ٤ .
(٦) سورة الفتح آية : ١٨ .
(٧) سورة الفتح آية : ٢٦ .

إن تلك النعمة ـــ كما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر آنفا ـــ تنزل مع الرحمة والملائكة على الذين يجلسون يقرأون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إنهم ينالون شرفا كبيرا وقدرا رفيعا ، إذ أن الله جل جلاله يذكرهم فيمن عنده من الملإ الأعلى . فما أعظم هذا الشرف : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون ﴾[1] .

وإذا علمت أن تلاوة القرآن وتدارسه له من الشرف ما يجل عن الوصف ، فإن العلم به يزيد هذه المكانة قربا وحبا إلى الله . قال مجاهد رحمه الله : «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل» والمراد بهؤلاء : هم الذين يقرنون العلم بالعمل . لذلك قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ، ويذكر ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه ، فإنه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شاهدا يوم القيامة على من خالف من أهل الملل . . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾[2] .

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أوكد منها على من قصر عنه وجهله ، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن عليه حجة ، وخصما لربه . . فالقرآن حجة لك أو عليك .

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه : أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ، ويتفهم عجائبه ، ويتبين غرائبه . . قال الله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾[3] . وقال عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[4] .

واعلم يا أخى ـــ وفقك الله ـــ أن لتفسير القرآن أهمية كبرى ، ليتسنى لك العمل بما فيه ، وإلا فكيف يعمل الإنسان بما لا يفهم معناه ؟

قال إياس بن معاوية رضى الله عنه : « مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ، ولا يدرون ما فى الكتاب . . . ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب» .

(١) سورة المطففين الآيات : ١٨ - ٢١ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٣) سورة ص آية : ٢٩ .
(٤) سورة محمد آية : ٢٤ .

فصل فى أقوال الأئمة والمفكرين فى القرآن الكريم

* ذكر الإمام الطبرى : أن القرآن الكريم من أعظم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، الذى لو اجتمع جمع من جنها وإنسها ، وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله لما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فجعله لهم فى دجى الظلم نورا ساطعا وفى ظلمة الشبهة شهابا لامعا ، وفى مضلة المسالك دليلا ، وإلى سبل النجاة والحق هاديا : ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[1] . حرسه بعين منه لا تنام ، وأحاطه بركن منه لا يضام . لا تهى على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجوز عن قصد الحجة تابعه ، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه . من اتبعه فاز وهدى ، ومن حاد عنه ضل وغوى . فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون ، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعقلون ، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرون ، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون .

* ويقول الإمام الزركشى فى مقدمة كتابه البرهان : «أما بعد ، فإن أولى ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللواقح : الفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل ، والنعمة الباقية ، والحجة البالغة ، والدلالة الدامغة . وهو شفاء الصدور ، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور ، وهو الكلام الجزل ، وهو الفصل الذى ليس بالهزل . سراج لا يخبو ضياؤه ، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه ، وبحر لا يدرك غوره . بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتقارن فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه . قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه ، وقسم لفظه ومعناه ، إلى ما ينشط السامع ، ويقرط المسامع ، من تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ما له مزيد ، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة ، والصناعة الرفيعة .

كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ، ومن طلعتها غرة ، ومن بهجتها درة ، لاحت عليها بهجة القدرة ، ونزل ممن له الأمر ، فله على كل كلام سلطان وإمرة ، بهر النفوس بتمكين فواصله ، وحسن ارتباط أواخره وأوائله ، وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته ، من قصص باهرة ، إلى مواعظ زاجرة ، وأمثال سائرة ، وحكم زاهرة ، وأدلة على التوحيد ظاهرة . بالتنزيه والتحميد سائرة ومواقع تعجب واعتبار ، ومواطن تنزيه واستغفار . إن كان سياق الكلام ترجية : بسط ، وإن كان تخويفا : قبض ، وإن كان وعدا : أبهج ، وإن كان وعيدا : أزعج ، وإن كان دعوة : حدب ، وإن كان زجرة : أرعب ، وإن كان موعظة : أقلق ، وإن كان ترغيبا : شوّق !

---
(١) سورة المائدة آية : ١٦ .

فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب ، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب . . لا تستقصى معانيه فهم الخلق ، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق ! .

فالسعيد من صرف همته إليه ووقف فكره وعزمه عليه . والموفق من وفقه الله لتدبره ، واصطفاه للتذكير به وتذكره» .

* جاء فى تفسير الطبرى قوله : « حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما فى آيات القرآن من المواعظ والتبيان ، بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[١] ، وقوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾[٢] .

وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن ، والاتعاظ بمواعظه ، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات ، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان ، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ثم يتدبره ويعتبر به » .

* ويقول العلامة ابن كثير فى مقدمة تفسيره : « فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله ، وتفسير ذلك وطلبه وتعلم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[٤] » .

* قال تقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم عباده فيما أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابها ولا غيره » .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله تعالى وتطلب تفسيره ، ولذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» .

كان الواحد منهم إذا دخل بيته بادرته زوجه بهذين السؤالين : كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟ . . أما عند خروجه من بيته فكانت توصيه وتقول له : « اتق الله ، ولا تكسب حراما ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب جهنم يوم القيامة » .

(١) سورة ص آية : ٢٩ .
(٢) سورة الزمر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٧٧ .

إن هؤلاء النفر ـ الذين تخرجوا فى أعظم مدرسة ، تتلمذوا فيها على يدى الكتاب والسنة ـ كنت تسمع القرآن منهم وله دوى كدوى النحل . . حفظوه فى صدورهم ، وعملوا به فى حياتهم ، وفتحوا به الدنيا ، فدانت لهم ، فلما أهملنا نحن هذا النهج تفرقت كلمتنا ، وأصبحنا مطمع الحاقدين ، وهانت علينا أنفسنا ، فهنّا على الناس .

أخى فى الإسلام : أقبل على القرآن ، وتفهم معانيه ، فليس هناك شك فى أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهى المجيد .

ومن هنا قال سعيد بن جبير رحمه الله : «من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابى» (يقصد البدوى الجاهل الذى لم يتعلم) .

آراء المنصفين من علماء الغرب فى القرآن الكريم :

* قال «جاستون كارمن» من مستشرقى فرنسا المشهورين : «إن القرآن ، وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم . . ففى إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام» !

* ويقول المؤرخ الإنجليزى «ادوار جيبونة» : «إن موحداً ذا رأس فلسفى ، لا يتردد لحظة فى قبول وجهات نظر الإسلام . . فالإسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم» ! .

* وقال المستشرق «كارلايل» وهو من أساتذة جامعة كمبردج : «إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلّغها محمد إلى العالم حق وحقيقة» .

* وقال «ستنفاس» مؤلف قاموس عربى إنجليزى : «القرآن واحد من أهم الكتب التى انتقلت إلى الناس ليستفيدوا منها . . فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية فى حياتهم» .

* ويقول «ديود» مؤلف كتاب (روح الشرق) : «الإسلام يقدم براءة النجاة للتابعين ، وسجل أخلاق للمتبوعين ، ويؤيدهما بالدين» .

* وقال المستشرق «سيديو» فى كتابه «تاريخ بلاد العرب» : «القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة . . فالفضيلة والرذيلة والخير والشر ، وماهية الأشياء الحقيقية كلها مبينة فى القرآن . . فقد أوحيت آياته إلى محمد ﷺ بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد» .

* ومن كتاب «حياة محمد» للفيلسوف الفرنسى «الكس لوازون» : «خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق ، وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية التى كشفت حديثا ، أو المخترعات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية» .

* وقال الكاتب الأمريكى «واشنطون إيرفينج» : «يحوى القرآن أسمى الآراء وأنفعها وأكثرها إخلاصا» .

* وعن المستشرق والفيلسوف الألمانى «بوجان يعقوب رايس» : «ما إن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ، ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة والعظيمة المؤثرة وأحسوا باللسان المحير للألباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين : يا رسول الله أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك» .

* ومما قاله «ليون» : «حسب القرآن جلالا ومجدا ، أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه ، لم تستطع أن تجفف ــ ولو بعض الشىء ــ من أسلوبه الذى لا يزال غضا ، كأن عهدها بالوجود أمس» .

* ويقول «جيمى متشيز» فى مقال له : «لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو ــ بكل تأكيد ــ أيسرها حفظا ، وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيمانا وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بأصداء الطبيعة . . ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى يتعلق بالمعاملات بين الناس . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية ، جعل القرآن كتابا فريدا ، ووحدة متماسكة» ! .

هذا هو القرآن الكريم ، معجزة نبى الإسلام ، وصدق الله العظيم الذى يقول عنه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[1] . ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[2] .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[3] . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[4] .

كلمة لابد منها :

ونحن بين يدى موضوع هذا الكتاب ، وهو تفسير كلام الله تعالى ، نرى لزاما علينا أن نذكر بحثاً خاصاً بالقرآن العظيم[5] نقصد من ورائه بسط صورة نسأل الله أن تكون وافية كافية عن هذا الكتاب العظيم . يقول البحث فى تعريفه للقرآن الكريم :

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ . (٢) سورة النساء آية : ٨٢ .
(٣) سورة الإسراء آية : ٨٨ . (٤) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٥) هذا البحث لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة . جاء فى كتاب « مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر » عن مجمع البحوث الإسلامية . شعبان ١٣٩٢هـ سبتمبر ١٩٧٢ م (المؤتمر السابع) .

القرآن الكريم : هو كلام الله عز وجل ، المنزل على خـاتم أنبيائـه ورسله ، محمد ﷺ ، المعجـز بلفظه ، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

والقرآن الكريم : لفظه ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى ، ليس لجبريل ــ عليه السلام ــ فيه إلا تبليغه إلى النبى ﷺ ، وليس للنبى ﷺ فيه إلا تبليغه إلى الناس كافة ، وليس للصحابة ومن جاء بعدهم فيه إلا الحفظ والنقل بأمانة ودقة فائقتين من غير تزيّد ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل ، حتى وصل إلينا كما أنزله غضاً طريا ، كأن عهده بالنزول أمس .

والقرآن الكريم : هو كتاب الهداية الربانية الكبرى ، أنهى الله ــ سبحانه وتعالى ــ إليه كل تشريع حكيم ، وناط به سعادتى الدنيا والآخرة ، لأنه التشريع العام الخالد الذى تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر فى أمور دينهم ودنياهم : فى العقائد والأخـلاق ، والعبادات والمعـاملات ، والحـدود والجنائيـات ، وفى الاقتصاد والسياسة والمعاهدات ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب .

وهو فى كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتريه خلل ولا تناقض ، وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾(١) .

وهو أصيل غاية الأصالة ، وعادل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة ، وصادق غـاية الصـدق : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾(٢) ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خساراً ﴾(٣) ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(٤) .

فلا عجب أن كان الشفاء الناجع لأمراض القلوب ، وأدواء المجتمعات ، وأن كان أعظم مصلح لأحوال العباد والبلاد ، فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، وأشرقت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله سبحانه فى قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ . . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبـل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾(٦) .

---

(١) سورة النساء آية : ٨٢ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١١٥ .
(٣) سورة الإسراء اية : ٨٢ .
(٤) سورة فصلت من الآية ٤١ والآية ٤٢ .
(٥) سورة الإسراء الآيتان : ٩ ، ١٠
(٦) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

والقران الكريم : هو المعجزة العظمى ، والحجة البالغة ، والآية الباقية على وجه الدهـر لرسـول البشرية ، ومنقذ الإنسانية : سيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تحدى به الإنس والجن ، والعرب وغير العرب ، ووقع التحدى به على مرات متعددة ، كى تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، وتنقطع المعذرة .

تحداهم أولاً : أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وماقدروا ، قال عز شأنه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] . ثم تحداهم ثانياً : أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا ، قال تعالى فى سورة هود المكية : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾[2] .

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أية سورة مهما قصرت ، كسورة « الكوثر » فما رفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى سورة يونس المكية : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾[3] .

ثم كرر التحدى بسورة ما ، فى القسم المدنى ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[4]

فألقموا حجرا ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة !! وبذلك ثبت إعجاز القرآن على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب ، ثبت عجز غيرهم بطريق الأولى . على أن القرآن العظيم لا يزال يتحدى بأقصر سورة منه البشر جميعا ، فهل من معارض ؟ ! .

والقرآن : هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى ، وجامعتهم العظمى ، به اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها ، وبه صار العرب أمة واحدة متآلفة القلوب متجانسة المزاج ، متحدة اللسان ، متشابهة البيان ، ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد .لقد مرت باللغة العربية أحقاب من الإهمال لها واضطهادها بل ومحاولات ظالمة آثمة للقضاء عليها وإماتتها ، ولولا هذا الكتاب العربى المبين ، لاستعجمت لغة العرب ، وأصبحت فى عداد اللغات الميتة ، ولانقطعت الصلة بين علوم السلف والخلف ، بل وبين ماضى الأمة وحاضرها ، وهنالك تكون الطامة الكبرى ، ولما كانت هذه الثروة الطائلة التى تدور حول القرآن ، ولغة القرآن ، وآداب القرآن . وما

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٢) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٣) سورة يونس الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

من عربي ـــ أيًّا كان دينه ـــ إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز ، وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ، ووجدانه الأدبي ، وروحه العربية الصافية الشفافة .

والقرآن : هو الذى فك العقول من عقالها وأطلق النفوس من إسارها ، وأنحى على التقليد والمقلدين بالذم والتوبيخ : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[١] . وقد تكرر هذا المعنى فى غير ما آية (المائدة : ١٠٤) ، (لقمان : ٢١) وهو الكتاب الذى وجه العقول والأنظار إلى النظر فى الأنفس ، وما فيها من عجائب ، وغرائز ، وأسرار : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[٢] . وإلى النظر فى الكون : علويه وسفليه ، وظاهره وخفيه ، وما ينطوى عليه من حكم ، وما أودع فيه من خواص وسنن ، وأفاض فى ذلك فى كثير من آياته إفاضة فاقت الحد . قال عز شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[٤] . وقد روى أن النبى ﷺ قال لما نزلت : (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) إلى غير ذلك من الآيات التى لا يحصيها العدّ .

والقرآن : حينما دعانا إلى النظر فى الأنفس والآيات الكونية ، لم يرد أن نقف عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب ، وإنما أراد ـــ إلى ذلك ـــ استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار ، والتقصى عما فى الكون من عجائب وسنن وخواص . ولو أن المسلمين استفادوا بما فى هذا الكتاب العظيم من توجيهات وإرشادات ، لكانوا أسبق الأمم إلى الكشوف العلمية ، والاختراع والإبداع ، ولصاروا سادة الدنيا ، وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ، ولم يستفيدوا بهدى القرآن وتوجيهاته ، فكانوا على ما ترى !! .

والقرآن : هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على التفرقة العنصرية ، والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس قاطبة ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لشريف على وضيع ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وهو جماع كل هدى وخير وحق ، قال عز شأنه : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[٥] .

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ إلى وجهة الهدى والعدل والحق والخير ،

(١) سورة البقرة آية : ١٧٠ .
(٢) سورة الذاريات آية : ٢١ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٩١
(٥) سورة الحجرات آية : ١٣ .

وأقام أمة كانت مضرب الأمثال فى الإيمان ، والإخاء ، والعدل والرحمة ، والاتحاد والمحبة ، وصير من أبناء الصحراء ، رعاة الإبل والشاء ، خلفاء عادلين رحماء ، وعلماء حكماء ، وسادة قادة ، فى القيادة والسياسة ، والسلم والحرب ، عقمت الدنيا عن أن تجود بأمثالهم .

وهو الكتاب الذى لا تفنى ذخائره ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة التكرار ، كلما كررته لا يزداد إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

تـزداد منـه عـلى تـرداده ثقـة وكـل قـول عـلى التـرداد مملول

وتلك لعمر الحق : خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان فى شك من هـذا فليستفت الذوق والوجدان ، والقلوب والآذان ، وليوازن فى هذا بين كلام الرحمن ، وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اعترف ، ومهما تعاقبت على هذا الكتاب الأجيال ، فلا يزداد إلا جدة وطرافة ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للنـاس منه العجب العجـاب ، وصدق الحق ــ تبـارك وتعالى ــ حيث يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[1] . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماداه : أنك لن تجد فى الكشف عن حقيقة هذا الكتاب العظيم وخفاياه وفضائله ، ومزاياه أوفى ولا أبلغ ولا أروع مما وصفه به سيدنا محمد بن عبد الله حين قال : (ألا إنها ستكون فتنـة ! قلت : وما المخرج منهـا يا رسـول الله ؟ قال : كتـاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر مـا بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق ــ أى يبلى ــ من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾[2] . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن اهتدى به هدى إلى صراط مستقيم)[3] رواه الترمذى فى سننه .

إن كتابا هذا بعض شأنه لجدير أن تعرف له الدنيا كلها فضله ومنـزلته ، لا المسلمـون وحدهم ، ولا العرب وحدهم ، لأن أفضاله وبركاته لا على هؤلاء فحسب ، وإنما على البشرية جمعاء .

(١) سورة فصلت آية : ٥٣ . (٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .
(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

فصل فى جمع القرآن الكريم

جمع القرآن الكريم يطلق ويراد به : الحفظ في القلوب ، ويطلق ويراد بـه : الكتابـة فى الرقـاع ونحوها ، والصحف والمصاحف ، وقد اجتمع للقرآن الجمعان : الحفظ والكتابة . ولنأخذ فى بيان كـل فنقول وبالله التوفيق :

حفظ النبى ﷺ :

كان أول ما نزل من القرآن على النبى ﷺ آيات من صدر سورة « اقرأ » وهو يتعبد بغار حراء ، وكان ذلك فى رمضان من السنة الأولى للنبوة ، وفى اليوم السابع عشر منه ، على ما أجمع عليه المحققون من العلماء . ثم فتر الوحى مدة كى يشتاق إليه النبى ﷺ ، ثم نزل . . وكان أول ما نزل بعد ذلك قوله سبحانه : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر ﴾[١] ، ثم حمى الوحى وتتابع حتى تم نزول القرآن كله قبيل وفاة النبى ﷺ بواحد وعشرين يوما وقيل بأقل من ذلك ، وكان آخر ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٢] . وقد روى أن جبريل لما نزل بها قال للنبى ﷺ : « ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة » . وكان النبى ﷺ شديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه من جبريل حتى بلغ من شدة عنايته وحرصه على حفظ لفظه ، أنه كان يحرك به لسانه ، ويعالجه أشد المعالجة ، حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف ، حتى طمأنه ربه ، ووعده أن يحفظه له فى صدره ، وأن يقرئه لفظه ، ويفهمه معناه . قال عز شأنه : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾[٣] ، أى جمعه لك فى صدرك وإقراءه لك بوساطة أمين الوحى جبريل ، فإذا قرأه جبريل ، فأنصت حتى إذا فرغ فاقرأ عقبه ما سمعت منه . ثم إنا سنتكفل لك ــ أيضا ــ ببيانه ، وتفسير معناه . وهو ضمان من الله ــ عز شأنه ــ بأنه سيحفظه فى صدره ، ولن تفلت منه كلمة أو حرف .

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبى ــ صلوات الله وسلامه عليـه ــ القرآن ، وتثبيتـه فى قلبه ، معارضة جبريل ــ عليه السلام ــ إياه بالقرآن فى رمضان من كل عام .

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »[٤] . فكان جبريل والنبى يتدارسان القرآن ، ويعارضان

(١) سورة المدثر الآيات : ١ - ٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨١ .
(٣) سورة القيامة الآيات : ١٦ - ١٩ .
(٤) صحيح البخارى جـ ١ ص ٥ ط الشعب .

ما نزل منه من رمضان إلى رمضان ، جبريل يقرأ والنبى يسمع ، والنبى يقرأ ، وجبريل يسمع حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول ﷺ فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ وهو زيد بن ثابت ــ رضى الله تعالى عنه .

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : (دعا النبى ﷺ فاطمة بنته فى شكواه الذى قبض فيها فسارّها بشىء فبكت ثم دعاها فسارّها فضحكت . قالت : فسألتها عن ذلك ، فقالت : سارّنى النبى ﷺ فأخبرنى أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه فبكيت ثم سارّنى فأخبرنى أنى أول أهل بيته أتبعه فضحكت)[1] .

وكان القرآن شغل النبى الشاغل فى صلاته وتهجده ، وفى سره وعلانيته ، وفى حضره وسفره ، وفى وحدته وبين صحابته ، وفى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لا يغيب عن قلبه ، ولا يألو جهدا فى تعهده وتكراره ، والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه وقصصه ، والتأثر بأمثاله وحكمه ، والتأدب بآدابه وأخلاقه ، وتبليغها إلى الناس كافة ، فمن ثم : كان النبى ﷺ مرجع المسلمين فى حفظ القرآن وفهمه ، والوقوف على أسراره ومراميه .

حفظ العدد الكثير من الصحابة للقرآن الكريم ودواعيه :

كان النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إذا نزلت عليه الآية أو الآيتان أو الخمس أو العشر من الآيات ، أو السورة ، يحفظها ويفقهها ، ويلتزمها عملا وسلوكا ثم يقرؤها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ، ويفقههم بها ، ويبين لهم طريقة أدائها وآداب تلاوتها ، كى يحفظوا اللفظ ، ويفقهوا المعنى ، ويستقيموا عليها ، ويلتزموها عملا وسلوكا .

وقد أحل الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ القرآن المحل الأول ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به ، يتنافسون فى حفظ لفظه ، ويتسابقون فى فهم معناه ، وجعلوه متعبدهم فى ليلهم ، ومسلاتهم فى فراغهم ، وصاحبهم فى أسفارهم ، وأنيسهم فى وحدتهم ، وصديقهم الصدوق فى منشطهم ومكرههم ، ومستشارهم الأمين ، فى شئون دينهم ودنياهم . وما ظنك بكتاب يعتقدون ــ وحق لهم ذلك ــ أن تلاوته عبادة ، والاشتغال به من أعظم القربات إلى الله ، وأن عزهم لن يكون إلا به ، وأن سعادتهم فى الدنيا والآخرة لن تتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ، وأن منازلهم فى الدنيا والآخرة على حسب منازلهم فى حفظه وفقهه وتدبره .

لقد كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بعث بعثا ، جعل

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٦ ط الشعب .

إمامهم فى صلاتهم أكثرهم قراءة فى القرآن ، بل إذا جمع بين اثنين أو أكثر فى قبر لضرورة ، كما حدث فى شهداء أحد ، سأل : « أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ » ، فإذا أشير إليه قدمه فى اللحد .

ومن ثم كانت الدواعى متوافرة على إجادة حفظه وإتقانه ، حتى بلغوا فى ذلك الغاية ، وقد أثنى عليهم الحق ــ تبارك وتعالى ــ فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[(1)] . وقد وصفهم واصف فقال : كانوا رهبانا بالليل ، فرسانا بالنهار .

وكان اعتمادهم فى الحفظ على التلقى والسماع من النبى ﷺ أو ممن سمعه من النبى من الصحابة ، ولا سيما القارئين المجيدين منهم ، كعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وأمثالهم ، وما كانوا يعتمدون فى حفظه على النقل من الصحف أو المصاحف بعد كتابتها ، بل كان اعتمادهم على الرواية والأخذ الشفاهى من الشيوخ أو بالعرض والقراءة عليهم ، وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة متبعة عند الحفاظ القراء المجيدين إلى عصرنا هذا ، لتبقى سلسلة الأسناد متصلة بالقرآن الكريم إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الحفظ بالغيب خصيصة للقرآن وللأمة الإسلامية :

ومن خصائص هذا الكتاب الكريم : أن الله عز شأنه كلف الأمة بحفظه كله ، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر ، وإلا أثمت الأمة كلها ؛ بخلاف التوراة والإنجيل ، فلم تكلف أمتها بحفظها ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء اعتمد على المكتوب فى القراءة ، وهذا الأخير هو الأعم والأغلب من شأن بنى إسرائيل تجاه التوراة وكذلك الإنجيل ولم تتوافر الدواعى لحفظهما كما توافرت للقرآن الكريم ، فمن ثم لم يكن لهما من ثبوت النص القطعى مثل ما للقرآن ، ومن هنا سهل ثبوت التحريف والتبديل فيهما من الأحبار والرهبان والقسيسين ، وذلك يرجع إلى أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن معجزة بلفظها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شاء الله ــ وله الحكمة البالغة ــ أن يكون معجزا بلفظه ، فكان من الضرورى المحافظة على النص بالطرق القطعية ، فتوافرت له من الدواعى إلى ذلك ما لم تتوافر لغيره من الكتب السماوية بله الأرضية .

وأيضا : فالقرآن هو أصل الدين العام الخالد الباقى ما بقى إنسان على وجه الأرض وهو الإسلام ، فكان لابد من المحافظة على كتابه ، ولا كذلك التوراة والإنجيل ، فقد كانا كتابى دينين يمثلان طورين خاصين من أطوار الدين السماوى . عن جابر بن عبد الله قال : (قال رسول الله ﷺ . أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصه وبعثت إلى الناس كافة)[(1)] . رواه البخارى .

(١) سورة الذاريات الأيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٢) صحيح البخارى جـ١ ص ١١٩ ط الشعب .

ويدل على أن الاعتماد فى القرآن على الحفظ ، وأن الأمة مكلفة بحفظه ، مارواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : (إن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم . قلت : أى ربى إذن يتلفون رأسى ، حتى يدعوه خبزة . فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق ينفق عليك)[١] . فقد أخبر سبحانه وتعالى : أن القرآن لا يكتفى فى ثبوته وحفظه بصحيفة تغسل بالماء ، وإنما محله القلوب والصدور ، وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ الكتابة ، فقد ازداد التوثيق والاطمئنان ، كما ورد فى وصف الأمة الإسلامية : « أناجيلهم فى صدورهم » أى كتابهم المقدس المعول عليه فى بقائه ، وسلامته من التحريف والتبديل ـ الحفظ ـ بخلاف أهل الكتاب فإنهم لا يحفظونه إلا من الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن فى كثير من المسلمين .

عن سهل بن سعد الساعدى قال : (جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله جئت أهب لك نفسى . قال : فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعَّد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها . فقال : وهل عندك من شىء ؟ قال لا والله يا رسول الله . فقال : اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ما وجدت شيئا . فقال رسول الله ﷺ : انظر ولو خاتما من حديد . فذهب ثم رجع فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى . قال سهل : ماله رداء فلها نصفه . فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك ؟ إن لبسْتَه لم يكن عليها منه شىء وإن لَبِسَتْه لم يكن عليك شىءٌ . فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال : ماذا مَعَكَ من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا وسورة كذا ـ عددها ـ فقال : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال : نعم . قال : اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن)[٢] .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جمٌّ غفير من الصحابة ، منهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وابن عباس ، وابن الزبير وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبوه ، وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد وغيرهم .

ومهما يكن من شىء ، فقد حفظ القرآن الكثيرون فى عهد النبى ﷺ منهم من حفظه من أوله إلى آخره ، ومنهم من حفظ معظمه ، ومنهم من حفظ بعضه ، وقد يتفق على حفظ السورة منه المئون أو الآلاف ، وقد يتفق على حفظ السورة الأخرى مثلهم أو أكثر منهم ، وهكذا . فيخلص لنا من هذا : تواتر نص القرآن كله فى جملته وتفصيله ، وليس أدل على هذا من أنه أصيب فى يوم « بئر معونة » سبعون من القراء ، وأنه قتل فى يوم اليمامة ـ وهى بعد الوفاة النبوية ـ نحوا من سبعمائة ، وقيل : خمسمائة من القراء حفظة القرآن .

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٣٥ ط عيسى الحلبى . (٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٩٨ ط الشعب .

من حفظ القرآن من النساء

وكذلك شارك فى حفظ القرآن النساء الصحابيات ، منهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله .

قال الإمام السيوطى : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن ، لم يعدها أحد ممن تكلم فى ذلك ، فأخرج ابن سعد فى « الطبقات » قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، قال : حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال : حدثتنى جدتى : عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن : « أن رسول الله ﷺ حين غزا بدرا قالت له : أتأذن لى فأخرج معك أداوى جرحاكم وأمرض مرضاكم ، لعل الله يهدى لى شهادة ؟ » . قال : (إن الله قد مهد لك شهادة) ، وكان رسول الله ﷺ أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن ، فغمها غلام لها، وجارية كانت قد دبرتها ، فقتلاها فى إمارة عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : صدق رسول الله ﷺ وكان يقول : « انطلقوا بنا نزر الشهيدة » . فأكرم بها من مسلمة حافظة حتى استحقت أن تؤم أهل دارها .

إزالة شبهة فى هذا المقام :

ولكن قد يشكل على ما ذكرنا ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه ، عن أنس بن مالك قال : « مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » ، وقد روى ابن أبى داود بإسناد صحيح ، على شرط البخارى عن أنس : « أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه : « قيس بن السكن » قال (أى أنس) : وكان رجلا مسنا من بنى عدى بن النجار ، أحد عمومتى ، ومات ، ولم يدع عقبا ونحن ورثناه)[1] .

وفى الحق : أن هذا الإشكال ، لا يتجه إلا إذا كان أنس ـ رضى الله عنه ـ أراد الحصر بالنسبة إلى جميع الصحابة ، وهذا لا يتم إلا إذا كان أنس لقى كل الصحابة وسألهم واحدا واحدا عن ذلك ، حتى يتم له الاستقراء ، وهذا أمر مستبعد عادة ، وإنما المراد : إثبات ذلك للخزرج دون الأوس ، فلا ينفى حفظ الكثيرين له من غير القبيلتين من المهاجرين ، قد قال ذلك فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج ، كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال : « افتخر الحيان : الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة : من اهتز له العرش : سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين : خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة : حنظلة بن أبى عامر ، ومن حمته الدبر : عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح . فقال الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم » . ويؤيد أن مراده هذا : أن الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقانى ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، ط عيسى البابى الحلبى .

كثيرون غير هؤلاء الأربعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عمرو وغيرهم ممن استفاضت الرواية فى إثبات حفظهم للقرآن .

ومما لا ينبغى أن يرتاب فيه : أن الصدّيق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن كله فى حياة الرسول لكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف ما ينزل من القرآن ، وقد ثبت فى الصحيح ، وفى كتب المغازى : أنه بنى له مسجدا ـ وهو فى مكة ـ فى فناء داره فكان يقرأ القرآن فيه ، حتى لقد خاف المشركون على نسائهم وأبنائهم وبناتهم أن يفتنوا بقراءته ، ويسلموا ، فقد كان بكاءً بالقرآن ولقراءته من التأثير فى نفس السامع ما يفوق السحر .

وأيضا فقد سأل أنسا قتادة عمن جمع القرآن على عهد النبى ﷺ فقال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى » رواه البخارى[1] .

فها أنت ترى أنه قيد ذلك بالأنصار ، فلا ينافى أن جملة المهاجرين كانـوا يحفظونـه ولا سيما أهـل الصفة ، الذين كانوا منقطعين لتلاوة القرآن ، وتلبية نداء الجهاد ، كما أنه ذكر فى الرواية الثانية : أبى بن كعب بدل أبى الدرداء ؛ مما يدل دلالة أكيدة أنه لم يرد الحصر الكلى الحقيقى ، وإلا فغير معقول أن يناقض نفسه بنفسه . فالحديث الآخر يدل على أنه كان هناك من الأنصار من يحفظه غيرهم ، ولكن هؤلاء الأربعة أشهر من غيرهم . على أن هذا الحديث وأمثاله ، قد تحيط به ظروف وملابسات توضح ما يراد به ، ولكن الراوى أغفلها نسيانا أو إيجازا واقتصارا فمن ثم أشكل على البعض .

قال بعض العلماء : لعل مراد أنس أن هؤلاء الأربعة هم الذين أخذوا القرآن عن الرسول مباشرة ، أما غيرهم : فأخذ بعضه بالتلقين ، وبعضه بالواسطة . وقال آخرون : إن المراد بالجمع الكتابة . وإن المراد أنهم فضلا عن حفظ لفظه كتبوه من أوله إلى آخره ، أما غيرهم فقد كتب بعضه ، وترك بعضه .

وسواء أكان الحق فى تأويل الحديث هذا أم ذاك ، فالأئمة جميعا على أن الحديث لا يراد به ظاهره ، وأن الذين حفظوا القرآن من الصحابة هم كثير ، وهو ما هدانا إليه الدليل ، والبحث العلمى النزيه .

حفظ القرآن بعد عصر الرسول ﷺ :

وأما بعد وفاة الرسول ﷺ : فقد أتم حفظه الألوف من الصحابة ، وعن الصحابة أخذه وحفظه ألوف الألوف من التابعين ، وعن التابعين : أخذه وحفظه عشرات ألوف الألوف من تابعى التابعين ، وهكذا دواليك . تلقاه جيل بعد جيل بالحفظ والعناية والرعاية ، حتى أصبح حفظة القرآن وحملته لا يحصون ،

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

وحتى وصل إلينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل ، فكان تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافـظون ﴾[1] . وسيبقى هكذا مـا بقى مسلم على وجـه الأرض .

توثيق حفظ النص بالكتابة

كتابة القرآن فى عهد النبى ﷺ :

لم يكتف النبى ﷺ بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له ، بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده فى الرقاع ونحوها . وكان للنبى كتاب يكتبون الوحى ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب وغيرهم . فكان إذا نزل على النبى ﷺ شىء من القرآن ، دعا بعض من كان يكتب ، فيأمره بكتابـة مانـزل ، وإرشاده إلى موضعه ، وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشد إليه أمين الوحى ـ جبريل ـ عليه السلام .

روى أصحاب السنن الثلاثة، وصححه ابن حيان والحاكم، من حديث عبد الله بن عباس عن عثمان ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الشىء يدعـو بعض من يكتب عنده ، فيقول : ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا)[2] .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع »[3] . قال البيهقى : يشبه أن يكون المراد تأليف مانزل من الآيات المفرقة فى سورها وجمعها بإشارة النبى ﷺ ، ولم يكن الورق ميسرا فى ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه حسب ما يتيسر لهم فى الرقاع والعسب ، والأكتاف والحجارة والأخشاب ونحوها ، وقد كتب القرآن كله بين يدى النبى ﷺ على هذا النحو ، وكان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

كتابة الصحابة للقرآن :

وأما الصحابة ، فكان بعضهم لا يكتب القرآن اعتمادا على الحافظة وقوة الذاكرة ، كـما هو شـأن العرب فى حفظ شعرهم ونثرهم وأنسابهم ، وكان بعضهم يكتب على هذا النحو أيضا ، وذلك لما فهموه من الإذن لهم فى الكتابة من قوله ﷺ : (لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب غير القرآن فليمحه) . رواه مسلم فى صحيحه .

وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيـما يكتبون عـلى ما ثبت بـالتواتـر ، بل كـانوا يكتبـون بعض

---

(١) سورة الحجر آية : ٩ .
(٢) مناهل العرفان فى علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقانى جـ١ ص ٢٤٠ ط عيسى البابى الحلبى .
(٣) المرجع السابق .

المنسوخ ، وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلـك كما فعـل ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عبـاس وغيرهم .

والخلاصة : أن النبى ﷺ لم يجاوز إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب ومحفوظ ، وأن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه أيضاً ، إلا أن المعول عليه فى القرآن هى النسخة المحررة التى كتبت بين يديه ، وبإرشاده ﷺ ، والتى حازت أعلى درجات الثقة والاطمئنان .

حكمة الكتابة :

والسبب الباعث على كتابته فى عهد النبى ﷺ :

١ ــ معاضدة المكتوب للمحفوظ ، ليتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ، ولذا كان المعول عليه عند الجمع فى الصحف أو المصاحف الأمرين : الحفظ والكتابة .

٢ ــ تبليغ الوحى على الوجه الأكمل ، لأن الأعتماد على الحفظ فحسب غير كاف ، لأن الحفظ عرضة للنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقية .

لِمَ لمْ يكتب القرآن فى مكان واحد ؟

لم يكتب النبى ﷺ القرآن على غير هذا النحو من التفريق لما يأتى :

١ ــ أن القرآن لم ينزل كله مرة واحدة ، بل نزل منجما مفرقا ، فمن ثم كان كلما نزل منه شىء كتب فى رقعة ، أو قطعة من حجر ، أو خشب ، أو عظم .

٢ ــ ترتيب آيات القرآن وسوره على ما هو عليه فى المصاحف ، لم يكن على حسب النزول ، بل كان على حسب تناسب الآى ، وترابطها البلاغى ، وعلى حسب ما يـدعو إليـه الإعجاز ، وقـد تنزل الآيـة أو السورة بعد الآية أو السورة ، وتكون فى ترتيب الحفظ والكتابة قبلها . وقد ذكر السيوطى فى الإتقان عن محمد بن سيرين : أنه سأل عكرمة عن تأليف القرآن : ألفوه كما أنزل الأول فالأول ؟ فقال : « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا » ولن يستطيع أحد ذلك ، وإن زعم بعض الأفاكين .

ومن ثم نجد أن كتابته فى موضع واحد متعذرة ، إن لم تكن مستحيلة ، فى كتاب نزل مفرقا فى بضع وعشرين سنة ، فلما انقضى الوحى ، وتم بوفاة النبى ﷺ وأمن النسخ ، وعرف الترتيب ، ألهم الله الخلفاء الراشدين المهديين ، فقاموا بجمع القرآن فى الصحف ، كما حدث فى عهد الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ وفى المصاحف ، كما حدث فى عهد عثمان ـ رضى الله عنه .

كتابة القرآن فى عهد الصديق أبى بكر

« رضى الله عنه »

لما تولى الصديق أبو بكر الخلافة ، كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة ، والقضاء على هذه الفتنة ، وبذلك : أقام عمود الإسلام ، وثبت دعـائمه بعد أن كادت تتقوض . ولما وقعت موقعة اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة ، استحرّ القتل فى الصحابة ، ومات من حفّاظ القرآن خلق كثير ، قيـل خمسمائـة وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، أن يكثر القتل فى القراء فى بقية المواطن ، وربما يكون عندهم شىء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على سيدنا أبى بكر بأن يجمع القرآن فى موضع واحد ، وصحف مجموعة بدل وجوده مفرقا ، فتردد الصديق أول الأمر ، ولكن لم يزل به الفاروق حتى وافق ، وثبت عنده أن الجمع ليس من المبتدعات المذمومة ، وإنما هو من الواجبات التى تدعو إليها قواعد الدين والشريعة ، فأرسلا إلى زيد بن ثابت ، كاتب الوحى ، وعرضا عليه الأمر ، فراجعهما ، ولكنهما لم يزالا به حتى ظهر له الحق ، واستبان له الرشد ، فجمعه بعد جهد جهيد ، وإليك ما رواه الثقات العدول فى هذا :

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده ، عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىَّ أبو بكر ، بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتانى فقال : إن القتل استحرّ بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن يجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير . فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قالا : هو ـ والله ـ خير . فلم يزل أبو بكر يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخـاف ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . ﴾ إلى آخر السورة . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر فى حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »[1] .

وقد أخرج ابن أبى داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » . وقد اختلف فى المراد بالشاهدين ،

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٨٩ ط الشعب .

فقال الحافظ ابن حجر : المراد من الشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين : أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ . وكان غرضهم ألا يكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ . والقول أنهم لعلهم راعوا فى الجمع الأمرين معا : الحفظ والكتابة ، والشهادة ، على أن المكتوب كتب بين يدى النبى وبعلمه وإرشاده .

ومن هذه النقول الصحيحة يتبين لنا جليا : أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد بالغوا فى التوثيق فى كتابة القرآن ، فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا ، وهما : الحفظ والكتابة وبعد توثيق ذلك بالشهادة .

إزالة شبهة فى هذا المقام :

ولا يشكلن عليك أيها القارىء قول زيد فى الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدهما إلا مع أبى خزيمة الأنصارى ، لأن مراده : أنه لم يجدهما مكتوبتين إلا عنده ، وليس المراد أنه لم يحفظهما غيره ، بل كان يحفظهما الكثيرون ويتلونهما فى الصلاة ، ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

وبذلك يتبين لنا : أن لا حجة لمن يطعن فى تواتر بعض آيات القرآن بهذه الرواية وما شابهها من المستشرقين والمبشرين وأضرابهم ، لأن الحق هو ما ذكرناه فى بيانها . فشد عليه يديك ، ولا تلق بالا لترهات الحاقدين المتعصبين على القرآن والسنة .

مميزات الكتابة فى عهد الصديق :

١ ـ أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته ، وجرد منها كل ما ليس بقرآن .
٢ ـ أنه لم يقبل فيها إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته .
٣ ـ أنه كان مكتوبا بجميع الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .
٤ ـ أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذى نقرؤه اليوم ، والذى هو فى المصاحف اليوم .

النسخة الأصلية الرسمية الموثوق بها :

ومما ينبغى أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة ، والتثبت البالغ ، والاشتمال على هذه المميزات ، لم تكن لغير صحف أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ فهى النسخة الأصلية الموثوق بها ، أو بمعنى آخر : النسخة الرسمية التى عليها المعول عند الاختلاف .

نعم قد كانت هناك صحف ، ومصاحف لبعض الصحابة ، كتبوا فيها القرآن لأنفسهم ، إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف الصديق ، فبعض الصحابة كان يكتب المنسوخ ، وما ثبت برواية الآحاد ، وبعض تفسيرات وتأويلات لآية ، بل بعض أدعية ومأثورات ، ولم يلتزم بما هو قرآن فقط ، فجاء بعض من لم يعرف الحقيقة فاعترض على القرآن المتواتر الموثوق به ، ببعض ما يوجد فى هذه المصاحف ، واتخذ من ذلك ذريعة للطعن فى القرآن العظيم ، والأمر فيها ما علمت .

كتابة القرآن فى عهد سيدنا عثمان

« رضى الله عنه »

لماكان عهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ وتفرق الصحابة فى البلدان ، وحمل كل منهم من حروف القرآن وقراءاته ما سمعه من رسول الله ﷺ ، وقد يكون عند أحدهم منها ما ليس عند الآخر ، إذ ليس بلازم أن يسمع كل صحابى من النبى جميع الحروف ، ولا جميع القراءات . اختلف الناس فى القراءات ، وصار كل قارىء ينتصر لقراءته ، ويخطىء غيره . وعظم الأمر واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان ــ رضى الله عنه ــ وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة فى التقليل من الثقة بالقرآن الكريم ، وقراءاته الثابتة ، وفى فصم عروة المسلمين ووحدتهم الكبرى . أخرج ابن أبى داود فى كتاب « المصاحف » من طريق أبى قلابة قال : لما كان عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون ، فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان ، فقال : « أنتم عندى تختلفون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا » . وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة بن اليمان ــ رضى الله عنه ــ وأخبره بما جرى بين أهل الشام والعراق من الاختلاف فى القراءة ، فى غزوة أرمينية ، فهاله الأمر وتشاور هو والصحابة فيما يفعلون ، فرأى ورأوا معه : أن يجمع الناس على مصحف واحد ، لا يتأتى فيه اختلاف ولا تنازع . فأرسل إلى حفصة ــ رضى الله عنها ــ أن أرسلى إلينا بالصحف ، يعنى التى كتبت فى عهد الصديق أبى بكر ، ثم انتقلت بعد موته إلى الفاروق عمر ، ثم بعده إلى ابنته حفصة بوصية منه ، لتكون أساسا لكتابة القرآن فى المصاحف ، كتابة تذهب بالاختلاف والتنازع بين الأمة فى قراءة القرآن . ثم عهد إلى زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن ينسخوا الصحف فى المصاحف ، وقال للرهط القرشيين : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم » . فقاموا بمهمتهم خير قيام ، وكتبوا المصاحف مرتبة السور على الوجه المعروف اليوم ، فلما انتهوا أرسل عثمان ــ رضى الله عنه ــ إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ، ليجتمع الناس فى القراءة عليه ، وأمر بما سواها من المصاحف الخاصة ، التى كانت عند بعض الصحابة أن يحرق ، وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى هذا العمل الجليل ، ثم رد الصحف إلى السيدة حفصة أم المؤمنين ، فبقيت عندها إلى أن توفيت ــ رضى الله عنها ــ فأرسل مروان بن محمد إلى أخيها عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها ، أن يرسل إليه هذه الصحف ، فأرسلها إليه ، فأمر بها مروان فشققت ثم حرقت ، وقال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر سيدنا عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التى كتبها ووجه بها إلى الأمصار الإسلامية ذريعة للطعن فيه ، مع أنه ــ رضى الله عنه ــ ما فعل هذا إلا بموافقة من الصحابة .

ذكر أبو بكر الأنبارى عن سويد بن غفلة قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان ، وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ » .

وروى أيضا عن على ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « لو كنت الوالى وقت عثمان ، لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

وأخرج ابن أبى داود بسند صحيح ، الأثر الذى رواه سويد بن غفلة ، عن سيدنا على ، وفى اخره قال عثمان : « ما تقولون ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كـ ــ أى الصحابة ــ ما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا يكون فرقة ، ولا اختلاف ، قلنا فنعم ما رأيت » .

وقد وفق الله ــ سبحانه ــ سيدنا عثمان والصحابة لهذا العمل الجليل ، الذى رفع الاختلاف وجمع الكلمة وحفظ للقرآن قدسيته وحرمته ، فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم .

مميزات الكتابة فى المصاحف فى عهد عثمان رضى الله عنه :

١ – الاقتصار بها على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، وهو حرف قريش .

٢ – الاقتصار فيها على ما ثبت بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وما استقر عليه الأمر فى العرضة الأخيرة التى حضرها زيد .

٣ – ترتيب آياته وسوره على الوضع الذى عليه المصاحف اليوم .

٤ – تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس بقرآن ، بخلاف ما كان مكتوبا عند بعض الصحابة ، فقد كان فيه بعض تفسيرات وتأويلات .

« والخلاصة » : أن القرآن العظيم قد توافرت له من دواعى الحفظ والعناية والنقل المتواتر ، والمفيد للقطع واليقين ، ما لم يتوافر لغيره من كتاب ما . وصدق الله العظيم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[١] .

فصل فى أن القرآن الكريم كتاب معجز

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٢] .

---

(١) سورة الحجر آية : ٩ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

القرآن الكريم هو ذلك الكلام العربى المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر المتحدى بلفظه ، بأقصر سورة من سوره ، المتعبد بتلاوته ، الذى بدأ بالفاتحة وختم بالمعوذتين . إنه كتاب معجز وفى إعجازه إثبات لنبوة سيدنا محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[1] . فتأمل معى كيف كان التحدى لهؤلاء المكذبين ولو بسورة ، وكيف بلغ التحدى أقصاه عندما دعاهم إلى اختيار لجنة التحكيم ممن يرضونهم هم ، ولم يجعل لجنة التحكيم من الملائكة ، والصحابة حتى لا يقول قائل : إنها لجنة متحيزة لمن أنزل القرآن عليه . ثم قف معى متأملا كيف يثبت الله عجزهم سلفا ليكون فى ذلك دليل صدق وشاهد حق على صدق الدعوة ، فيقول البارى تبارك وتعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[2] .

فانظر إلى قوله جل شأن ﴿ ولن تفعلوا ﴾ . لن هنا حرف يفيد تأبيد النفى ، وفى هذا التعبير قطع وإبطال لكل دعوى يحاول أصحابها أن يقتحموا على القرآن الكريم أسواره المنيعة . ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3] . وهنا يزداد أسلوب التحدى . فهناك كان تعبير الآية ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ وهنا ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ . إنه منتهى التعجيز ، فعلى قدر ما تستطيعون ادعوا من أهل الأرض من شئتم . وبعد ذلك يعقب سبحانه قائلا : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾[4] .

كفى القرآن جلالا وعظمة أن أربعة عشر قرنا من الزمان مرت به ، لم تستطع أن تصيب أسلوبه بأى جفاف ، بل ظل أسلوبه غضا نديا ، يتقاطر نورا ورحمة كأن عهده بالحياة أمس . وقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى فى قوله عن القرآن : (لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد) ، وذلك فى حديث جامع أجاب به الرسول عن سؤال على عندما قال : (ستكون فتن . فقال على : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : عليكم بكتاب الرب تبارك وتعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا تمله الأتقياء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يبلى ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾ . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم)[5] . ثم اسمع معى إلى شهادة ذلك المستشرق الفرنسى الدكتور (موريس) : « إنه ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغة للغويين ، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه ، ودائرة معارف للشرائع

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤ .
(٣) سورة يونس آية : ٣٨ .
(٤) سورة يونس آية : ٣٩ .
(٥) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

والقوانين ، وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سوره فى حسن المعانى وانسجام الألفاظ . ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكا بهذا الكتاب ، واقتباسا لأيه يزينون بها كلامهم ويبنون عليها آراءهم ، كلما ازدادوا رفعة فى القدر ونباهة فى الفكر » .

قال الوليد بن المغيرة لقومه بعدما سألوه عن مبعوث العناية الإلهية : لقد سمعت من محمد كلاما (يعنى به القرآن) ما سمعت مثله قط : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه . أما الفاروق عمر فقد قال كلاما يكتب بمداد الذهب على صفحات النور ، وكان الفرق بينه وبين الوليد شاسعاً كأن بينهما بعد المشرقين ، فالوليد قال كلمة حق بلسانه ولكن الكبر والعناد والصولة والصولجان ، حال ذلك كله دون أن ينطق كلمة التوحيد مقرّا بها قلبه كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾[1] . أما عمر فقد نطق بها لسانه مطمئنا بها قلبه ، وما استطاع الكبر أن يتسرب إلى حصون نفسه المكينة . قال عمر : أول ما دخل الإسلام فى قلبى كنت أمشى ذات ليلة فسمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة الحاقة ، قلت : إن هذا الكلام كلام شاعر ، فسمعته يقرأ من آخرها : ﴿وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾[2] قلت : إن هذا الكلام كلام كاهن ، فسمعته يقرأ : ﴿ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾[3] قلت : لعله يكون كلام محمد ، فسمعته يقرأ : ﴿ تنزيل من رب العالمين * ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[4] . ثم توالت الآيات على قلبِ عمر الذى كان جبارا فى الجاهلية فأضحى عملاقا للإسلام . يراه أحد المشركين يمشى كعادته فى عزة وصلف وكبرياء ، فيسأله : إلى أين يا عمر ؟ فيقول له : لقد عزمت على قتل محمد . يقول هذا فى الوقت الذى يرفع الرسول وجهه إلى السماء يدعو الله : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين . فانظر معى : « أريد حياته ويريد قتلى » هذا ينوى قتل الصادق المعصوم ليدخل التاريخ من هذا الباب ليكون بابا عبوسا قمطريرا ، وليصبح شره مستطيرا ؟ وصاحب القلب الرحيم يدعو الله بالهداية ، ويقول المشرك لعمر : أتقتل محمدا وكتابه يتلى فى بيتك . ويسرع عمر مهرولا وكأنه نزلت به قاصمة ويطرق الباب بعنف ، وكان فى البيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد (أحد العشرة المبشرين بالجنة) وأستاذهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن الكريم . وفى ثورة غضب يضرب عمر أخته فيشج رأسها . وبعد حوار محتدم ، وأمر بالاغتسال تناوله الصحيفة ليقرأ ما بها فإذا بها : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[5] . وتتمثل الآيات أمام عمر وكأنها ملائكة حملته على أجنحتها النورانية إلى السماوات العلى . لقد زالت الحجب ، وانقشعت السحب ، وبرح الخفاء ، ونجع الدواء ، وذهب الداء ، وزالت السكرة

---

(١) سورة النمل آية : ١٤ .
(٢) سورة الحاقة آية : ٤١ .
(٣) سورة الحاقة آية : ٤٢ .
(٤) سورة الحاقة الآيات : ٤٣ ـ ٥٢ .
(٥) سورة طه الآيات : ١ ـ ٨ .

وحلت الفكرة وسطعت شمس الحقيقة ، وسُلّ سيف الفجر من غمد الظلام ، وتعرى الليل من ثوب الغلس . لقد أضاءت مصابيح الآيات فى قلب عمر ، وهكذا القرآن : بصر علوى وبصيرة نافذة . فمن قرأ القرآن وبين لسانه وقلبه حجاب ، أو سمعه وبين الأذن والقلب سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

إذن فالقرآن يُقرأ ، والقلب مفتوح والصدر منشرح . وهكذا دخل الإسلام قلب عمر ، فما أحوج الأمة إلى إسلام كإسلام عمر ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[1] . قال جل شأنه : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾[2]. صدقت يا ربنا ، يا منزل الكتاب ، يا من أخبرت عنه بقولك : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[3] .

لقد بلغ من إعجاز القرآن وحلاوته وطلاوته أن كبراء المشركين ، وأشد الرءوس عنادا وجمودا ، كانوا يذهبون متسللين بالليل ليستمعوا إلى القرآن من رسول الله خفية . يذهب أبو جهل فيظن نفسه يسمع وحده ، وإذا بأبى سفيان يقبل عليه فيسأله : ما أتى بك إلى هنا يا أبا الحكم ؟ فيقول له : جئت لأستمع إلى القرآن . فما الذى أتى بك يا أبا حنظلة ؟ فيقول أبو سفيان : نفس الذى أتى بك . وإذا بالأخنس بن شريق يقبل عليهما ، ويدور نفس الحوار ، وينصرفون بعد أن يستمعوا ، وقد تعاهدوا فيما بينهم ألا يعودوا بعد ذلك خشية أن يحول القرآن قلوبهم إلى دين محمد ، ثم يعود كل منهم على انفراد فى الليلة التى تلى ليلتهم هذه ويظن أن رفاقه لن يأتوا بناء على ما تعاهدوا عليه ، ولكنه يفاجأ بهم وقد جلسوا بجانبه يستمعون إلى ما يستمع .

نعم إن هذا القرآن شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إن الكون قرآن صامت وإن القرآن كون ناطق ، وإن صاحب الرسالة كان قرآنا يمشى بين الناس ، وإن إعجاز الله فى خلقه كإعجازه فى كلمته . فخلقه معجزه ، وكلماته معجزة ، خلق الإنسان من تراب ، أو من سلالة من طين ، وما أكثر التراب وما أكثر الطين ، ولكن هل يستطيع أحد مهما أوتى من قوة وعلم وعبقرية أن يخلق من التراب إنسانا ، أو يصنع من الطين بشرا سويا ؟ . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[4] .

هذه آية أنتجت خمس نتائج جاءت عقبها : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[5] .

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ ــ ١٠٩ .
(٣) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٤) سورة الحج آية : ٥ .
(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .

بل إن الله تعالى تحدى الدنيا كلها فى أن يخلقوا ذبابا فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[1] .

هذا إعجاز الله للخلق فى آياته الكونية ، يقال هذا أيضا فى إعجاز الله للخلق فى آياته التنزيلية . فبعد عشر سور من القرآن يقول تعالى فى أول سورة هود : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . ثم تنتقل بنا الآيات إلى موقف التحدى فيقول تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] . ثم تأتى النتيجة بعد الحكم : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[3] . وليس الاستفهام فى هذه الآية على حقيقته بمعنى طلب الفهم ، إنما خرج عن حقيقته إلى معنى بلاغى هو الأمر ، فيكون المعنى فى قوله تعالى ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أسلموا . لذا يقول من تلا هذه الآية : (أسلمنا والحمد لله) ، كما فى قوله تعالى فى آية الخمر والميسر ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[4] أى « انتهوا » يقول التالى : « انتهينا يارب » .

فكما تحدى الله البشرية بكلماته الكونية تحداهم بكلامه القرآنى الأزلى القديم ، وكما أوجد المادة الخام التى أوجد منها الإنسان مثلا ، وهى العناصر المبثوثة فى تراب الأرض ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[5] أوجد كذلك المادة التى ركب منها كلامه القديم . وأشار إلى ذلك فى فواتح عدة من السور . ففتح بعضها بحرف واحد مثل : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾[6] ومثل : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾[7] . وفتح بعضها بحرفين مثل : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾[8] ومثل : ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾[9] . وفتح بعضها بثلاثة حروف مثل : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾[10] ومثل : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾[11] . وفتح بعضها بأربعة أحرف مثل : ﴿ المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾[12] . وفتح بعضها بخمسة أحرف مثل : ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾[13] .

وأنت أيها القارىء تستطيع أن تلمح بيسير من الفكر أن الله تعالى ذكر عقب هذه الحروف القرآن الكريم ليكون فى ذلك إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب الكريم قد نزل بأحرف عربية . وأنتم يا أرباب الفصاحة وأساطين اللغة تنطقون بهذه الحروف نطقا عربيا سليما ، فإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة هود آية : ١٣ .
(٣) سورة هود آية : ١٤ .
(٤) سورة المائدة آية : ٩١ .
(٥) سورة الروم آية : ٢٠ .
(٦) سورة ق آية : ١ .
(٧) سورة ص آية : ١ .
(٨) سورة الدخان الآيتان : ١، ٢ ، وسورة الزخرف ١، ٢ .
(٩) سورة النمل آية : ١ .
(١٠) سورة يوسف آية : ١ .
(١١) سورة القصص الآيتان : ١ ، ٢ .
(١٢) سورة الرعد آية : ١ .
(١٣) سورة مريم الآيتان : ١ ، ٢ .

من مثل هذه الحروف بسورة . واعلموا أنكم لن تفعلوا ذلك ولن تستطيعوه وذلك كما عجزتم عن خلق أى شىء من هذا التراب . فعجزكم عن الإتيان بكلمة من كلمات الله الكونية سيكون كعجزكم عن الإتيان بأى آية من آيات الله التنزيلية . فإذا ثبت عجزكم ولم تفعلوا ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾[١] .

وجوه الإعجاز :

لما تقرر أن القرآن معجزة الله الخالدة إلى يوم الدين ، فقد عكف الباحثون فى علوم القرآن على دراسة وجوه الإعجاز . فمن قائل إنه معجز بنظمه وتنسيق ألفاظه وارتباط كلماته . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم . وقد يعجب المرء لهذا الكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير كيف كان هذا التنسيق يسرى فى كل لفظ من ألفاظه ، وكيف تناسبت الكلمات وأخذ بعضها برقاب بعض .

ألا ترى إلى هذا الأعرابى الذى سمع قارئا يتلو قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ففزع العربى الأمى الذى لم يسمع الآية من قبل وقال : والله ما هكذا أنزلت ، ثم أمر القارىء أن يعيد تلاوتها فإذا ختامها ﴿ والله عزيز حكيم ﴾[٢] فقيل للأعرابى : ما الذى استرعى انتباهك حتى أعدت القارىء إلى الوجه الصحيح فى تلاوتها فقال : لأنه تعالى عزّ فحكم فقطع . ولو أنه غفر ، رحم وما قطع . ففى أى الجامعات تخرج ذلك العربى وعلى يدى أى أستاذ تلقى علومه ؟ كلا إنه نداء الفطرة السليمة .

ثم أرأيت إلى الفاروق عمر وهو يكتب الوحى المنزل على رسول الله ﷺ من سورة « المؤمنون » لقد أملاه النبى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر . . ﴾ وقبل أن يكمل الرسول ﷺ الآية قال عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٣] . فقال له الصادق المعصوم : هكذا نزلت فاكتبها يا عمر .

وهكذا قال جماعة بأن القرآن معجز بنظمه ، وقال آخرون بل معجز بلفظه ، وقال فريق ثالث بل معجز بتشريعاته وأحكامه ونُظُمه ، وقال فريق رابع إن إعجازه فى إخباره بالغيوب التى لم تقع بعد . وقال آخرون : بل إن فيه من الحقائق العلمية ما يثبت إعجازه إذ أنه ، قد أنزل على النبى الأمى الذى لم يذهب إلى جامعة ولم يختلف إلى أستاذ . حتى قال المستر براون عالم البحار الانجليزى لعلماء الهند : هل ركب نبيكم البحر قالوا : لا . قال : لقد قرأت فى القرآن آية لا يعرفها إلا من درس علوم البحار وهى قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم

(١) سورة البقرة آية : ٢٤ . (٢) سورة المائدة آية : ٣٨ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤ .

يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[١] . فمن الذى علّم نبيكم هذا وهو لم يركب البحر فى حياته ؟ فأشهد أن القرآن صدق وأن نبيكم حق . وأعلن إسلامه بسبب فهمه لهذه الآية . لقد تحرى القرآن الأوائل والأواخر فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾[٢] ، وأيقنوا أنه من لدن حكيم خبير .

وللعلماء آراء فى وجوه إعجاز القرآن نجملها فيما يلى :

قال الإمام الخطابى : إن إعجاز القرآن هو فى الصورة التى جاء عليها القرآن لفظا ومعنى وروحا يجمع بين اللفظ والمعنى . . فالإعجاز فى القرآن هو القرآن .

يقول الخطابى : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط ناظم لها . . وإذا تأملت القرآن ، وجدت هذه الأمور منه ، فى غاية الشرف والفضيلة . واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظم التأليف ، مضمنا أصح المعانى : من توحيد الله ــ عزت قدرته ــ وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمناهج عبادته . . من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر » .

ثم يقول : « ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله ، ثم صار المعاندون له ممن كفر به ، وأنكره ، يقولون مرة : إنه شعر ، لما رأوه كلاما منظوما ، ومرة سحر ، إذ رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعا فى القلوب وقرعا فى النفوس ، يريبهم ويحيرهم » .

ولهذا نراه يعقب على هذا بقوله : « قلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك هو صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس . فإنك لا تسمع كلاما غير منظوم أو منثور إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ــ ما يخلص من القرآن إليه . . »

ثم يمضى قائلا : « تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب . . يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . فكم من عدو للرسول ﷺ ــ من رجال العرب وفتاكها ــ أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه » .

---

(١) سورة النور آية : ٤٠ . (٢) سورة النحل آية : ٨٧ .

ويقول الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن :

ذكر أصحابنا وغيرهم فى ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

الوجه الأول : الإخبار عن الغيوب . . وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . . فمن ذلك ما وعد الله به نبيه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ من أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] ففعل الله ذلك . . .

وكان أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ إذا غزا جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله به من إظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح ، وكان عمر ـــ رضى الله عنه ـــ يفعل ذلك فى أيامه . .

الوجه الثانى : أنه كان معلوما من حال النبى ﷺ أنه كان أميا ـــ لا يكتب ولا يقرأ ـــ وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع وما حدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من خلق آدم إلى حين مبعثه .

الوجه الثالث : نظم القرآن . . فهو بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . من ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن الكلمات المعتادة . . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ، فتطلب فيه الوصاية والأناة ، وإفهام المعانى على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له . . وهو كذلك ليس من قبيل الشعر . ولهذا إذا تأمله المتأمل تبين له خروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ، وأنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه .

ويرى القاضى عبد الجبار : أن إعجاز القرآن يتمثل فى جزالة لفظه وفى حسن معناه ، مما لا يوجد مثله فى أى كلام بشرى مهما علا مقامه فى الفصاحة والبلاغة .

ولعبد الجبار القدح المعلى فى إثبات الإعجاز بالإخبار عن الغيب أو انفراد القرآن بهذا الأسلوب من النظم الذى اتخذه طريقا بين الشعر والنثر أو سلامته من الاختلاف ، والتناقض . .

---

(١) سورة التوبة آية : ٣٣ ، الصف آية : ٩ .

أما رأى الإمام الزمخشرى فى الإعجاز فيتلخص فى حقيقتين :

أولاهما : العجز عن إمكان حصر وجوه الإعجاز فى القرآن . . لأنه لو أمكن حصرها لانقطع بحث الباحثين فى آيات الله وكلماته ، ولما كان لمجتهد مطلب يطلبه فيه بعد أن قيلت الكلمة الأخيرة عنه .

وثانيتهما : أنه جعل القرآن الكريم كله آيات معجزة تطلع من كل حرف من حروفه ومن كل كلمة من كلماته وفى كل آية من آياته ، وبهذا يرى الناظرون فى القرآن الكريم على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ، وجوها لا تنتهى من وجوه الإعجاز ، دون أن ينتهوا جميعا إلى غاية يقفون عندها . وهكذا يظل القرآن الكريم جنة سماوية فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فحيث نزل الناس فى ساحة القرآن ، كانوا منه فى جنة عالية قطوفها دانية : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾[1] .

يزيد على طول التأمل بهجة ... كأن العيون الناظرات صياقل

ويكفى أن نشير هنا إلى منهج الزمخشرى هذا ، بمثل واحد من نظره فى وجه آية من آيات الله تعالى ، لتكون شاهدا على هذا المنهج ، وعلى قيمته فى الكشف عن وجوه كثيرة لا تحصى من وجوه إعجاز القرآن ، حيث يتمثل فى كل آية أكثر من وجه ، وحيث ينكشف من كل لفظة أكثر من سر .

يقول الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[2] يقول :

« فإن قلت : كيف قيل : ﴿ إلا أمم ﴾ مع إفراد الدابة والطائر ؟ . . قلت : لما كان قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر ﴾ و﴿ إلا ﴾ على معنى الاستغراق وتغنينا عن أن يقال : « وما من دواب ولا طير » حمل قوله تعالى ﴿ إلا أمم ﴾ على هذا المعنى . . ثم يقيم الزمخشرى اعتراضا ثانيا ، ويجيب عليه فيقول : فإن قلت : فهلا قيل : وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر إلا أمم أمثالكم ، وما معنى زيادة قوله : ﴿ فى الأرض ﴾ و﴿ يطير بجناحيه ﴾ . قلت معنى ذلك : التعميم والإحاطة . . كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء ، من جميع ما يطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ، محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها » .

ثم يورد اعتراضا ثالثا ويجيب عليه كذلك فيقول : « فإن قلت : فما الغرض من ذكر ذلك ؟ . . قلت : للدلالة على عظم قدرته تعالى ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لها ، قائم عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ــ أى البشر ــ ليسوا بمخصوصين بذلك ، دون من عداهم ، من سائر الحيوان . . » .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

وبعد هذا العرض السريع لإعجاز الكتاب الكريم نلج باب التفسير سائلين الله جل شأنه أن يجعل لنا نورا نمشى به ونهتدى بهديه . فالله نـور السماوات والأرض . والرسول المبعوث إلينا نور جاء من عند الله ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[١] . والقرآن الذى جاء به نور ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾[٢] . فهو الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يخرج الله به البشرية من غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٣] .

والآن من الصراط المستقيم إلى الصراط المستقيم حيث سورة الفاتحة وفيها نسأل الله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[٤] .

ونبدأ بالاستعاذة : قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[٥] . ومعنى أعوذ بالله : أى أستجير به وأستغيث وأستعين بقوته من وساوس الشيطان وكبره وسحره . وليس الشيطان مقصورا على شياطين الجن ، إنما هو يشمل الجنسين من الجن والإنس . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[٦] .

وقد بين لنا القرآن العظيم علاج كل من النوعين . جاء ذلك فى سورة « الأعراف » . قال تعالى فى علاج شياطين الإنس : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[٧] . لما نزلت هذه الآية سأل الرسول ﷺ جبريل عنها . فقال جبريل : لا أدرى حتى أسأل رب العزة ، فلما هبط على الصادق المعصوم قال له : يا رسول الله معناها أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

أما علاج شياطين الجن فى سورة « الأعراف » فقوله جل شأنه : ﴿ وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾[٨] . ثم قال فى علاج النوعين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾[٩] . فإذا ما انتقلنا إلى علاج النوعين فى سورة « المؤمنون » وجدنا علاج شياطين الإنس فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾[١٠] . وعلاج شياطين الجن فى قوله جل شأنه : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[١١] . وفى سورة « فصلت » نرى علاج الإنس فى قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى

(١) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٢) سورة التغابن آية : ٨ .
(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧ .
(٥) سورة النحل آية : ٩٨ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١١٢ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٩٩ .
(٨) سورة الأعراف آية : ٢٠٠ .
(٩) سورة الاعراف الآيتان : ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(١٠) سورة المؤمنون آية : ٩٦ .
(١١) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .

حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[١] . وفى حق شياطين الجن يقول تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[٢] .

والمراد بقوله جل شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾[٣] أى إذا أردت قراءته كما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾[٤] أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فاستعذ بالله ﴾[٥] أى اطلب الاستجارة به واللجوء إليه والاحتماء بجنابه والركون إلى حصنه الحصين ، فهو القريب يجيب من ناداه . و﴿ الرجيم ﴾ هو اللعين الذى طرد من رحمة الله جزاء عصيانه وإصراره واستكباره .

إنى بـليـت بـأربـع يـرمـونـنى ... بـالنبـل عن قـوس لهـا تـوتـير
إبليس والـدنيـا ونفسـى والهـوى ... يـا رب أنت عـلى الخلاص قـديـر

روى أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير والثناء ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه) .

وكلمة الشيطان تطلق ويراد بها كل من بعد عن الخير لأنه مأخوذ من شطن إذا بعد . يقال تشيطن فلان أى أصبح بعيدا عن الخير متصفا بفعل الشيطان ، وهذا هو القول الراجح فى معنى هذه الكلمة .

ومن مكايد الشيطان التى تبعده وتزجره أن تقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) سورة فصلت آية : ٣٦ .
(٣) سورة النحل آية : ٩٨ .
(٤) سورة المائدة آية : ٦ .
(٥) سورة النحل آية ٩٨ .

(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ
مكية وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

أسماء سورة الفاتحة :

تسمى «الفاتحة» لأنها تفتتح بها القراءة فى الصلوات، ويقال لها أيضا « أم الكتاب » ولها أسماء منها « الحمد » و« الشفاء » و« الوافية » و« الكافية » و« أساس القرآن » و« سورة الصلاة » و« السبع المثانى » و« سورة الثناء » و« الرقية » و« أم القرآن ». قال البخارى : « وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة » .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى أم القرآن : (هى أم القرآن ، وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم)[١] .

فضلها :

ورد فى سورة الفاتحة آثار تدل على عظم فضلها ورفعة قدرها عند الله . ونذكر هذه الأحاديث فيما يلى :

عن أبى سعيد بن المعلّى رضى عنه قال : (كنت أصلى فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت ، قال : فأتيته ، فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ قال : قلت يا رسول الله إنى كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٢١ ط .وزارة الأوقاف .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[١] ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته)[٢] .

عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل « أم القرآن » وهى السبع المثانى ، وهى مقسومة بينى وبين عبدى نصفين)[٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله عز وجلّ : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مجدنى عبدى ، وقال مرة : فوّض إلىّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال الله : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)[٤] .

وقد بلغ من بركات الفاتحة أنهم كانوا يرقون بها المريض فيشفى بإذن الله تعالى . فما أعظمها من رقية وما أكثر بركاتها من آيات بينات . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كنا فى مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم « أى لديغ » ، وإن نفرنا غُيّب فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه ، فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن ؟ أو أكنت ترقى ؟ قال : لا ، ما رقيت إلا بأم الكتاب ، قلنا : لا تحدثوا شيئا حتى نأتى أو نسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ فقال : (وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم) »[٥] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبى ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفا منها إلا أوتيته)[٦] .

وإنها لجديرة بأن تسمى أساس القرآن وأم الكتاب ، فقد اشتملت على مبادىء الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكا . وكانت بمثابة البذرة الطيبة التى غرست فى أرض طيبة ، فأنبتت شجرة طيبة باسقة الأغصان وارفة الظلال كريمة الجنى . لقد لخصت سورة الفاتحة المبادىء التى فصلها القرآن العظيم . فقد اشتملت على الوحدانية بكل معانيها ، توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، كذلك اشتملت على الجزاء والبعث بعد الموت ،

(١) سورة الأنفال آية : ٢٤ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٠ ط الشعب
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣ ط الشعب .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .
(٥) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٧٠ ط الشعب .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٨ .

واشتملت أيضا على العبادة واشتملت على السلوك القويم ، وسيرة الصالحين . فأنت إذا بسملت وأثبت الحمد لله ، وذكرت صفات الكمال الواجبة لله فأنت بذلك من الذين عـرفوا الله وأثبتـوا ما يليق بـذاته الأقدس . وعندما تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، فقد أثبت أن هناك دارا للجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهذا ما يسمى بالمعاد وهو عودة الحياة بعد الموت . وعندما تقرأ : ﴿ إياك نعبد ﴾ فتلك هى العبادة فى أسمى معانيها ، وفى تقديم الضمير على الفعل ما يدل دلالة قاطعة على توحيد الألوهية . وكذلك فى قوله : ﴿ وإياك نستعين ﴾ ما يفيد تخليص العقيدة من أى شائبة ، وبهذا يكون المسلم قد اعتصم بالله وأخلص دينه لله . فإذا ما قرأت : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فذاك جانب السلوك فى الإسلام . فأن تطلب الهداية فهذا أغلى ما يتمناه المسلم . فالهداية نعمة لا تعدلها نعمة أخرى . قال تعالى لصفيه وحبيبه : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾[1] . وقال جل شأنه : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[2] . فإذا ما قرأت تفسير الصراط فى قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأنت بذلك قد استعرضت تاريخ الصالحين الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾[3] . وعندما تحترز وتحترس فى طلب الصراط المستقيم تبعد عن نفسك كل فرق الضلال الذين استهوتهم الشياطين . وما أعظمها من كلمة جامعة لكل الذين انحرفوا عن سلوك الجادة وتنكبوا الطريق . ما أجمعها من كلمة ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

ولنأخذ الآن فى تفسير السورة بعد بيان أغراضها :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما أعظم أن يفتتح الله الكتاب الكريم بتلك الآية التى تفيض جلالا ، وتشع كمالا وتغمر العباد رحمة وإحسانا ، وتعم الأكوان فضلا وإكراما . فيها التبرك باسم الله ، فأنت عندما تقرؤ ها كأنك تقول : أبدأ عملى باسم الله أو أستعين باسم الله فى عملى ، فإذا العمل تحوطه العناية وتحفظه الرعاية وتملؤه البركة . لذلك قال الصادق المعصوم : (كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)[4] .

وقد ذكروا أمورا تستحب فيها البسملة حتى يكون المسلم على معرفة بها : فتستحب فى أول الوضوء لقوله عليه السلام : (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)[5] ، وتستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وأوجبها آخرون ، وتستحب عند الأكل لقوله عليه السلام : (.. فإذا أكل أحدكم طعامه ، فليذكر اسم الله عليه ، فإن نسى فى أوله فليقل باسم الله فى أوله وآخره)[6] ، وتستحب عند الجماع لقوله عليه السلام : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا)[7] .

---

(١) سورة الفتح الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة يونس آية : ٢٥ .
(٣) سورة النساء آية : ٦٩ .
(٤) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٢٧٧ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٠٨ .
(٦) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٠ .
(٧) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ٢ ص ٤٢٤ .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وقد ذكروا أن نبى الله سليمان لما أرسل هدهده بالكتاب إلى ملكة سبأ وجاء فيه ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(١) قال سليمان للهدهد : ألا تخاف أن يصطادك أحد وأنت فى الطريق إليها ؟ قال الهدهد : يا نبى الله وكيف أخاف وأنا أحمل معى بسم الله الرحمن الرحيم ؟ .

نعم إنها الصيانة والرعاية والعناية . وكيف لا وأنت لا تستعين بأحد من ملوك الدنيا ، إنما تستعين بمالك الملك وملك الملوك ، وكأنك تقول :

أيـدركـنى ضيـم وأنـت ذخيـرتى وأظلم فى الـدنيـا وأنت نصيـرى

إن اسم الله هكذا بلفظ الجلالة إذا ذكر وجلت القلوب لجلاله ، وخشعت الأصوات لقوته ، وعنت الوجوه لعظمته . وهو الله الذى إذا ذكر نزلت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين لجلاله ورحمته . قال تعالى فى مقام الهيبة والجلال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾(٢) . وقال فى مقام الرحمة والطمأنينة : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٣) . ألا تدرى أن من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع ؟ وأن هناك أعينا لا تمسها النار ، من تلك العيون عين بكت من خشية الله ؟ أو ما علمت أن يوسف الصديق عندما ضاقت به الدنيا وضربت سلسلة الشدائد حلقاتها حوله ، واحتدم الخطر وادلهم الخطب ، عندما غلقت امرأة العزيز الأبواب وقد راودته عن نفسه ، وقالت له ﴿ هيت لك ﴾(٤) ، أى أقبل ، فماذا قال يوسف وقتها ؟ لم يصرخ ولم يولول كما أنه لم يضعف أمام نداء الشيطان ولم يستكن لرغبات النفس ولم يضعف أمام الشدة . إنما كل ما قاله : ﴿ معاذ الله ﴾(٥) ، فأعاذه الله واستبقا الباب بعدما جاء الله بالفرج : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾(٦) . ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾(٧) .

ولفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ علَم على الذات الأعلى ، فلا معبود بحق إلا هو ولا يستغنى عمن سواه إلا هو ولا يفتقر إليه جميع من عداه إلا هو ، إذ هو القائم بذاته . لذا فهذا العلَم خاص بالله وحده ، لا يصح أن يسمى به غيره . وقد وصف الله ذاته فى البسملة بصفتين : الرحمن والرحيم . وكما لا يصح أن يطلق اسم الله إلا على الذات الأقدس ، كذلك لا يصح أن يسمى بالرحمن غير الله . والرحمن هو مصدر الرحمة الذى يفيض على الأكوان رقة وعطفا ولطفا . فكيف يسمى غيره بالرحمن ؟ . إن مسيلمة لما سمى نفسه رحمن اليمامة لقب بالكذاب ، وظل هذا اللقب ملازما له وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد اشتقت الرحم من الرحمن فهو مصدرها وأصلها والمفيض عليها من خيره وبركاته . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (أنا

(١) سورة النمل آية : ٣٠ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٢ .
(٣) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .
(٧) سورة التغابن آية : ١١ .

الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته)[١] .

ومن الرحمن أكرم الله الرحماء . جاء فى الحديث الشريف : (الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء)[٢] .

وجاء فى الحديث القدسى : (إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى)[٣] .

وجاء فى الوعيد : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى . من لا يرحم لا يرحم » . ولما كان الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة ، فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، أى أن الرحمن عمت رحمته الكائنات كلها فى الدنيا سواء فى ذلك الطائع وغير الطائع ، فالكل يرزق وينشق الهواء ويستضىء الشمس ويشرب الماء وينعم بـالنوم والراحة . قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[٤] .

لا تعجلن فليس الـرزق بـالعجـل ... الرزق فى اللوح مكتوب مـع الأجل
فلو صبرنـا لكـان الـرزق يـطلبنـا ... لكنـه خلق الإنسـان مـن عجـل

وإذن فالرحمن هو الذى عمت رحمته الكائنات كلها فى الدنيا ، والرحيم هو الـذى اختصت رحمته المؤمنين . قال جل شأنه : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٥] . وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[٦] . وقال ﷺ : (إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة)[٧] .

وإذا صح أن نصف الإنسان بأنه رحيم وكريم وسميع بصير ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[٨] ، فإنه لا يصح شرعا ولا عقلاً بأن نصفه بأنه رحمن أو خالق أو رزاق ، لأنه لا يليق بأحد أن يسمى بهذه الأسماء إلا الله ، لذا جاء اسم الرحمن مقترنا بلفظ الجلالة فى آية الدعاء . قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيـًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٩] .

ولما جهل المشركون اسم الرحمن وقالوا لا نعرف إلا رحمن اليمامة ــ يقصدون مسيلمة الكذاب ــ رد عليهم جل شأنه مبينا لهم عظمة الرحمن وحكى حالهم فى قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾[١٠] ، رد الله عليهم بعد ذلك قائلا : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٣ ص٢٦٥ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٦ ط دار الفكر .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٦٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٢٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٨٠ .
(٧) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٥ ص٥٣٥ ط الشعب .
(٨) سورة الإنسان آية : ٢ .
(٩) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(١٠) سورة الفرقان آية : ٦٠ .

بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهـو الذى جعـل الليل والنهـار خلفة لمن أراد أن يـذكر أو أراد شكورا ﴾[١] .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

ما أجمل هذا الحديث الشريف الذى ذكر فيه الرسول ﷺ نعمة الحمد فقال : (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقـرآن حجة لـك أو عليك ، وكـل الناس يغـدو ، فبائـع نفسه فمعتقهـا أو موبقها)[٢] .

وللعلماء فى كلمة الحمد أقوال : فبينما يرى ابن جرير أن ﴿ الحمد ﴾ هو الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا ، و﴿ الحمد لله ﴾ ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه . فكأنه قال : قولوا الحمد لله ، ثم قال : وأهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر .

بينما يقرر ابن جرير هذا المعنى نرى ابن كثير يقول : هذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان . ويقول الجوهرى : والحمد أعم من الشكر ، والشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف .

وقد جاءت آية الحمد بعد البسملة لأن البسملة اشتملت على أعظم النعم وهى الرحمة ، فناسب ذلك أن يقدم الشكر لله على تلك النعمة . ومن أفضال الحمد أن الله تعالى جعله ذكرا يثيب عليه مع أن النعمة منه هو . قال موسى لربه : يا رب خلقت آدم بيديك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وتبت عليه بعدما أدخلته جنتك ، فكيف استطاع أن يؤدى شكر تلك النعم ؟ فقال له الله : يا موسى يكفيه أنه قال : الحمد لله .

وقد سمع أحد الصالحين رجلا يذكر الله فيقول : الحمد لله أستغفر الله . فسألـه : لم تلتزم هـذا الذكر ، فقال : أحمده على نعمه التى أنعم بها علىّ وأستغفره لذنوب اقترفتها .

وقد سأل موسى ربه فقال : يا رب كيف أشكرك ؟ فقال له : يا موسى تذكرنى ولا تنسانى إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى .

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٣٣٩ ط دار الفكر .

ثم قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(١) .

مر أحد الصالحين برجل يذكر الله فيقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فنظر إليه فإذا هو فاقد البصر وقد شلت إحدى يديه ورجليه فقال له : عجبا لك ! لم تردد هذا الذكر ؟ فقال له الرجل : عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه : وهب لى لسانا يذكره وقلبا يشكره ، ثم أنشد :

حمـدت الله ربى إذ هـدانى . إلى الإسـلام والـديـن الحنيـف
فـيـذكـره لسـانى كـل وقـت ويـعـرفـه فؤادى بـالـلطيـف

والمراد بالألف واللام فى الحمد الاستغراق لجميع أنواع الحمد كما جاء فى الحديث : (. . . اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، ولك الخلق كله ، وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله)(٢) .

والحمد لله لها أفضال يثيب الله قائلها ثواب الشاكرين . فمن أفضالها أنها خير الدعاء ، قال ﷺ : (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله)(٣) . وعنه ﷺ أنه قال : (ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله ، إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ)(٤) .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم : (أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب إنه قال : لك الحمد يا رب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها)(٥) .

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : (رآنى النبى ﷺ وأنا أحرك شفتى ، فقال لى : بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله . فقال : ألا أخبرك بشىء إذا قلته ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى ، قال : تقول الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله على كل شىء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك)(٦) .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا عن رسول الله ﷺ قال : (من قال الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ثلاث مرات ، فتقول الحفظة : ربنا

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٨٨ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٨٦ .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣٠٩ .

لا نحسن كنه ما قدسك عبدك هذا وحمدك ، وما ندرى كيف نكتبه ؟ فيوحى الله إليهم أن اكتبوه كما قال عبدى)(١) .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال أبىٌ بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين ولأحمدن الله بمحامد لم يحمده بها أحد ، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه ، فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : (اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره . لك الحمد إنك على كل شىء قدير . اغفرلى ما مضى من ذنوبى ، واعصمنى فيما بقى من عمرى ، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى وتب علىّ . فأتى رسول الله ﷺفقص عليه فقال : ذلك جبرائيل عليه السلام)(٢) .

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شىء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شىء لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شىء لقدرته ، فقالها يطلب بها ما عند الله كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة)(٣) .

عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : (قال رجل عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شىء يكرهه . فقال رسول الله ﷺ : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صوابا ، فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكا يبتدرون كلمتك أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟)(٤) .

عن على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ (نزل عليه جبرائيل عليه السلام ، فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أو يوما فقل : اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك ، ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمدا لا آخر لقائله إلا رضاك)(٥) .

﴿ رب العالمين ﴾ المراد بالرب هنا هو الله . والمقصود بالربوبية أنه تعالى هو المالك المتصرف فى خلقه الذى يربى عباده ويفيض عليهم من نعمه ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(٦) .

والمالك المتصرف هو الذى يدبر الأمر وفقا لعلمه وإرادته وقدرته ، لا ينازعه أحد ولا يشرك فى حكمه أحدا إنه رب العالمين علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤ تى الملك من تشاء وتنزع

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ .
(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٦) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ - ٣٤ .

الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[١] . إنه تصرف الربوبية القادرة ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[٢] لا تهبّ فى هذا الكون نسمة هواء ولا تطرف طرفة عين ولا يحدث حدث كبير أو صغير إلا باذن الله ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٣] ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾[٤] .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا   وهَذِى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى   سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما   وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جنَّ هذا الليل وامتد سرمدا   فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم   سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت   أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

وتربية الله للناس نوعان : تربية خَلْقِية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد وتنمية قواهم النفسية والعقلية ، وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم ، وليس لغيره أن يشرّع للناس عبادة ولا أن يُحلَّ شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه فى مولاه عزيز مصر ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾[٥] ، وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبْرهة قائد النجاشى : أما الإبل فأنا ربها ، وأما البيت فإن له ربا يحميه .

﴿ العالمين ﴾ ومفردها عالم ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يفيده لفظ ﴿رب﴾ إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

إن كل ثناء جميل هو لله تعالى ، إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذى يسوس العالمين ويربيهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى والشكر على ما أولى .

إنما سميت هذه الكائنات بالعالمين لأنها علم ودلالة قاطعة على وجود الخالق ، فإن الأثر يدل على المسير : سماوات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج . كل هذه عوالم . ألا يدل كل هذا على وحدانية العليم الخبير ؟

(١) سورة آل عمران آية : ٣٦ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٧ .
(٣) سورة هود آية : ١٣٣ .
(٤) سورة الرحمن آية : ٢٩ .
(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾

صفتان كريمتان من صفات البارىء تبارك اسمه . فالرحمن هو المفيض النعم على جميع خلقه ، والذى عمت رحمته الدنيا وما فيها حتى إن الفرس لترفع رجلها عن ولدها خشية أن تصيبه ، من هذا الجزء من رحمة الله الذى جعله فى الدنيا . وهو سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الأم بولدها ، ومن ثم فإن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل التائه إلى أحضان أمه ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾(١) .

ومن دعاء عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه : إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى . فأنت القائل ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾(٢) ، وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

هذا دعاء كان يقوله عمر الذى كان يخاف من الله خوف من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده . سبحانك يا رب العالمين : شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

إن صفة الرحمة وسعت الكون كله . دخل أعرابى على رسول الله ﷺ فدعا الله قائلا : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فالتفت إليه النبى ﷺ فقال : (لقد تحجرت واسعا)(٣) .

و ﴿ الرحيم ﴾ : هو المتصف بالرحمة الدائمة التى تخص المؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾(٤) . وإنما ذكر هاتين الصفتين الكريمتين مرة أخرى بعدما أثبتها فى البسملة ليجيب عن سؤال قد يختلج فى النفوس . فقد يقول سائل : لماذا ربَّاهم ؟ ألعلة أم لحاجة ؟ فجاء الجواب : إنما رباهم بدافع رحمته ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾(٥) . لا لعلة ولا لحاجة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٦) .

وقد تكون الصلة بين الآيتين ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ صلة اقتران الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب . فرب العالمين هو السيد المالك المتصرف : نلمح فى هذا المعنى أن السيد المتصرف الذى يسوس خلقه ويربيهم من صفاته أن يجمع بين الوعد والوعيد كما فى قوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾(٧) وفى قوله جل ذكره : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾(٨) .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
(٣) الأدب المفرد للبخارى جـ ٢ ص ٨٥ ط السلفية .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .
(٥) سورة النور آية : ٢١ .
(٦) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٧) سورة المائدة آية : ٩٨ .
(٨) سورة الحجر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

وقد ثنى الله الوعد بالوعيد ليقف المؤمن بين نور الوعد ونيران الوعيد طامعا فى رحمة الله حذراً من عقابه حتى قال بعض الصالحين يناجى ربه :

إذا كنت ذا بطش أليم وشدة ... فمن وصفك الإحسان والبر واللطف
وإن كنت بالنيران أوعدت من عصى ... فوعدك بالغفران ليس له خلف
فعلنا خطايانا وسترك مسبل ... وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرّما ... فمن غيرنا يعفو وغيرك من يعفو

﴿ مالك يوم الدين ﴾

صلة هذه الآية بما قبلها هى صلة الوعد بالوعيد ، فـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ وعد يشرق بنوره على قلوب عباده ليبدد غياهب ظلمات اليأس . و ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، وعيد يرسل الإنذارات الشديدة إلى النفوس المارقة لتعود إلى ساحة الرضوان : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ . وبين الوعد والوعيد تدور أساسيات التربية . قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحيانا على من يرحم

فعلى كل الذين يعنون بشئون التربية أن يراعوا هذين الجانبين لتكتمل الوسائل وتستقيم السبل . وقد أصاب الصادق المعصوم كبد الحقيقة عندما قال : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد)(١) .

وفى مالك يوم الدين قراءتان ﴿ مالك ﴾ و ﴿ ملك ﴾ فالمالك يملك وقد لا يحكم ، والملك يحكم وقد لا يملك . هذا بالنسبة للعباد . أما الذى يملك ويحكم فهو الله وحده ، فهو المالك الملك . وقد ورد فى القرآن الكريم ما يفسر ذلك . يقول الله المالك الملك : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾(٢) ويقول : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾(٣) . قال الصادق المعصوم : (يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض)(٤) . وفى رواية أخرى لمسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ؟)(٥) .

و ﴿ الدين ﴾ هو الجزاء ، وإنما جعل للجزاء يوما ليعلم البشرية جمعاء أن الدنيا ليست هى النهاية . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . قال ﷺ : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أهل القبور) . والدنيا نحن

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص٤٢٩ ط دار الفكر .
(٢) سورة مريم آية : ٤٠ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٦ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .

فيها عارية مسافرون ، ولابد للعارية أن تردّ كما لابد للمسافر أن يرتحل . وما نحن فى هذه الدنيا إلا كراكب استظل بظل شجرة ما يلبث أن يغادرها . والحياة ألم يخفيه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرىء بما فعل .

وإنما قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وهو جل جلاله مالك كل شىء ليبعث المهابة فى القلوب لهذا اليوم من باب قوله جل شأنه : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾(١) .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . فقال له : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وافطر على الموت وأعدّ الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

اعلم يا أخى أن هناك محكمة قاضيها عالم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسوف يسأل فيها كل امرىء عن شبابه فيم أبلاه ، وعمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا صنع فيه . إن قلت يارب : لِمَ لَمْ ترسل إلىّ إنذاراً بحضور الجلسة ، فسوف يقال لك : لقد كنت تقرأ الإنذار كل يوم سبع عشرة مرة . ألم تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فهذا هو يوم الدين والله مالكه . فإن قلت يارب من الذى أوصلنى الإنذار ؟ فسوف يقال لك : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(٢) . فإن قلت يارب : دعنى حتى أحضر الشهود فسوف يقال لك : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(٣) . فإن قلت يارب : دعنى حتى أوكل محاميا للدفاع عنى . فسوف يقال لك : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾(٤) . فإن قلت يارب : أتقبل منى فدية مالية أو شخصية ؟ فسوف يقال لك : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾(٥) . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾(٦) . فإن قلت يارب سأستأنف الحكم . فسوف يقال لك : ﴿ ما يبدل القول لدىَّ وما أنا بظلام للعبيد ﴾(٧) .

ثم ماذا بعد هذا ؟

الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفّار

(١) سورة الرحمن آية : ٣١ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٢٨ .
(٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١٤ .
(٥) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .
(٦) سورة لقمان آية : ٣٣ .
(٧) سورة ق آية : ٢٩ .

إن محكمة العدل الإلهية الكبرى لا تقبل أحكامها النقض . ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾[١] .

﴿ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ناسب ذلك أنه لا معبود سواه ولا يستعان إلا به فمَن الحقيق بالعبادة إلا المالك ؟ ومَن الجدير بطلب العون إلا هو ؟ . فبين الآيتين تمام ارتباط واتصال ، وفيهما التفات من الغيبة إلى الخطاب ، فإن العبادة وطلب العون ثناء على الله بما هو أهله فناسب ذلك أسلوب الخطاب فى ﴿ **إيَّاك** ﴾ ﴿ **وإيَّاك** ﴾ . والضمير هنا نصب على المفعولية والكاف حرف خطاب وإنما قدم الضمير على الفعل لإفادة الاختصاص بمعنى أنه لا معبود إلا أنت ولا يستعان بأحد إلا بك . وفى هذا التقديم ما يفيد توحيد الإلوهية ، وهو اختصاص الله تعالى بالعبادة وطلب العون منه . وقد كان أهل الجاهلية يقرّون لله بالربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾[٢] . ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾[٣] . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾[٤] . ﴿ ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾[٥] .

فهذه الآيات كلها تدل دلالة قاطعة على أنهم آمنوا بالله ربًّا ولكنهم أشركوا به إلها وقالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٦] فأشركوا فى عبادته غيره . ومن ثم جاءت العبادة الصحيحة بما لها من أهمية لتنقذ الإنسانية من أرجاس الشرك . قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٨] .

إذن فلابد من توحيد الإلوهية مقترنا بتوحيد الربوبية ، وإنما يكون توحيد الإلوهية خالصا لله ، بإخلاص العبادة له : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين ﴾[٩] ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[١٠] . فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صوابا خالصا ، ومعنى كونه صوابا أى على وفق ما شرع الله ، وإخلاصه ، بعده عن شوائب الشرك . وقد شمل الوعيد قوما اعترفوا لله بالربوبية ، ولكنهم أشركوا فى إلوهيته . وفيهم يقول جل ذكره : ﴿ وما يؤمن أكثرهم

(١) سورة ق الآيتان ؛ ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٨٧ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٦١ .
(٤) سورة يونس آية : ٣١ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٣ .
(٦) سورة الزمر آية : ٣ .
(٧) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٨) سورة الحج الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٩) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(١٠) سورة الكهف آية : ١١٠ .

بالله إلا وهم مشركون ﴾(١) ، فهؤلاء آمنوا بالله ربًّا وأشركوا به إلها . قال الله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾(٢) .

وقد أوعد الله هؤلاء وعيداً شديداً ، وبعد الوعيد أرشد العباد إلى طريق الرشاد . قال في الوعيد : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾(٣) . ثم قال في الإرشاد : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾(٤) .

ولما للعبادة من أهمية قصوى جعلها الله غاية للخلق فى قوله جل شأنه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٥) ، ولهذه الأهمية قدمت العبادة على الاستعانة فى قوله جل شأنه : ﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ فالعبادة هى الغاية ، والاستعانة بالله مظهر من مظاهرها ، وإنما عبّر بنون الجمع ﴿ نعبد ﴾ ﴿ نستعين ﴾ هكذا ، لأن الإسلام هو دين الجماعة التى لا تجحد حق الأفراد ، ومصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد ، وفى نفس الوقت فإن حق الفرد مقدس لا يجوز المساس به .

وكان أمير المؤمنين عمر الفاروق يقول : لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها : لِمَ لَمْ تمهد لها الطريق ياعمر ؟ .

فما هى حقيقة العبادة والاستعانة حتى نكون على معرفة بأخص خصائص إسلامنا ؟ .

العبادة لغة : مأخوذة من الذلة ، يقال طريق معبّد ، وبعير معبّد أى مذلل .

العبادة شرعا : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطانا لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره ، أو يرقى إليه إدراكه ، فمن يتذلل لملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما لخوف من جَوره وظلمه وإما رجاء كرمه وجوده . .

صور العبادة : ليست العبادة أمراً مقصوراً على الصلاة مثلا كما قد يتبادر إلى الذهن إنما العبادة لها صور وأشكال ، فمنها : العبادة القولية والقلبية والعملية والمالية والبدنية .

فالقولية : كذكر الله تعالى والاستغفار والدعاء قال ﷺ .

(. . . خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله . . .)(٦) وكان يقول أيضا : (جددوا إيمانكم . قالوا : وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)(٧) .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٦ .
(٢) سورة الزمر آية : ٣ .
(٣) سورة يوسف آية : ١٠٧ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠٨ .
(٥) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٩٣ .
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٨٩ .

قال الله تعالى على لسان نوح : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنـه كان غَفَّـارا * يرسـل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾[1] . ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

وأما الدعاء فقد قال الله فى شأنه : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[2] . قال رسول الله ﷺ : (الدعاء مخ العبادة)[3] . وقال ﷺ : (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنه سرر الجنة)[4] . وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[5] . وما من سؤال وجِّه إلى النبى ﷺ ــ كما ورد فى القرآن الكريم ــ إلا قال الله له : قل . إلا آية الدعاء ، قال تعالى : ﴿ يسألونك مـاذا ينفقون قـل ما أنفقتم من خـير فللوالدين والأقربين ﴾[6] الآية . وقال جل شأنه : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾[7] . وقال سبحانه : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قـل فيهما إثم كبـير ومنافـع للناس ﴾[8] الآيـة . وقال : ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾[9] . وقال : ﴿ يسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾[10] . وقال : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾[11] . وقال : ﴿ يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ﴾[12] .

فأنت ترى فى هذه الآيات كلها أن الله لقَّن نبيه الإجابة بقوله : قل . أما فى آية الدعاء : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾[13] فإن الإجابة جاءت فيها مقترنة بالسؤال دون ذكر قل حتى لا يكون بين العبد وربه واسطة فى الدعاء وذلك لأن الدعاء عبادة والعبادة يجب أن تكون مُباشرة لله دون واسطة . فهذه لمحة لطيفة تفيدنا فى باب العبادة .

أما العبادة القلبية : فتتمثل فى النية الصادقة والتوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضا واليقين والتوكل .

أما العبادة العملية : فالصلاة والصيام والحج .

أما العبادة المالية : فالزكاة والكفارات والنذور . .

أما العبادة البدنية : فالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد .

---

(١) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .
(٢) سورة غافر آية : ٦٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣٤١ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٠٢ ط دار الفكر .
(٥) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢١٥ .
(٧) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٨) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٢٠ .
(١٠) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .
(١١) سورة الأحزاب آية : ٦٣ .
(١٢) سورة طه آية : ١٠٥ .
(١٣) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

وفى هذه الصور من العبادات مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، لكننا مركزنا عناصرها الأساسية وعنصرنا مراكزها الأصلية بما تيسَّر من التقدير وتقدر من التيسير ، فمن أراد أن يستزيد فليرجع إليها فى مظانّها ليقف على حقائق الأسرار ويسلك مدارج الأنوار ويعيش فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

أما الاستعانة : فهى طلب العزن ، إذ السين والتاء يدلان على الطلب وهى فى الشرع تفويض الأمر إلى الله بعد الأخذ بالأسباب . قال تعالى : ﴿ أفرأيتم ماتحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[1] . فعلى العبد أن يحرث الأرض ويبذر فيها الحب والله هو الذى ينبت الحب . ولذا بلغ من صفاء التوحيد عند ابن عباس أنه قال : من قال لولا الكلب لدخل اللص فقد أشرك . ويقاس عليه قول الناس : لولا الطبيب ما شفيت ، ولتصحيح العقيدة يقول القائل : لولا أن الله سخر الكلب لدخل اللص . ولولا أن الله سخر الطبيب ما شفيت ، وذلك حتى تستقيم العقيدة لصاحبها فلا يخلط بين الخالق ومخلوقاته . قال تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] . وقد جاء فى الحكمة : « على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد » . وقال قائلهم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

نسأل الله أن يرزقنا العبادة الخالصة والاستعانة الصادقة . فيا أخى إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

لما ذكرت الآية السابقة العبادة والاستعانة وأنهما يجب أن يكونا خالصين لله ، ناسب ذلك أن يأتى بآية الدعاء بعد العبادة والاستعانة ، فقال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . فالدعاء مخ العبادة ، وطلب الهداية من الله إنما هو استعانة به سبحانه أن يوفق إليها ، فكان بين الآيتين تمام ارتباط . والصراط هو الطريق ، والمستقيم هو الذى لا اعوجاج فيه ، أو كما يقولون : هو أقرب صلة بين نقطتين . وقد يطلق الصراط ويراد به الإسلام كما فى قوله ﷺ : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداعٍ يدعو من فوق الصراط . فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه . فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم)[3] .

وقال مجاهد : الصراط المستقيم هو الحق ، وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم . وقال ابن جرير فى هذه الآية : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من

---

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ . (٢) سورة هود آية : ١٢٣ .
(٣) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى والبيهقى والحاكم : الدر المنثور للسيوطى جـ ١ ص ١٥ .

عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وُفِّقَ لما وفق له من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام .

والمراد بالهداية قد يكون معنى خلق قدرة الطاعة فى العبد وهى هداية خاصة لا يقدر عليها إلا الله ، وفيها يقول جل شأنه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾(١) . ولا يحسبن أحد أن هذه الآية تسلب العبد كسبه واختياره ، لأن مشيئة الله ليست عبثا إنما تقوم على الحكمة والعلم والإرادة والقدرة ، ومن ثم فقد جاء ختام الآية ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ فالله سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون . والعلم صفة انكشاف وليس صفة إلزام ، وعلى وجه المثال فهو كالمرآة إذا نظرت إليها بوجه مبتسم بدت صورتك مبتسمة فإذا نظرت فيها عابس الوجه بدت صورتك كذلك . وما أجمل قـوله ﷺ : (مثـل علم الله فيكم كمثل السـماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ، وكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله) .

وعلم الله مبنى على حكمته وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل تلك الحكمة ، قال تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾(٢) . ومن ثم فقد بين الله أن الهداية تأتى بمعنى الإرشاد ، فهو سبحانه يرشد ويبين ويزود الإنسان بالوسائل التى تمكنه من سلوك الطريق القويم . قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾(٣) .

وقال سبحانه : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين ﴾(٤) . ثم بين وظيفة العقل لأنها الأهم من ذكره ، فلم يقل ووهبنا له عقـلا ، إنما قـال : ﴿ وهدينـاه النجدين ﴾(٥) . وقـال سبحانـه : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾(٦) .

والإلهام نوع من أنواع الهدايات ، وكيف يكون هناك جبر أو سلب لكسب العبد واختياره وقد قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٧) . وكيف يكون هناك قهر للعبد وقد قال تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾(٨) .

(١) سورة القصص آية : ٥٦ .
(٢) سورة الفتح آية : ١٨ .
(٣) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة البلد الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٥) سورة البلد آية : ١٠ .
(٦) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠ .
(٧) سورة فصلت آية : ١٧ .
(٨) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

لقد قال جل شأنه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾[١] ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٢] . . وقال عظمت حكمته : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[٣] . فأنت ترى أن الذين لا يهديهم الله هم الذين اختاروا لأنفسهم طريق الفسق والظلم والضلال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾[٤] . ألم تسمع إلى قوله جل شأنه : ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٥] .

ومن نعم الله علينا أنه هدانا ولطف بنا ، ويتمثل لطفه فى ثلاثة جوانب : فقد خلق لنا عقلا وأرسل إلينا رسلا وأنزل إلينا كتبا ، وهو قبل ذلك وبعد ذلك يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات فلا يلومن الظالمون إلا أنفسهم . قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

للهداية إطلاقات أخرى غير ما سبق ، فكما أنها قد يراد بها خلق فطرة الطاعة فى العبد ، كذلك يراد بها الإرشاد والبيان كما فى قوله تعالى ، يخاطب رسوله : ﴿ . . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله . . . ﴾[٧] ويراد بها الهداية الفطرية أو الإلهام كهداية الرضيع إلى ثدى أمه . ويراد بها الهداية الحسّية كهداية الإنسان إلى أن يستعمل أعضاءه فى وظائفها الخاصة : فالعين للإبصار واللسان للذوق والأذن للسمع . . . الخ . ويراد بها الهداية العقلية وهى وظيفة العقل فى التمييز بين ما يضر وينفع . . ويراد بها الهداية الدينية وذلك عن طريق الشرائع السماوية ومعنى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا وأعنّا على سلوكه . ولسائل أن يقول : كيف يطلب العبد من ربه الهداية فى الصلاة ، والصلاة فى ذاتها هداية ؟ ونقول : إن المراد بطلب الهداية من المؤمن لربه أن يوفقه للثبات عليها . فقد كان من دعاء الصادق المعصوم ﷺ : (يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) . ومن دعائه : (يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث . أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين) . أو ما قرأت قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ﴾[٨] فأمرهم بالإيمان وخاطبهم بصفة الإيمان ، أى اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦ .
(٢) سورة الصف آية : ٥ .
(٣) سورة الصف آية : ٧ .
(٤) سورة النحل آية : ١٠٤ .
(٥) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٦) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .
(٧) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٨) سورة النساء آية : ١٣٦ .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

قوله تعالى ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ : فالصراط هو نفس الصراط السابق ، ولذا فإن الارتباط بينهما غنى عن البيان ، وقد نصب الصراط الثانى على البدلية مما قبله . ولقد جاءت هذه الآية كأنها جواب عن سؤال مقدر . فكأن سائلا قال : ما هو الصراط المستقيم ؟ فجاء الجواب : صراط الذين أنعمت عليهم ، أى تفضلت عليهم بطاعتك ورحمتك ورضوانك . وقد فصلت سورة النساء ما أجملته سورة الفاتحة ، وخير ما تفسر به القرآن ، القرآن نفسه .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[١] . وفى تلك الآية دلالة قاطعة على أن عقيدة الأنبياء واحدة وهى التوحيد . فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . وكل الأنبياء مسلمون . قال نوح لقومه : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[٢] . وجاء فى شأن إبراهيم : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٣] . وجاء فى شأن موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٤] . وفى شأن يوسف : ﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٥] . وفى شأن عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[٦] . وفى شأن سليمان : ﴿ ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾[٧] . وفى حق أمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٨] . وفى حق النبيين : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[٩] . وفى حق البشرية جمعاء : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١٠] .

ثم بعد ذلك ، وبعد ذكر الذين أنعم الله عليهم احترز عن فرق الضلال والهوى فقال : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . والمغضوب عليهم قوم عرفوا الحق كما يعرفون أبناءهم ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم ولم يقبلوه ، واليهود على رأس هؤلاء الذين استحقوا غضب الله . لما دخل عبد الله بن سلام الإسلام ــ وكان من أحبار اليهود ــ قال يارسول الله : سل اليهود عنى قبل أن أعلن إسلامى . فسألهم الرسول عنه قالوا : يامحمد هو سيدنا وابن سيدنا . قال عبد الله بن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال اليهود : يا محمد هو سفيهنا وابن سفيهنا .

أما الضالون فهم الذين لم يعرفوا الحق ولم يبحثوا عنه فضلوا وحاروا . قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة يونس آية : ٧٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٤) سورة يونس آية : ٨٤ .
(٥) سورة يوسف آية : ١٠١ .
(٦) سورة المائدة آية : ١١١ .
(٧) سورة النمل آية : ٣١ .
(٨) سورة المائدة آية : ٣ .
(٩) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(١٠) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[1] وعلى رأس هؤلاء : النصارى . قال عدى ابن حـاتم سـألت رسـول الله ﷺ عن قـولـه تعـالى : ﴿ غـير المغضـوب عليهم ﴾ قـال : هم اليهـود ﴿ ولا الضالين ﴾ قال : النصارى .

آمين : اسم فعل أمر بمعنى استجب . روى فى الأثر أن النبى ﷺ قال : (لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة الفاتحة وقال : إنه كالختم على الكتاب) ، وأوضح ذلك علىّ كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده ــ يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المختوم والتصرف فيه ، يمنع الخيبة عن دعاء العبد .

قال جبريل عند نزوله بفاتحة الكتاب : يا محمد مازلت خائفا على أمتك حتى نزلت بفاتحة الكتاب فأمنت بها عليهم .

(١) سورة المائدة آية : ٧٧ .

(٢) سورة البقرة مدنية
وآياتها ست وثمانون ومائتان

عدد آياتها : مائتان وست وثمانون آية . وهى أول سورة نزلت بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة .

عدد كلماتها : ستة آلاف كلمة ، ومائة وإحدى وعشرون كلمة .

أسماؤها : أربعة : **الأول** « البقرة » ، إحياء لذكرى تلك المعجزة الباهرة التى ظهرت فى زمن موسى الكليم ، حيث قتل شخص من بنى إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهانا على قدرة الله جل وعلا فى إحياء الخلق بعد الموت .

الثانى : « سورة الكرسى » لاشتمالها على آية الكرسى التى هى أعظم آيات القرآن .

الثالث : « سنام القرآن » لقوله ﷺ : (إن لكل شىء سناما وسنام القرآن سورة البقرة . .)[١] .

الرابع : « الزهراء » لقوله ﷺ : (اقرءوا الزهراوين[٢] البقرة وآل عمران)[٣] .

مقاصد هذه السورة الكريمة : اشتملت على معظم الأحكام التشريعية التى يحتاج إليها المسلمون فى حياتهم الاجتماعية سواء فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وأمور الزواج والطلاق والعدة و . . . .

فتناولت الآيات الحديث عن صفات المؤمنين ومدحهم ، وذم الكفار والمنافقين ، والرد على منكرى النبوة ، وقصة أبى البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التى تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشرى ثم تناولت السورة الحديث عن اليهود بالإسهاب لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين فى المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم وما تنطوى عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، وإلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التى ارتكبها هؤلاء المفسدون مما يوضح عظيم خطرهم وكبير ضررهم . فتناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة بدءا من قوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾[٤] ، فشمل ذلك ملامة علماء اليهود ، وقصة موسى واستسقائه ومواعدته ربه ومنّته على بنى إسرائيل وشكواه منهم ، وحديث البقرة وقصة سليمان وهاروت وماروت والسحرة . ثم انتقل إلى الرد على النصارى وابتلاء إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة ، ووصية يعقوب لأولاده ، وتحويل القبلة ، وبيان الصبر على المصيبة وثوابه ، ووجوب

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ . (٢) الزهراوين أى المنيرين .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ . (٤) سورة البقرة آية : ٤٠ .

السعى بين الصفا والمروة ،وبيان حجة التوحيد وطلب الحلال ، وإباحة الميتة حال الضرورة وحكم القصاص والأمر بصيام رمضان ، والأمر باجتناب الحرام ، والأمر بقتال الكفار ، والأمر بالحج والعمرة ، وتعديد النعم على بنى إسرائيل وحكم القتال فى الأشهر الحرم ، والسؤال عن الخمر والميسر ومال الأيتام والحيض ، والطلاق والمناكحات وذكر العدة والمحافظة على الصلوات ، وذكر الصدقات والنفقات ، وملك طالوت وقتل جالوت ، ومناظرة الخليل ، عليه السلام نمرود ، وإحياء الموتى بدعاء إبراهيم ، وحكم الإخلاص فى النفقة ، وتحريم الربا وبيان المداينات ، وتخصيص الرسول ﷺ ليلة المعراج بالإيمان حيث قال : ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى آخر السورة حيث ختمت بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة .

فضل السورة :

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة[١] ﴾[٢] .

وقال ﷺ : (. . إن الشيطان لايدخل بيتا يقرأ فيه سورة البقرة)[٣] .

وعن عكرمة قال : « أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة من قرأها فى بيته نهارا لم يدخل بيته شيطان ثلاثة أيام . ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخله شيطان ثلاث ليال »[٤] .

وروى أن من قرأها كان له بكل حرف أجر مرابط فى سبيل الله .

وعن أبى مسعود قال : كنا نعد من يقرأ سورة البقرة من الفحول .

وقد أمّر رسول الله ﷺ (فتى على جماعة من شيوخ الصحابة كان يحسن سورة البقرة)[٥] . وقال ﷺ : (اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما)[٦] .

وعنه ﷺ أنه قال : (يا على من قرأ سورة البقرة لا تنقطع عنه الرحمة مادام حيا ، وجعل الله البركة فى ماله ، فإن فى تعلمها ألف بركة وفى قراءتها عشرة آلاف بركة ولا يتعاهدها إلا مؤمن من أهل الجنة ، وله بكل آية قرأها ثواب شيث بن آدم عليهما السلام ، فمن مات من يوم قرأها إلى مائة يوم مات شهيدا) .

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران)[٧] .

(١) البطلة . السحرة .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٣٣ .
(٥) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٣٢ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦١ .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا . واستخرجت ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ من تحت العرش فوصلت بها ، أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤ ها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له)(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)(٢) .

وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه أنه قال : (يارسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى فظننت أن فرسى انطلق ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ أبا عتيك ، فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض ، ورسول الله ﷺ يقول : اقرأ أبا عتيك ، فقال : يا رسول الله فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب)(٣) .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء)(٤) .

بين الفاتحة والبقرة

جاءت سورة البقرة بمثابة التفصيل لما أجملته سورة الفاتحة ، فكانت سورة الفاتحة كأنها البذرة الطيبة التى جمعت كل العناصر والمبادىء الإسلامية الرفيعة ، غرست هذه البذرة فى أرض طيبة علوية المكانة فأنبتت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تلك الشجرة هى سورة البقرة . ولتوضيح ما ذكرنا نقول : اشتملت سورة الفاتحة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام . وجاءت سورة البقرة ففصلت القول فى تلك القضايا تفصيلا لا لبس فيه ولا غموض . ففى أصول العقائد ذكرت أول ما ذكرت ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : المؤمنة التقية وصفاتها : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

والفرقة الثانية : كافرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٩ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٨ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦١ .
(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦٢ .

والفرقة الثالثة : فرقة النفاق ، وفيهم يقول البارى جل ذكره : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير** ﴾ .

وكأن هذه الفرق جميعا دارت حول أنواع القلوب . فالقلوب ثلاثة : قلب سليم وقلب ميت وقلب مريض . فالقلب السليم هو القلب المؤمن وأصحابه يمثلون الفريق الأول فى سورة البقرة ، والقلب الثانى وهو الميت أصحابه يمثلون الفريق الثانى فريق الكافرين ، والقلب الثالث وهو المريض وأصحابه يمثلون الفريق الثالث وهم أهل النفاق . وقد يكون مرض القلوب مرض شبهة وهو النفاق ، وقد يكون مرض شهوة كما فى قوله تعالى : ﴿ **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾[1] . وفى مجال العقيدة أيضا وجّه الواحد الديان بيانا إلى البشرية جمعاء أن يفردوه وحده بالعبادة فقال: ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ . ثم أقام الأدلة الباصرة الناطقة بلسان الحال والمقال والشاهدة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين على وحدانيته فقال : ﴿ **الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ .

تـأمـل فى نبات الأرض وانـظر ... إلى آثـار مـا صـنـع المـليـك
عـيـون من لجـين شـاخـصـات ... بـأبصـار هى الـذهب السبيـك
عـلى قضب الـزبـرجـد شاهـدات ... بـأن الله لـيـس لـه شـريـك

فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت العقائد إجمالا فإن سورة البقرة قد فصلتها فى خطوط عريضة ، فذكرت الإلوهية بأخص الخصائص وهو التوحيد وحقيقته إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، ثم أردفت ذلك بذكر الجانب الثانى من العقائد وهو النبوة قال سبحانه : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ .

ثم ذكرت الجانب الثالث من العقائد وهو البعث والجزاء . فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت هذا الجانب فى قوله جل شأنه : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، والمقصود بالدين هو الجزاء ، فإن سورة البقرة قد فصلت هذا الجزاء فى قوله تعالى شأنه : ﴿ **فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . ثم ختمت هذا الجزء من العقائد ببيان أركان الإيمان فى قوله تبارك اسمه : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ .

وفى جانب العبادة جاء فى سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد ﴾ هكذا بذلك الأسلوب الموجز المبنى ، العظيم المعنى . وجاءت سورة البقرة تبين لنا أركان العبادة من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد . وفى البقرة آية

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٢ .

فلذة تعتبر مركز الدائرة الذى تدور حوله آياتها وتحيط به إحاطة بديعة رائعة هى آية البر التى جمعت العقيدة والعبادة والسلوك . اقرأها وتأملها كثيرًا وارجع البصر فيها كرتين . إن تلك الآية التى توسطت سماء العلا هى قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . وفى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . كذلك قوله جل شأنه : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . . كل هذه الآيات تعطينا إشارة قوية الدلالة على ما فى الصلاة من أهمية فى الإسلام ، فهى الركن الأول بعد الشهادتين ، وهى أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة ، وهى مفتاح باب الجنة ، ويكفى فى ذلك قوله جل شأنه : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

وكما فصلت سورة البقرة الركن الأول من العبادات ، وهو الصلاة ، كذلك فصلت الركن الثانى وهو الزكاة ، وترى ذلك على امتداد آيات واضحات مشرقات كما فى قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

ويستمر الزحف المقدس وتتحرك المسيرة المباركة فى آيات الزكاة إلى أن يصل إلى قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وحيث تؤدى الزكاة فلا ربا حيث لا تجتمع الزكاة والربا فى مجتمع واحد ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ . وجاء الوعيد لأكلة الربا كالرعود القواصف والرياح العواصف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ .

وحيث حارب الإسلام الربا فى كل مواقعه فإنه أجاز الدَّين ومنح الدائن أجرا عظيما . وحيث أجاز الدين فقد أجاز الرهن للاستيثاق من أداء الدين فقال : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾ .

كذلك فصلت سورة البقرة فى جانب العبادات فريضة الصيام من أول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ .

كذلك فصلت فريضة الحج تفصيلا جليلا من أول قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ إلى قوله تبارك اسمه : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ .

أما عن الجهاد فحدث عنه ولا حرج ، ففيه جاءت مبادىء الأحكام ثابتة الأركان فى كل زمان ومكان ، فمن تلك المبادىء الجهادية قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ . ومن تلك المبادىء قوله تبارك وتعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم ﴾ .

وفى سورة البقرة جاءت أحكام بيّنها الله لنا تنير لنا الطريق إلى رضاه : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ . ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ . ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ . ﴿ يسألونك عن المحيض ﴾ .

ومما فصلته سورة البقرة مناهج السلوك . فقد أجملته سورة الفاتحة بإشارة لطيفة فى قوله جل شأنه : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، وهل الصراط المستقيم إلا النهج القويم والخلق العظيم والسلوك المستقيم . ولقد بسطت سورة البقرة القول فى هذا المقام بسطا يفيض جلالا وجمالا وكمالا ويشع نورا وضياء وبهاء . ترى تفصيل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ . وهل التقوى إلا الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . . . وفى قوله جل شأنه : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ وهل الإيمان بالغيب إلا تأديب للنفس بحيث تعلم أن الله رقيب عليها فى سرها وعلنها . ثم بعد ذلك اقرأ فى مناهج السلوك : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ .

وعن العمل الصالح حدث ولا حرج :

إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل سادیها
والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

ثم تأمل معى مناهج السلوك فى قوله تعالى : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ وفى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وفى قوله جل ذكره : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾ وفى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ إلى غير ذلك من مناهج الأخلاق والسلوك التى لا تنتهى عند عد ولا يحيط بها حد .

كما فصلت سورة البقرة ما أجملته سورة الفاتحة من سير الصالحين وقصص الأولين . جاء فى سورة الفاتحة قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . وجاءت قصة آدم مفصلة فى سورة البقرة من أول قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . ثم تبعت هذه القصة تفصيلات عن بنى إسرائيل مع نبى الله موسى ، وقطعت السورة فى ذلك شوطا بعيد ثم جاءت قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت الحرام من أول قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ إلى قوله عز من قائل : ﴿ تلك

أمة قد خلت ﴾ . كذلك جاءت قصة طالوت مع بنى إسرائيل من أول قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى** ﴾ إلى قوله جل جلاله : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة** ﴾ . وجاء بعد ذلك موقف الخليل مع النمرود : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه** ﴾ وأتبعت بقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . جاء بعد ذلك طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى . وهكذا ذكرت سورة البقرة جانبا غير قليل من القصص . كذلك فصلت سورة البقرة فرق الضلال التى جاءت مجملة فى سورة الفاتحة فى قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية** ﴾ وقال جل ذكره : ﴿ **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيه . فأنت ترى بعد هذا كله أن بين الفاتحة والبقرة صلات قوية ووشائج متينة وأواصر مكينة . فسبحان من هذا كلامه وصلوات الله تعالى وتسليماته على من كان القرآن معجزته الخالدة .

والآن إلى تفسير سورة البقرة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿ الم ﴾ هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأى القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين .

ومن لطائف ما ذكره بعض المفسرين أننا لو جمعنا كل الحروف التى افتتحت بها هذه السور وحذفنا المكرر منها لكونت لنا جملة تقول : « نص حكيم قاطع له سر » . وجاء ذكر القرآن بعد هذه الحروف للتنويه بإعجازه وعجز الخلق عن الإتيان بمثله .

قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ بذكر لام البعد فى اسم الإشارة للدلالة على بعد طبقته فى البلاغة وعلو مكانته فى الشرف . قال تعالى : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم ﴾(١) . . وقد جاء الكتاب معرفا بالألف واللام بعد اسم الإشارة لإفادة الحصر والقصر عن طريق تعريف المسند والمسند إليه كأنه قيل « ذلك هو الكتاب الذى اجتمعت له جميع صفات الحسن والكمال ومعانى الجلال والجمال » . .

ثم بعد ذلك وصفه الله تعالى بأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا يعتريه شك ولا ريبة إذ أن الريبة تدعو إلى القلق وهذا الكتاب لأنه صدق فإن جميع ما فيه يدعو إلى الطمأنينة إنه ذكر حكيم من الله العلى العظيم . ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٢) . قال تعالى مبينا وظيفة هذا الكتاب ورسالته ﴿ هدى للمتقين ﴾ : والهدى أجل نعمة ينعم الله بها على العبد ، لذا جاء فى سورة الفاتحة دعاء تدعو به الجماعة ربها وخالقها ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وكأن هذه الآية من سورة البقرة جاءت بيانا للذين يطلبون الهدى من الله وكأن القرآن ينادى عليهم : يا من تطلبون الهدى التمسوه فى هذا الكتاب وإنما قال ﴿ هدى ﴾ ولم يقل « هادٍ » لأن الهادى هو المتصف بالهدي ، أما ذلك الكتاب فهو الهدى نفسه كما تقول « عمر عدل » أى هو العدل نفسه . وقد يطلق الهدى ويراد به خلق قدرة الطاعة فى العبد ويراد به البيان والإرشاد كما سبق بيان ذلك فى تفسير سورة الفاتحة . لمن الهدى ؟ للمتقين ، ومن المتقى ؟ إنه الذى جعل بينه وبين محارم الله وقاية فلا يفتقده الله حيث أمره ولا يجده حيث نهاه . سأل عمر « أبى بن كعب » عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى . وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خـل الـذنـوب صغيرهـا ... وكـبـيـرهـا ذاك الـتـقـى
واصنـع كمـاشٍ فـوق أر ... ض الشوك يحذر مـا يـرى
لا تحـقـرن صـغـيـرة ... إن الجـبـال مـن الحصى(٣)

وفى سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »(٤) .

أين التقوى ؟ أشار النبى ﷺ إلى صـدره وقال : (التقـوى هاهنـا)(٥) . فمن هم المتقون ؟ هم الخائفون من الجليل ، العاملون بالتنزيل ، الراضون بالقليل ، المستعدون ليوم الرحيل . فما أوصافهم ؟ ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبـالآخرة هم يـوقنون ﴾ . فبم حكم الله لهم ؟ ﴿ أولئـك على هـدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ . فما بيان ما ذكر ؟ ﴿ الذين يؤمنون ﴾ أى يصدقون وإنما عبر هنا بالاسم الموصول لتفيد جملة

---

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٦٢ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٠ ط الشعب .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٦٥ ط دار الفكر .

الصلة (وهى يؤمنون) استمرار الإيمان . والإيمان تصديق قلبى ، أى محله القلب ، قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾ ؛ وقال صلوات الله وسلامه عليه : (ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل)(١) . وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ؛ وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

وأول ركن من أركان الإيمان فى هذه الآية : الإيمان بالغيب ، وهو ما غاب عنا من الأمور التى لا تُعلم إلا بالسماع من الصادق ، وهو ما يسمى فى علم العقائد بالسمعيات : كالجنة والنار والصراط والميزان إلى غير ذلك .

وليس الإيمان مقصوراً على الغيب ، إنما لابد أن يصحبه عمل صالح . قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ وإنما عبر بالإقامة دون الأداء لأن الأداء هو الإتيان بأركانها وشروطها وسننها .

أما الإقامة : فهو الإتيان بها مستقيمة الأركان والشروط والسنن ، أى مع التزام الخشوع والطمأنينة فى كل وقت ، وذلك من باب أقمت الشىء إذا عدلته . قال تعالى : ﴿ فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾(٢) . قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » . وسئل حاتم الأصم رضى الله عنه : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : « إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى والنار ورائى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى والله مطلع علىّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردَّها علىّ » .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » . ألا تدرى ماذا يقول الملك عندما يؤذن للصلاة ؟ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملكا ينادى عند كل صلاة : يابنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فاطفئوها)(٣) ، والنيران هنا هى نيران الذنوب ، والصلاة هى الماء الذى يطفىء هذه النيران . إن الصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أدران وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم قادرون . عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير مايعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل مايريد به المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع وكيف ساوت العِلْيَة بالزمع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة شرعوا فى عتبة الله .

---

(١) ابن النجار ، الديلمى فى مسند الفردوسى .
(٢) سورة الكهف آية : ٧٧ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٧ .

اسمع معى إلى ما قاله سيد الخلق صلوات ربى وسلامه عليه فى فضل الصلوات الخمس ، وضرورة المحافظة عليها والإيمان بوجوبها ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لايبقى من درنه شىء . قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)(١) . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا)(٢) .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المسلم يصلى وخطاياه مرفوعة على رأسه ، كلما سجد تحات عنه فيفرغ من صلاته وقد تحاتت عنه خطاياه)(٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)(٤) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة وآخر ما يبقى الصلاة وأول ما يحاسب به الصلاة ، ويقول الله : انظروا فى صلاة عبدى ، فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة يقول : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن وجد له تطوع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قال : انظروا هل زكاته تامة ؟ فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل له صدقة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته)(٥) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور)(٦) .

وعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول مايحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله)(٧) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد)(٨) .

هذا بعض مما قاله الصادق المعصوم فى فضل الصلوات الخمس المفروضة ، ولننتقل إلى سماع بعض

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٨ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٩٤ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٦١ .
(٦) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٥٣٧ .
(٧) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٤٣٢ .
(٨) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٧٢٦ .

ما قاله صلوات ربى وسلامه عليه فيمن يؤدى هذه الصلوات فى بيوت الله :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (صلاة الرجل فى الجماعة تُضَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مُصَلاَّهُ : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ماانتظر الصلاة)[١] . وفى رواية: (اللهم اغفر له ، اللهم تُب عليه مالم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (أتانى الليلة آت من ربى ، وفى رواية : رأيت ربى فى أحسن صورة ، فقال لى يا محمد قلت : لبيك رب وسعديك . قال : هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت :الله أعلم، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى . أو قال : فى نحرى فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض أو قال : مابين المشرق والمغرب . يا محمد أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم فى الدرجات والكفارات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء فى السبرات[٢] ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال يا محمد : قلت لبيك وسعديك[٣] . فقال : إذا صليت فقل اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة[٤] فاقبضنى إليك غير مفتون . قال والدرجات : إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام)[٥] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ليضىء للذين يتخللون إلى المساجد فى الظلم بنور ساطع يوم القيامة)[٦] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاثة كلهم ضامن على الله ، إن عاش رُزق وكُفى ، وإن مات أدخله الله الجنة : من دخل بيته فسلَّم فهو ضامن على الله ، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله ، ومن خرج فى سبيل الله فهو ضامن على الله)[٧] .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : (أى البقاع خير ؟ قال : لا أدرى . قال : فاسأل عن ذلك ربك عزَّ وجلَّ . قال : فبكى جبريل عليه السلام ، وقال يامحمد : ولنا أن نسأله هو الذى يخبرنا بما يشاء ، فعرج إلى السماء ، ثم أتاه فقال : خير البقاع بيوت الله فى الأرض ، قال : فأى البقاع شرٌّ؟ فعرج إلى السماء ثم أتاه فقال : شر البقاع الأسواق)[٨] .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ : هذا النص الكريم يضيف صفة أخرى إلى المتقين : إنه الإنفاق مما رزق

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٧٣ .
(٢) شدة البرد .
(٣) اجابة بعد اجابة .
(٤) امتحان واختبار .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٧٥ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٥ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٤١ .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٧ ١٤٨ .

الله . ومن رحمة الله بالعباد أنه جعل المقدار الذى يُزكى به جزءا قليلا من المال فقال ﴿ مما ﴾ . والرزق هو مايسوقه الله تعالى إلى العباد من مال وصحة وذكاء وعافية ، وليس مقصورا ــ كما ذكر بعضهم ــ على المأكول والمشروب ، فذلك جزء لا كل . فالعلم على وجه المثال رزق،وزكاته تعليم الناس وإرشادهم والبعد عن كتمانه ، والصحة رزق وزكاتها إعانة الضعفاء وإغاثة الملهوفين . وقد علم الله ما فى النفوس من الشح بالمال فقال فى ذلك : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾(١) ومن ثم جعل المقدار الذى يخرج عن المال يسيرا ، فهوربع العشر فى النقدين وزكاة التجارة،وهو العشر أو نصفه فى زكاة الزروع والثمار،وهو الخمس فى زكاة الركاز . قال تعالى : ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾(٢) أى كلها ، ثم بين الحكمة من ذلك فقال : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾(٣) .

وقد جاء الإسلام ليروض البخل فى النفوس ويقلم أظفاره ومخالبه ، فرغب فى العطاء والبذل . قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾(٤) .

وفى فضل الزكاة : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لمن حوله من أمته : (اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة . قلت ماهى يارسول الله ؟ قال : الصلاة والزكاة والأمانة والفرج والبطن واللسان)(٥) . وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله : أرأيت إن أدّى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من أدى زكاة ماله ، فقد ذهب عنه شره)(٦) .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)(٧) .

وعن عُبيد بن عُمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : (إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله عليه ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، ويؤتى الزكاة محتسبا طيبة بها نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها ، فقال رجل من أصحابه يارسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدَيْن المسلِمَين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمدا ــ ﷺ ــ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب)(٨) .

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٦ .
(٣) سورة محمد الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦١ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أديت الزكاة فقد قضيت ماعليك ، ومن جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره عليه)[1] . والإصر هو الإثم .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالزكاة أن قرنها بالصلاة ، وبين الصلاة والزكاة تمام اتصال وارتباط . فالصلاة طهارة للقلب والزكاة طهارة للمال ، ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء . وقد بلغ من عناية الإسلام بهما أن ذكرهما بأساليب متنوعة ، فقد يذكرهما بصيغة الماضى كما فى قوله جلّ شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾[2] . وذكرهما بصيغة المضارع كما فى قوله تبارك اسمه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾[3] . وذكرهما بصيغة الأمر : قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾[4] . وذكرهما بصيغة المصدر . قال عز من قائل : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[5] . وذكرهما سبحانه وتعالى بصيغة الوصف . قال سبحانه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[6] .

كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تكنى بأم الطيب لأنها كانت تمسِّك دراهم الصدقة (أى تضعها فى المسك) وسئلت فى ذلك فقالت : لأننى أضعها فى يد الله قبل أن أضعها فى يد المسكين . وكانت إذا تصدقت ودعا لها المسكين دعوة ردت على دعوته بدعوةمثلهافسئلت فى ذلك فقالت : حتى تكون دعوتى مقابل دعوته وتظل الصدقة خالصة لوجه الله .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يتصدق بقطع السكر فسُئل فى ذلك فقال : لأننى أحبه والله تعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[7] . وقد بلغ من عظم الصدقة عند الله أنها تعالج ما فى النفوس من أحقاد وضغائن . قال صلوات الله وسلامه عليه : (أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح)[8] ، والكاشح هو الذى يضمر السوء والبغضاء . ذلك لأن الصدقة عليه لها غايتان شريفتان : الغاية الأولى أن فيها جهادا للنفس ، فعندما يتصدق الإنسان على المسىء إليه فهو بذلك قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . والغاية الثانية:أن الصدقة تطفىء مافى القلوب من أحقاد وشحناء وبهذا تكون الصدقة قد قامت بدور اجتماعى وإصلاح خلقى . وكفى بالصدقة مكانة عند الله أن رسول الله ﷺ قال فى شأنها : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفيا تطفىء غضب الرب . وصلة الرحم تزيد فى العمر . وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٣١ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٤) سورة النور آية : ٥٦ .
(٥) سورة النور آية : ٣٧ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(٧) سورة آل عمران آية : ٩٢ .
(٨) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

هم أهل المنكر فى الآخرة . وأول من يدخل الجنة أهل المعروف)[١] .

وقد بلغ من سخاء الرسول وكرمه أنه كان أجود من الريح المرسلة . وكان يقول : (اصنع المعروف فى أهله وغير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله)[٢] .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل ولو طال الزمان به فليس يحصده إلا الذى زرعا

فيا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ : من صفات المتقين الإيمان بالكتب كلها توراة وزبورا وإنجيلا وقرآنا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾[٣] .

وقال عز من قائل : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[٥] . فلابد للمؤمن أن يؤمن بالغيب والكتب المنزلة على أنبياء الله ، كما لابد له أن يؤمن إيمانا يقينا بالآخرة ، أى البعث بعد الموت كما قال عزَّ من قائل فى وصف المتقين : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . وقد ورد فى القرآن من الأدلة مايثبت قضية البعث إثباتا جازما لا مرية فيه ، ونسوق فى هذا المجال آية من سورة الحج ، هذه الآية أنتجت خمس نتائج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[٦] .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج : أولاها : قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ . ثانيتها : ﴿ أنه يحيى الموتى ﴾ . ثالثتها : ﴿ أنه على كل شىء قدير ﴾ . رابعتها : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ . وخامستها : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

ولما جاء أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ بقطعة من عظام الموتى وفركها بين كفيه ونفخها وقال ساخرا : يامحمد : أترى أن الله يحيى هذه العظام بعدما رمَّت وبليت ؟ فأجابه الرسول على الفور قائلا : (نعم يميتك

---

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٠٠ ط دار المعارف .
(٢) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٦٥ ط دار المعارف .
(٣) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة الحج آية : ٥ .

الله تعالى ثم يبعثك ، ويدخلك النار)[١] . وإذا بكبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق وينزل بهذا المشهد المهيب على أمين الأرض والسماء : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ .
وهنا يجيب القرآن بخمسة أدلة يلقم فيها المعاندين والمكابرين بحججه الساطعة وبراهينه القاطعة . أما الدليل الأول : فقوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ والدليل الثانى قوله جل شأنه : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ . والدليل الثالث قوله تبارك اسمه : ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .
والدليل الرابع قوله تبارك وتعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . والدليل الخامس قوله جل جلاله : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٢] .

إن الذى أنشأ الإنسان من العدم قادر على الإعادة من باب أولى ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٣] . وقال فى سورة مريم : ﴿ ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيًّا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾[٤] . إن الذى خلق العالم الأكبر وهو خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيد خلق الإنسان بعد تفرق أجزائه . وإن الذى جمع بين الضدين من الخضرة والنار فجعل النار كامنة فى الشجر الأخضر قادر على أن يعيد الحياة بحرارتها إلى الأجسام الفانية ببرودتها . إن هذا الذى سيعيد الحياة إلى الموتى هو الذى أمره بالكاف والنون وهو الذى بيده ملكوت كل شىء ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾[٥] . وإنما سميت بالآخرة لأنها تأتى بعد الدنيا . وفى القرآن الكريم سورتان بدأهما الله تعالى بنداء موجه إلى الناس أولاهما دلت على مبدأ الخلق ، والثانية على إعادته وهو مايعرف عند علماء العقيدة بالمبدأ والمعاد . كان ترتيب السورة الأولى الرابع من النصف الأول من القرآن وهى سورة النساء . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٦] . وكان ترتيب السورة الثانية الرابع من النصف الثانى من القرآن وهى سورة الحج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٧] . ولنا كتاب فى هذا الموضوع اسمه « البعث والجزاء » فمن أراد مزيدا من التفصيل فليرجع إليه .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٦ ص ٥٧٩ ط الشعب .
(٢) سورة يس الآيات : ٧٧ - ٨٣ .
(٣) سورة الروم الآيات : ٢٥ - ٢٧ .
(٤) سورة مريم الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .
(٥) سورة فاطر آية : ٤٤ .
(٦) سورة النساء آية : ١ .
(٧) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ : هذه الآية بمثابة الحكم بعد ذكر الحيثيات ، فهؤلاء المتصفون بالتقى والإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق والإيمان بالكتب المنزلة واليوم الآخر حكم الله لهم بأنهم على هدى وبأنهم المفلحون الفائزون بدرجات الجنة والسعادة فى الدنيا ، وإنما عبر باسم الإشارة الدال على البعد ﴿ أولئك ﴾ ولم يقل هؤلاء لبعد مكانتهم وعلو أقدارهم وإنما كرر اسم الإشارة ليفيد عظم الأجر وذلك لإفادة أن كل واحد منهم على هدى وأن كل واحد منهم مفلح ويكون ذلك أعظم عندما جمع الله لكل واحد منهم الأمرين : الهداية والفلاح وإنما جاء التعبير بحرف الجر ﴿ على ﴾ لإفادة التمكن والتثبيت والاستقرار على الهدى ، وما أعظم الهدى من نعمة وما أجلّ الفلاح من غاية ، وإنما جاء بضمير الفصل ﴿ هم ﴾ بين المسند والمسند إليه لإفادة الحصر والقصر كأنه قال : أولئك هم المفلحون لا غيرهم والفائزون لا سواهم .

قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾(١) أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وقال عزّ من قائل : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢) .

لاتـركنن إلى القصـور الفـاخـره   واذكـر عظامـك حين تمسى نـاخـره
وإذا رأيت زخـارف الـدنيـا فقـل   يـارب إن الـعيش عـيش الآخـره

وينتقل بنا النظم الكريم من الحديث عن المتقين إلى الحديث عن الكافرين ، ومن أصحاب القلوب السليمة إلى أصحاب القلوب الميتة ، والضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتميز الأشياء .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ إن الذين كفروا ﴾ : الكفر ستر الشىء وتغطيته وإنكار الحق وجحوده ، وإنكار ماهو معلوم من الدين بالضرورة كإنكار الوحدانية والبعث بعد الموت والملائكة والكتب والرسل والقدر . وقد يكون ناشئا عن الاستكبار ككفر إبليس . قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾(٣) . وقد يكون الكفر ناشئا عن عناد ككفر فرعون . قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾(٤) .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٣٨ .
(٣) سورة ص الآيات : ٧١ - ٧٤ .
(٤) سورة الإسراء الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

فتأمل معنى هذا النص ﴿ لقد علمت ﴾ يفيد أن فرعون كان عالما بأن رسالة موسى من رب السماوات والأرض وأن الآيات من عند المولى جلّ وعلا ومنها اليد والعصا . . . وقد يكون الكفر ناشئا عن جحود كجحود الشيوعية لخالق الأكوان . وقولهم لا إله ، والحياة مادة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾(١) .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى   حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا   لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه   تمحو أثيم الشك والإنكار

قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى . قالوا : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

فواعجبا كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

وقد يكون الكفر ناشئا عن الشرك بأن يعبد مع الله غيره من بشر أو حجر أو بقر أو غير ذلك . . . وقد يكون الكفر ناشئا عن إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كإنكار البعث بعد الموت . قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤ ن بما عملتم ﴾(٢) .

وقد يكون الكفر ناشئا عن عدم الإيمان بأحد الأنبياء والتفريق بين الله ورسله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾(٣) .

وقد يكون الكفر ناشئا عن عدم الإيمان بخاتم الأنبياء محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(٤) .

وقد يكون الكفر ناشئا عن الاستهزاء بالله ورسوله وآياته كالاستهزاء بالمصحف والتحقير من شأنه .

---

(١) سورة الكهف آية : ٥ .
(٢) سورة التغابن آية : ٧ .
(٣) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾(١) .

وقد يكون الكفر ناشئا عن النفاق كما سيأتى بيان ذلك فى الآيات الخاصة بالمنافقين . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ : الإنذار هو الإخبار المصحوب بالتخويف والوعيد ، قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾(٣) . وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾(٤) .

وهؤلاء الكافرون لا أمل يرجى منهم ، يستوى عندهم الإنذار وعدمه ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾(٥) . ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾(٦) . قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٧) . وقال جلّت قدرته : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾(٨) . وقال عزّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾(٩) . . ما جزاء هؤلاء الذين قالوا : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾(١٠) ، جزاؤهم الختم على القلوب والأسماع ، فقد أصبحت قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر . والختم هو الطبع الذى يحول دون وصول النور ، وذلك لكثرة ما اقترفوه من الذنوب التى تراكمت وتكاثرت حتى كوّنت طبقة عازلة كطبقة الشمع التى تحول بين المغناطيس وبرادة الحديد . قال ﷺ : (إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك هو الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾(١١))(١٢) ، فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف .

هؤلاء الكافرون قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين داعى الحق حجاب مستور . لذلك يندمون يوم الحشر لتعطيلهم تلك النعم التى أنعم الله بها عليهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو

(١) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٣) سورة غافر آية : ١٨ .
(٤) سورة ابراهيم آية : ٤٤ .
(٥) سورة فاطر آية : ٨ .
(٦) سورة نوح الآيات : ٥-٧ .
(٧) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٨) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٩) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .
(١٠) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .
(١١) سورة المطففين آية : ١٤ .
(١٢) مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٢٩٧ .

نعقل ماكنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾(١) . قال جلت حكمته : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٢) . أما في الآخرة فلهم عذاب عظيم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾(٣) . قال تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغساقاً * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شيء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾(٤) .

وينتقل بنا النظم الكريم من أصحاب القلوب الميتة ، وهم الكافرون ، إلى أصحاب القلوب المريضة ، وهم المنافقون ، فيذكر في شأنهم ثلاث عشرة آية . قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

---

(١) سورة الملك الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة النبأ الآيات : ٢١ ــ ٣٠ .

أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

النفاق مرض اجتماعى خطير ، وهو إظهار خلاف الباطن كإظهار الخير وإضمار الشر أو إظهار الإسلام وإضمار الكفر ، ومن ثمَّ فقد ورد فى شأنه ثلاث عشرة آية لأنه أشد من الكفر . . ومن صفات المنافقين ماورد فى قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾(١) . كذلك وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وقد نزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آياتِ الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾(٢) . ومن أوصافهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾(٣) . ومن أوصافهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾(٤) . ثم حكم الله على أهل هذه الأوصاف بقوله : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(٥) . ومع ذلك كله فإن رحمة الله لا تضيق بأحد فقد فتح باب التوبة لمن تاب فقال : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤ تى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾(٦) .

والنفاق قسمان : اعتقادى وعملى . أما الاعتقادى فهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام . قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾(٧) . وهذا نفاق يخرج عن الملة ويخلد فى النار .

أما النفاق العملى فهو انحراف فى السلوك : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر .

فهذه صور للنفاق السلوكى الذى لايخرج عن الملة وإنما تجب التوبة منه والتخلى عنه ويعلو بنفسه إلى مراقى الفلاح ، فإذا حدث صدق وإذا وعد أوفى وإذا أؤتمن أدى وإذا عاهد التزم وإذا خاصم عدل .

(١) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢) سورة النساء آية : ١٤٠ .
(٣) سورة النساء آية : ١٤١ .
(٤) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٥) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٦) سورة النساء آية : ١٤٦ .
(٧) سورة المنافقون آية : ١ .

وهذه الآيات التى ذكرناها من سورة البقرة تحدثنا عن النفاق الاعتقادى المخلد فى النار المخرج عن الملة . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ ثم عقب على قولهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وذلك لأنهم قالوها بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فخالفوا بذلك حقيقة الإيمان لأن الإيمان كما قال الصادق المعصوم : (ما وقر فى القلب وصدقه العمل) . إذن فماذا يريدون بهذا القول ؟ يريدون الخداع والمكر ، فمن يخادعون ؟ إنهم فى زعمهم الفاسد وتزيين الشيطان لهم يخادعون الله . والخداع إظهار ما لا يبطن المرء ونسوا أن الله تعالى يعلم ما فى الصدور : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾[1] . ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[3] .

الله يـدرى كـل مـا تـضـمـر يـعـلـم مـا تخـفـى ومـا تـظـهـر
وإن خـدعـت الـنـاس لم تـسـتـطع خـداع مـن يـطوى ومـن يـنـشـر

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ : فكيف يخدعون المؤمنين ؟ ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ . وقد حدد الله مواقفهم فى خمسة أشياء :

أولا : يقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ وحكم الله عليهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ . ثانيا : ﴿ يخادعون الله والـذين آمنوا ﴾ وقـد كشف الله زيفهم وضلالهم بقـوله : ﴿ ومـا يخدعـون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ . أنهم يخدعون أنفسهم فهم كـالنعامـة التى دفنت رأسها فى الـرمال وظنت أن الصيـاد لا يراها .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكـذوب يشـين حـرا يصحب
يـلقـاك يـقـسـم أنـه بـك واثـق وإذا تـوارى عنك فهـو العقـرب
يسقيك من طرف اللسـان حـلاوة ويـروغ منـك كـما يـروغ الثعلب

لماذا فعلوا هذا ؟ ابحث عن القلوب وفتش عن الصدور واقرأ قوله جل شأنه : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ والنفاق من أشد الأمراض . ولما كانوا كذلك زادهم الله مرضا على مرضهم ورجسا إلى رجسهم فى الدنيا ولهم عذاب أليم فى الآخرة بسبب كذبهم . وقد حذّر الرسول ﷺ من الكذب تحذيرا شديدا فقال : (وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[4] . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله . . . . . . وما عمل أهل النار ؟ قال : (الكذب ، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر ، دخل النار)[5] .

(١) سورة طه آية : ٧٠ .
(٢) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة غافر آية : ١٩ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .

الموقف الثالث : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ووجوه الإفساد كثيرة لا تحصى ومواقعه لا تستقصى .

وقد نهى الإسلام عن أشياء وجاءت الحكمة فى النهى عنها واضحة جلية ، فمن ذلك ما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾(١) . ثم فتح باب الأمل فى التوبة ونعت بالظلم من لم يتب فقال : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾(١) . فالسخرية بالناس فساد ولمز الناس وطعنهم فساد والإشراك بالله فساد والسحر فساد وقتل النفس التى حرم الله قتلها فساد . بل إن من أعان على قتل مسلم جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله . وأكل الربا فساد ، فقد لعن الله الربا وآكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه ، كذلك قذف المحصنات الغافلات المؤمنات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾(٢) ، ولقد وقع المنافقون فى هذا المستنقع العفن عندما رموا أم المؤمنين عائشة بما برأها الله منه من فوق سبع سموات والدنيا كلها تعلم علم اليقين أن عائشة أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة فى سمائها ، والمنافقون لما فشلوا فى ميادين الشرف وساحات القتال وانتصر الإسلام عليهم فى كل المواقع دفعتهم قيمهم الحقيرة ونفوسهم الصغيرة أن يتهاووا فى ميادين السب وقذف الأعراض ، وهو فساد دونه أى فساد ، كذلك شهادة الزور التى تجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا فتختل بسببها الموازين وتضيع الحقوق ، كذلك الاعتداء على الأعراض وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، بل إن حب إشاعتها يعتبر فى حد ذاته فسادا ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(٣) . وشرب الخمر فساد بل هى ملعونة ولعن الله شاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها بل إن الجلوس على مائدتها فيه مخالفة لطاعة الله ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب غليها الخمر . والميسر فساد بينه الله تعالى فى قوله : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(٤) . وأكل مال اليتيم فساد كذلك أوعد الله الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فقال : ﴿ إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾(٥) ، إذ أن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم . وقد بشر رسول الله كافل اليتيم بشرى تهتز لها القلوب فرحا ، وقد أشار بإصبعيه الشريفين وقال : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)(٦) . ومن أبشع أنواع الفساد : الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة ، والظلم هو الذى يدمر الأمم ويجتاحها وتزلزل الأرض تحت أقدامها . ولو أخذنا نحصى آيات القرآن فى تاريخ الأمم التى ظلمت فأبيدت لطال بنا الحديث ويكفينا هنا قول الله جل

(١) سورة الحجرات آية : ١١ .
(٢) سورة النور الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة النور آية : ١٩ .
(٢) سورة المائدة آية : ٩١ .
(٣) سورة النساء آية : ١٠ .
(٤) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٤١٦ .

شأنه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمةٍ فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٢] وقوله عز وجل : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٣] وقوله جل جلاله : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٤] وقوله سبحانه : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٥] وقوله عز وجل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون ﴾[٦] . إن الله جل جلاله حرم الظلم على نفسه ، وجعله محرما بين عباده . بل إن هناك امرأة دخلت النار فى ماذا ؟ فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا . سبحان الله . فى هرة عذبتها ؟ لك الأمر كله يارب يا أرحم الراحمين ، يا كاشف الضر عن البائسين ، يا من تعلم السر والنجوى هب لنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا واجعل معونتك العظمى لنا سندا . فالرحمة لا تنزع إلا من شقى . بل إن الإسلام يفتح باب الجنة أمام رجل مذنب لماذا ؟ لأنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش ، شكر الله له صنيعه فغفر له ذنبه . فالراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . يا أرحم الراحمين ويارب المستضعفين إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[٧] وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات ؟ .

أيها الناس : من لا يَرحم لا يُرحم ، وبالكيل الذى يكيل به للناس سيكال به عليه ، وبعد صفو الليالى يحدث الكدر .

يانائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يأتينَ أسحارا

البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان . اعجب معى لدين يفتح أبواب الجنة أمام رجل أسرف على نفسه فى الذنوب ولكنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش حتى جعل الصحابة يسألون صاحب الرسالة العصماء : أئن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : نعم ، فإن لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر ، ويفتح أبواب النار أمام امرأة عذبت هرة بالحبس حتى ماتت جوعا .

دين يشيد آية فى آية لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناء

فماذا كان رد المنافقين عندما يقال لهم ﴿ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ هكذا بأسلوب الحصر والقصر ، أى ما نحن إلا مصلحون . وهكذا أهل الضلال فى كل زمان ومكان يلقاك

(١) سورة الحج آية : ٤٥ .
(٢) سورة الحج آية : ٤٨ .
(٣) سورة الكهف آية : ٥٩ .
(٤) سورة القصص آية : ٥٩ .
(٥) سورة يونس آية : ١٣ .
(٦) سورة هود اية : ١١٧ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

أحدهم عناقا ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا ، ملك كريم فى مظهره شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ . سبحان الله ! إذا لم يكن هذا هو الفساد بعينه فماذا يكون الفساد ؟ وأى إصلاح يقصدون ؟ الفتنة ، إشاعة الإشاعة وترويجها ؟ الرشوة التى قال عنها الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : (لعن الله الراشى والمرتشى والرائش)[١] ، وهو الذى يأخذها من الراشى ويدفعها إلى المرتشى هذا أيضا شملته اللعنة . نعم أى إصلاح يريدون ؟ إيذاء المؤمنين وتعذيبهم وتحريض اليهود عليهم . ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ : السخرية بأهل التوحيد ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[٢] . أهذا هو الإصلاح ؟ كلا والله . إنه منطق النفاق والتضليل والإضلال والزور والبهتان والكذب والإفك والخسران ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد ﴾[٣] لكن شاءت حكمة الله ألا يترك هؤلاء المهاترين ومايقولون . هل هم مصلحون كما قالوا ؟ لا . إن حكم الله قاطع فى الصدق . فإذا قال وحكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ولا مبدل لكلماته . لقد حكم الله عليهم بقوله : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ . هكذا بالتقرير والتوكيد ، فعندما قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ بأسلوب القصر رد الله عليهم بما يناسب حالهم ومقالهم فجاء بأداة التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجاء بحرف التوكيد (إنّ) وجاء بضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وجاء بأداة التعريف (أل) كل هذا ليلقمهم الحجة ويفحمهم بالمنطق السديد الذى لا يدركه إلا كل ذى عقل رشيد ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ هم لا غيرهم ، فقد انحصر فيهم الفساد بكل أشكاله وألوانه وفى كل من لف لفهم وسار على دربهم واتخذه بطانة لهم : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾[٤] . قال تعالى : ﴿ ولكن لايشعرون ﴾ وهكذا الذين ينغمسون فى الفساد ، يفقدهم انغماسهم فى لججه العنيفة ودواماته المتغلغلة ، يفقدهم الإحساس ، والإحساس نعمة من نعم الله العظمى بحيث إنهم بانغماسهم أصبحوا لايشعرون بشىء إذا قيل لهم ﴿ لاتفسدوا فى الأرض ﴾ أجابوا بكل جرأة وتبجح ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ، وقد صدق الخليل بن أحمد إذ يقول : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لايدرى ولا يدرى أنه لايدرى فذلك مكابر فامقتوه . والمنافقون مكابرون معاندون ، إنهم فى كل مجتمع عالة فى السراء ، وسوس ينخر فى الأمة حالة الضراء . فما أشقى مجتمعا إذا قيل للمفسدين فيه لاتفسدوا قالوا إنما نحن مصلحون ، وما أتعس أمة أصبح الحق فيها باطلا والباطل حقا والمعروف فيها منكرا والمنكر فيها معروفا ، وما أيأس شعبا أصبح الذئب فيه

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .
(٢) سورة المطففين الآيات : ٢٩ ــ ٣٢ .
(٣) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ ، ٢٠٦ .
(٤) سورة الفرقان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

راعيا والخصم العنيد قاضيا يُخَوَّنَ فيه الأمين ويؤتمن فيه الخؤون ويصدق فيه الكذوب ويكذب فيه الصدوق ويصبح اللئام أسعد الناس فيه .

الموقف الرابع : والموقف الرابع من مواقف المنافقين يقول فيه تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ : ذلك داهية الدواهى وثالثة الأثافى . كيف انقلبت حقائق الأشياء والعقلاء فى كل عصر ومصر مجمعون على أن حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾[1] . ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[2] . سبحان الله . كيف صار الإيمان عند هؤلاء سفها وخفة عقل،والإيمان فى حقيقته العقل كله والفكر الرشيد والمنطق السديد ؟ أليس الإيمان هو التصديق القلبى بوحدانية الله ووصفه تعالى بما وصف به ذاته من صفات الكمال والجلال والجمال والأسماء والصفات ؟ أليس الإيمان تصديقا بكتب الله ورسله وملائكته وقدره والبعث بعد الموت ؟ أليس الإيمان كما أخبر عنه الصادق المعصوم فى قوله : (ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ؟)[3] .

أى سفه فى كل من أقر بأن لهذا الكون خالقاً مدبرا يتصرف فيه بحكمته ومشيئته وأى سفه فى مكارم الأخلاق ؟ وقد قال نبى الإسلام : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[4]، وأى سفه فيمن آمن بأن كل شىء بقضاء وبقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ﴾[5] . ليس هذا هو السفه إنما السفه غير هذا ، وأى سفه فيمن آمن بأن بعد الموت بعثا ونشورا : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[6] . وكان المسيح عليه السلام يقول : يابنى إسرائيل لاتأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا لباس الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله . ألست معى أن النفس تشعر بأليم المرارة عندما ترى الأمر بالإيمان يقابل بقولهم ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ؟ نعم إنها المرارة بعينها .

إذا وصف الطائى بالبخل مادر ... وعير قسًا بالسفاهة باقل
وقال السها للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة مريرة ... ويانفس جدى إن دهرك هازل

أيُرمى المؤمنون بالسفه وهم أعقل العقلاء وأفضل الناس على وجه البسيطة ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾[7] . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون

(١) سورة الحج آية : ٣
(٢) سورة الحج الآيات : ٨ ـ ١٠ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ط دار الفكر .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ص ٣٩٥ ط دار الفكر .
(٥) سورة التوبة آية : ٥١ .
(٦) سورة النجم آية : ٢١ .
(٧) سورة الجن آية : ١٤ .

بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] . أرأيت أضـل من الأنعام ؟ إنهم هؤلاء الذين رموا المؤمنين بالسفه أضل من الأنعام لأنك لو سألت الأنعام من خلقها لأجابت بلسان الحال أنا مخلوقة للواحد الديان ، أما هؤلاء الأناس الذين عطلوا حواسهم فأصبحوا لا يعقلون بالقلوب ولا يفقهون بها ولا يبصرون بالأعين ولا يسمعون بالآذان أضل من الأنعام ، لأن وحدانية الله مركوزة فى طباع العجماوات وفطر الصبيان ، شهد له العالم كله بأنه الواحد من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبـر والبحر فيض من عـطاياه
الـطير سبّحـه والـوحش مجّـده والمـوج كبـره والحـوت نـاجـاه
والنمل تحت الصخور الصم قدّسه والنحـل يهتف حمدا فى خـلايـاه
والنـاس يعصونـه جهـرا فيسترهم والعبـد ينسى وربى ليس ينسـاه

أنيس مما تنخلع له الأفئدة وتسيل من هوله الكبد مرارة أن يوصف المؤمنون بأنهم سفهاء ؟ ولكن إذا عرف السبب بطل العجب .

وإذا أتـتـك مسبتى من نـاقص فـهى الشهـادة لى بـأنى كـامـل

أيها المؤمنون : لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ومـا ضـر الـورود ومـا عـليهـا إذا المـزكـوم لم يـطعم شـذاهـا

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

مـا يضـر البحـرَ أمسى زاخـرا أنْ رمـى فيـه غـلام بـحـجـر

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ومـن يـكـن ذا فـم مـر مـريض يجـد مـرا بـه المـاء الـزلالا

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكـر الفم طعم المـاء من سقم

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

وتمثلوا قوله تعالى دائما ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[2] .

يخـاطبنى السفيـه بكـل قـبـح وآبى أن أكـون لـه مجـيـبـا
يـزيـد سـفـاهـة وأزيـد حلما كـعـود زاده الإحـراق طـيـبـا

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٢) سورة الفرقان آية : ٦٣ .

ليس الحكم لهؤلاء السفهاء خفاف العقول سخاف الأحلام ، إنما الحكم ما حكم به الواحد القهار ، إذ يقول تعقيبا على ما قالوه : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ وأنت هنا ترى بثاقب فكرك وصائب رأيك أن تلك الجملة قد أكدت عدة توكيدات : فقد افتتحت بأداة التنبيه (ألا) وأكدت (بإنّ) وضمير الفصل (هم) وأداة التعريف (أل) لتؤكد حصر السفه والسخف فيهم وحدهم ومن لف لفهم وسار على دربهم ، وإنما عبر فى الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وفى هذه الآية بقوله جل شأنه ﴿ ولكن لايعلمون ﴾، لأن الآية السابقة كان فيها نهى عن الفساد ؛ والفساد كثيرا مايكون حسيا والشعور إلى الحس أقرب ، أما هذه الآية ففيها أمر بالإيمان، والإيمان تصديق قلبى ، فهو إلى العلم أقرب ، فكان كل من الختامين مناسبا تمام المناسبة لما جاء فى الآيتين .

الموقف الخامس : ويتمثل فى قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

وهذه حال أخرى تبين لنا بيانا كافيا أحوال هؤلاء المارقين المعاندين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾[1] .

ونعتهم الله جل جلاله بقوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[2] . فقولهم للمؤمنين إنا معكم كذب، لأنهم قالوها بألسنتهم ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم . والإيمان تصديق بالقلب ، أما إذا خلوا بشياطين الإنس وما أكثرهم وما أشد خطرهم من أهل الطغيان والفسوق والعصيان وقولهم لهم إنا معكم فهم معهم فى فساد قلوب الجميع ، ولكن ليسوا معهم فى الشدائد إذا نزلت بهم ، لأنهم مذبذبون لا يثبتون على رأى ولا يستقرون على مبدأ ، إنهم الآكلون على كل الموائد المتشدقون بكل الأحاديث ، لا خير فيهم فاحذرهم أن يفتنوك ، واحذرهم أن يضلوك ، واحذرهم أن يصحبوك .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا	إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق	وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة	ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ودع المنافقين الدجالين الذين لايعرفون إلا منافعهم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إن كان فى جيبك قرش فأنت تساوى عندهم قرشا وإن كان معك جنيه فأنت تساوى عندهم جنيها ، وإن لم يكن معك شىء فأنت لا تساوى عندهم شيئا .

(١) سورة النساء آية : ١٤١ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .

إذا قـل مـالى فلا خـل يصـاحبنى ... وفى الـزيـادة كـل النـاس خـلانى
كم من عـدو لأجـل المـال صـادقنى ... وكـم من صـديق لفقر المـال عـادانى

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[1] . لأنهم لم يكونوا فى الدنيا نصراء فى الحق ولا أولياء لأهل الإيمان إنما كانوا كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[2] .

احذر أن تصاحب هؤلاء ، وقف عند قوله تعالى فى وصف المؤمنين متدبرا متفكرا : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[3] . هذا هو المجتمع الفاضل والأمة الطيبة ، بعضهم أولياء بعض ، ولاية نصرة ومحبة ومودة ورحمة .

إن أخـاك الحق من كـان مـعـك ... ومـن يضـر نـفـسـه لـيـنـفـعـك
ومن إذا ريب الـزمـان صـدعـك ... شتت فـيـك شمله ليجمـعـك

ثم تأمل معى الأعيب هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ ، وكلمة خلوا هنا لها معناها ، فإنهم يخافون من النور ويخشون الضوء ، إنهم كالخفافيش التى عميت أبصارها عن رؤية الشمس فى وضح النهار ، فهم دائما فى خلواتهم وفى ظلماتهم يراوغون ويخادعون . ثم تأمل التعبير القرآنى الحكيم عن أهل الشر والفساد بأنهم شياطين ، بل إن شياطين الإنس شر من شياطين الجن بدليل قوله جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾[4] . اتبعه الشيطان بمعنى أن الإنس صار متبوعا والجن أصبح تابعا ، ولذا لم يقل تعالى : فتبع الشيطان . رأى الحسن البصرى رضى الله عنه إبليس ذات ليلة فى المنام فسأله : كيف حالك اليوم مع الناس ؟ قال له إبليس : بالأمس كنت أعلّم الناس طرق الضلال واليوم أصبحت أتعلم منهم طرق الضلال . ولذا يقول القائل :

وكنت امرأً من جند إبليس فـارتقى ... بى الحال حتى صار إبليس من جندى

قولهم ﴿ إنما نحن مستهزءون ﴾ أى مستهزءون بالمؤمنين إذا قلنا لهم آمنا فإنما ذلك سخرية بهم ، فبماذا رد عليهم أصدق القائلين ؟ قال تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ وهذا حكم من الله جل شأنه ، ويستهزىء بهم بمعنى يجازيهم على استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين ويعاقبهم على ذلك ، فالجزاء من جنس العمل ، فيوم القيامة تتبدل الحال غير الحال ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ﴾[5] ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى

(١) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٢) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٧٥ .
(٥) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

من تحتهم الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[1] .

فتأمل معى موقف هؤلاء المنافقين فى الدنيا من المؤمنين وكيف استهزءوا بهم وسخروا منهم ؟ ثم تأمل حال المؤمنين من المنافقين فى الآخرة وكيف طلب المنافقون منهم أن ينتظروهم ليمشوا فى نورهم وكيف كان رد المؤمنين عليهم ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾[2] . أى ارجعوا إلى الدنيا واعملوا صالحا فإن العمل الصالح يكون نورا فى الآخرة وهم يعلمون أن الرجوع إلى الدنيا محال،ولكنها كلمة تنخلع لها الأفئدة وتنفطر لها الأكباد ، إنه الجزاء من جنس العمل. وقوله جل شأنه : ﴿ يمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان هو تجاوز الحد و ﴿ يعمهون ﴾ بمعنى يترددون ويتحيرون، والله جل جلاله يمهلهم ويمدهم ويملى لهم ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[3] ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾[4] . ﴿ ولايحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[5] . وجلت حكمة الله ، فإنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[6] .

لا تـظلمن إذا مـاكنـت مقـتـدرا ... فـالظلم تـرجـع عقبـاه إلى النـدم
تنـام عينـاك والمـظلوم منتبـه ... يـدعـو عليـك وعـين الله لم تنم

قوله تعالى : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين﴾ . هذه الآية الكريمة بمثابة الحكم بعد بيان الحيثيات ، وقد سبق تبيانها فى خمسة أشياء : ﴿ ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ﴾ ثم ثانيا : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون ﴾ ثم ثالثا : ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ثم رابعا : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ خامسا : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ كل هذه الحيثيات أدت إلى حكم الله فيهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ فليس البيع والشراء فى السلع خاصة إنما هو أيضا فيمن ترك شيئا مقابل شىء آخر فهؤلاء تركوا الهدى واشتروا الضلالة ، تركوا الهدى وهو أجل نعمة ينعم الله بها على عبده ، ألسنا نقرأ فى سورة الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ولو كان هناك ماهو أفضل من الهدى لأمرنا الله فى

(١) سورة الحديد الآيات : ١٢ ــ ١٥ .
(٢) سورة الحديد آية : ١٣ .
(٣) سورة القلم الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة مريم آية : ٨٤ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٧٨ .
(٦) سورة هود آية : ١٠٢ .

سورة الفاتحة أن ندعو به ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾[١] ، فما أعظمها من نعمة إذا جلت فى قلب العبد ، وما أجلها من هبة يهبها الله لعبده ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[٢] . مثل هذه التجارة التى وقع فيها المنافقون تجارة خاسرة وسوقها كاسدة ومن وقع فى مثل هذه التجارة فقد سلب نعمة الهداية ، وشتان بين السحاب والتراب ، ثم شتان بين مسابح الأسماك ومدارج الأفلاك ، شتان بين هذه السوق الخاسرة وبين سوق المؤمنين الرابحة فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنـه غفور شكور ﴾[٣] ، وهكذا صدرت الأحكام من الحاكم الأعلى فى محكمة العدل الإلٓهية الكبرى ﴿ فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤] . نعم صدرت الأحكام بعـد بيان حيثياتها : فريق المؤمنين حكم الله لهم بقوله : ﴿ أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، لماذا ؟ لأنهم متقون مؤمنون بالغيب مقيمون للصلاة منفقون مما رزقهم الله ، مؤمنون بما أنزل على النبى وبما أنزلَ من قبله ، موقنون بالآخرة ، وعلى الفريق الثانى ، وهم الكافرون ، حكم الله بقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ لماذا ؟ لأن قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وبينهم وبين الحق حجاب مستور ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ، وعلى الفريق الثالث حكم الله بقوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ وذلك بعد بيان الحيثيات التى سبق ذكرها . ثم ضرب الله تعالى مثلين للمنافقين ، وللأمثال وظيفة بعيدة الأثر فى البيان والوضوح حتى يخيل لك أن الأمر المعقول أصبح بعد ضرب المثل ملموسا تتحسسه الأنامل وملحوظا تبصره العيون شحما ولحما ، قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون * صم بكم عمى فهم لايرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهمْ وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾ . .

المَثل والمِثْل والمثيل كالشبه والشِّبْه والشبيه وزنا ومعنى ، ثم استعمل فى بيان حال الشىء وصفته التى توضحه وتبين حاله كقوله : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾[٥] الآية . وقوله ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾[٦] . واستوقد النار : طلب وقودها ، أى سطوعها وارتفاع لهيبها بفعله أو فعل غيره ، ويقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءته النار ، أى أظهرته بضوئها ، وترك : أى صير ، والصمم : آفة تمنع السماع . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يُبصر ، الصيّب : المطر يصُوب وينزل من الصوب وهو النزول ، والرعد : هو الصوت الذى يُسْمع فى السحاب أحيانا عند تجمعه ، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب

(١) سورة الأنعام آية : ٧١ .
(٢) سورة الكهف آية : ١٧ .
(٣) سورة فاطر الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .
(٤) سورة الأنبياء اية : ٤٧ .
(٥) سورة الرعد آية : ٣٥ .
(٦) سورة النحل آية : ٦٠ .

غالبا ، وربما لمع فى الأفق حيث لا سحاب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد كهربية السحاب الموجبة بالسالبة [illegible] تقرر ذلك فى علم الطبيعيات . والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الكهربية التى فى السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والإحاطة بالشىء : الإحداق به من جميع جهاته ، والخطف : الأخذ بسرعة . قاموا : أى وقفوا فى أماكنهم منتظرين تغير الحال ليصلوا إلى المقصد أو يلجأوا إلى ملجأ يعصمهم من الخطر .

الإيمان والكفر والنفاق كلها من أعمال القلوب . والقلوب قد أخبر عنها الصادق المعصوم فى قوله : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه) .

والمؤمنون قسمان : السابقون ، وأصحاب اليمين ، كما ورد ذلك فى سورة الواقعة . والكافرون قسمان : دعاة ، ومقلدون ، وقد جاء ذلك فى سورة النور . قال تعالى فى شأن دعاة الكفر : ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾[١] . وقال فى شأن المقلدين : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٢] .

والمنافقون قسمان : منافقون خلص ، ومنافقون أتباع . وقد ضرب الله تعالى لكل من الفريقين مثلا للإيضاح والبيان حتى يصير المعقول كأنه محسوس مجسد . فضرب للفريق الأول مثلا ناريا ، وضرب للثانى مثلا مائيا ، وبين النار والماء دارت أحوالهم وتحددت شخصياتهم ووضحت معالمهم . فمثل الفريق الأول (أى حالهم) كحال من استوقد نارا ، وأضاءت النار ماحوله وأصبح المكان الذى هو فيه مشرقا بالضياء ، ولكنه لم يستفد بهذا الضوء ولم يهتد به فى سلوك الطريق ، ولما كان ذلك كذلك ذهب الله بنور هذه النار وترك النار على الحرارة والدخان ، فأصبح هؤلاء لايبصرون لأنهم فى ظلمات داكنة وليل أليل بهيم ، فمثل هؤلاء القوم منطبق عليهم ، فقد رأوا الهدى بأعينهم ورأوا الطريق ببصرهم ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الهدى ، فلم يؤمنوا بنبى الهدى ولا الكتاب المنزل عليهم ، بل عاشوا وقلوبهم فى أكنة وأعينهم فى غشاوة وفى آذانهم وقر وبينهم وبين الهدى حجاب مستور ، ولذلك لما عطلوا نوافذ المعرفة نعتهم الله تعالى بقوله : ﴿ **صم بكم عمى فهم لايرجعون** ﴾ . صم لايسمعون ، بكم لايتكلمون ، عمى لايبصرون . فيترتب على كل هذا أنهم لايرجعون إلى الهدى ، أى فهم لايهتدون ، لأنهم عطلوا نعما جعلها الله وسائل للمعرفة ، فهم فى غيهم يترددون وفى طغيانهم يعمهون .

---

(١) سورة النور آية : ٣٩ . (٢) سورة النور آية : ٤٠ .

أما المثل الثانى ، وهو المثل المائى ، الذى جاء تعبيرا عن الأتباع المقلدين من المنافقين ، فإن أى كاتب لو أعطى سحر البيان الذى تخر له العمالقة،ومنح ريشة أدق من ميزان الذهب ما استطاع بفكره وعبقريته أن يعطينا صورة تعبر مثل هذا التعبير الدقيق : إنهم قوم يعيشون فى حيرة يصير الحليم فيها حيران ﴿ أو كصيِّب من السماء﴾ ، والصيب هو المطر الغزير،وكأن السماء تحولت إلى أفواه القرب ومن السماء بالذات ليعطى المعنى قوة دافعة لايستطيع أحد ردها بحكم ما أودعه الله فى الكون من قانون الجاذبية . هذا الوابل الصيِّب فيه ظلمات : ظلمة الليل والسحاب والمطر يتخلل هذا الصيِّب رعد وبرق ، فالرعد قاصف لأنه صوت احتكاك الهواء والبرق خاطف فى لمعانه ، والصواعق مـدمرة . هؤلاء الحـائرون المتـرددون من المنافقـين يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، وإنما جاء التعبير بالأصابع مع أن المقصود بها الأنامل من باب المجاز المرسل من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء مبالغة فى سد الآذان ، يفعلون ذلك حذر الموت ، ولو عرفوا الحقيقة لعلموا أن الله محيط بهم ، فكل شىء قائم به وكل شىء خاشع له،من عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه ومن تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ولو آمنوا واتقوا لعلموا أن الله قوة كل ضعيف وعز كل ذليل وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، هو الجناب الأعلى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه ، ولكن هؤلاء الحائرين فى قلوبهم مرض جعلهم مذبذبين كأن كل واحد منهم خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ من شدة لمعانه وزيغ أبصارهم . إنهم مترددون ﴿ كلما أضاء لهم ﴾ البرق ﴿ مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ أى وقفوا فى مكانهم . وهكذا حالهم ، رأوا نور الإيمان فمشوا فيه ، فلما خلوا بشياطينهم قالوا : ﴿ إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ . وهكذا عاشوا حياتهم فى قلق وفزع وهلع ، عاشوا فى ظلمات لايبصرون ظلمة الشرك وظلمة النفاق ، وظلمة الريبة ، وعاشوا فى فزع كما قال تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾[١] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾[٢] .
وأى خوف أشد وأى فزع أشنع من قوم عاشوا فى هذا الجو المكفهر : مطر غزير وبرق خاطف ورعد قاصف وظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها ، وصواعق محرقة ، وهم فى ذلك فى حيرة حائرة ، إذا أضاء لهم البرق مشوا ولكن سرعان مايخبو ضوؤه فيصير الجو ظلمة داكنة فيقفون تكاد أقدامهم تغوص فى أعماق الأرض ، لو كان فى قلوب هؤلاء نور يهديهم إلى الصراط المستقيم لعلموا أن الأمر لله فلا يمنعهم من قضاء الله أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت . فالله جلت قدرته لو شاء ﴿ لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ وهما الحاستان اللتان تتصدران وسائل المعرفة . قال جل شأنه : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٣] . نعم إن الله على كل شىء قدير ، فمشيئة الله صالحة لكل ما أراد الله وقدرة الله صالحة لإنجاز ماشاء الله ﴿ فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم ﴾[٤] . وهكذا جاء المثلان النارى والمائى منطبقين تمام الانطباق على أجناس المنافقين .

(١) سورة المنافقون آية : ٤ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) سورة النحل آية : ٧٨ .
(٤) سورة الانشقاق الآيات : ٢٠ ــ ٢٤ .

هذه جولة استعرض القرآن فيها أحوال المنافقين وخطرهم على المجتمع وكيف صيرهم النفاق إلى صم بكم عمى ، فما أتعس المجتمع الذى يعشش المنافقون فى جنباته ، وما أيأس الأمة التى يتحرك النفاق فى قلوب أبنائها ، إنهم عالة على الأمم فى حال السراء ، وسوس ينخر فى عظامها فى حال الضراء . وقد حذر الصادق المعصوم ﷺ فى أقواله من النفاق وقال فى ذلك :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمته فعرفها قال:فما عملت فيها ؟ قال:قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلّم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال:تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال:كذبت ولكنك تعلمت ليُقال عالم ، وقرأت القرآن ليُقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها . قال:فما عملت فيها ؟ قال:ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال: كذبت ولكنك فعلت ليُقال هو جواد فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار)[١] .

وعنه رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يخرج فى آخر الـزمان رجـال يختِلون الدنيـا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عزّ وجلّ : أبى يغتـرون أم علىّ يجتـرئون ؟ فبى حلفت لأبعثنّ عـلى أولئك ، منهم فتنـة تدع الحليم حيران)[٢] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رجل : يارسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يُرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٣] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (من رايا بشىء فى الـدنيا من عمله ، وكله الله إليـه يوم القيامة ، وقال : انظر هل يغنى عنك شيئا ؟)[٤] .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من تزيّن بعمل الآخرة وهو لايريدها ولا يطلبها لُعن فى السماوات والأرض)[٥] .

وروى عن الجارود قال : قال رسول الله ﷺ : (من طلب الدنيا بعمل الآخرة طُمس وجهه ، ومُحِق ذكره ، وأثبت اسمه فى النار)[٦] .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ١ ص ٢٩ .
(٤) المصدر السابق جـ١ ص ٢٩ .
(٥) المصدر السابق جـ١ ص ٢٩ .
(٦) المصدر السابق جـ١ ص ٢٩ .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تحبب إلى الناس بما يحبون وبارز الله بما يكرهون لقى الله وهو عليه غضبان)[١] .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بالله من جُبِّ الحُزن . قالوا يارسول الله وما جُبُّ الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة . قيل:يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله عزَّ وجلَّ الذين يزورون الأمراء)[٢]

ورواه أيضا عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (إن فى جهنم لواديا تستعيذ جهنم من ذلك الوادى فى كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد ﷺ : لحامل كتاب الله ، والمتصدق فى غيرذات الله ، والحاج إلى بيت الله ، وللخارج فى سبيل الله)[٣] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربَّه تبارك وتعالى)[٤] .

وعن محمود بن لبيد قال : خرج النبى ﷺ فقال : (يا أيها الناس إيَّاكم وشرك السرائر . قالوا:يارسول الله وما شرك السرائر ؟ قال:يقوم الرجل فيصلى فيزيِّن صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه ، فذلك شرك السرائر)[٥] .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج إلى المسجد ، فوجد معاذا عند قبر رسول الله ﷺ يبكى ، فقال:مايبكيك ؟ قال:حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : (اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة : إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة)[٦] .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عزَّ وجلَّ إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)[٧] .

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة ، وكان من الصحابة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ــ ليوم لا ريب فيه ــ نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)[٨] .

وروى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ،

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص٣٠ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ ، ٣٢
(٧) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢ .
(٨) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢ ط وزارة الأوقاف .

حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها ، وما أعد الله لأهلها فيها ، نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة مارجع الأولون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، قال : ذاك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس بخلاف ماتعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى ـ اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب)[١] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا كان آخر الزمان صارت أمتى ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصا ، وفرقة يعبدون الله رياء ، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس ، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذى يستأكل الناس : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ فيقول : وعزتك وجلالك أستأكل به الناس ، قال : لم ينفعك ما جمعت انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذى كان يعبده رياء : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزتك وجلالك رياء الناس ، قال : لم يصعد إلىّ منه شىء ، انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذى كان يعبده خالصا : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به أردت ذكرك ووجهك ؟ قال : صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة)[٢] .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدى الله تعالى ، فيقول تبارك وتعالى : ألقوا هذه واقبلوا هذه ، فتقول الملائكة : وعزتك وجلالك مارأينا إلا خيرا ، فيقول الله عز وجل : إن هذا كان لغير وجهى وإنى لا أقبل إلا ما ابتغى به وجهى)[٣] .

نداء إلهى كريم

لما بين سبحانه وتعالى مواقف الناس من العقيدة وذكر المؤمنين وثنّى بذكر الكافرين ، ثم بين لنا مواقف المنافقين ، لما كان ذلك كذلك:وجه الإله الكريم نداء عاما إلى البشرية جمعاء أمرهم فيه بعبادته وحده فقال سبحانه وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ١ ص ٣٥ ط زارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦ .   (٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦ .

العبادة : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود ، والرب : هو الذى يسوس من يربيه ويدبر شئونه ، والفراش : واحد الفُرُش ، وفرش الشىء يفرشه بالضم فراشا : بسطه ، والبناء : وضع شىء على شىء آخر بحيث يتكون من ذلك شىء بصورة خاصة ، والنِّدُّ : الشريك والكفء ، يقال فلان ند فلان إذا كان مماثلاً له فى بعض الشئون . العلم بوحدانية الله مركوز فى طباع المخلوقات ، فقد فطروا على التوحيد (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1] . والتوحيد هو إفراد المعبود سبحانه وتعالى بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالا ، ولابد للموحد أن يعتقد بتوحيد الإلوهية والربوبية وذلك بأن يعبد الله وحده ، مع اعتقاده أنه الخلاق الرزاق الذى سخر ما فى السموات وما فى الأرض طوع إرادته ومشيئته ، ولذا لما أمر الله الناس بعبادته وحده نصب الأدلة الناطقة بأنه الواحد وذلك فى الآفاق والأنفس ، قال جل جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾[2] ، ومن هذه الأدلة أنه الخالق فأى خالق سواه ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[3] . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[4] .

بنظرة فاحصة فى قوله تعالى ﴿ لاتعلمون شيئا ﴾ تفيد نفى العلم بالكلية ، إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ولنقابل هذا بالشكر ، والشكر لله أن تسخر نعم الله فى طاعته وألا تستعملها فى معصيته ، قال موسى عليه السلام لربه : « يارب كيف أشكرك ؟ قال له : ياموسى تذكرنى ولا تنسانى إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[5] . وقد مَرَّ أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلاً : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له الرجل : فمن أى شىء عافاك ؟ قال له : وهب لى قلباً ذاكرا ولساناً شاكراً ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف

وقد أقام القرآن من الأدلة على وحدانية الخالق ما تعنو له الوجوه خشوعاً وتخشع له الأصوات خضوعاً ، وخلق الإنسان منذ كان نطفة وإيجاده من العدم دليل ملموس محسوس على وحدانية الخالق الذى أتقن كل شىء ، وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على وحدانية الخالق وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق الرسول الكريم فى رسالته .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٢٨٧ ط دار الفكر .
(٢) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ــ ٢٣ .
(٤) سورة النحل آية : ٧٨ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

إن الأطوار التى يمر الإنسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(١) . فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾(٢) . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم . ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين ونصف من السنتيمترات . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم ﴿ قرار مكين ﴾ حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾(٣) . هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا . بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾(٤) .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق(٥) ﴾ ؟ مم خلقنا ؟ من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لايزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم نصف مليمتر فى الثانية الواحدة . اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان . فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟ كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الأرحام خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية . فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق دقيق ؟ ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج أمر الرحم أن تتقلص عضلاته حيث أصبح الإنسان ضيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق . والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾(٦) . فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ . يقول عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٧) .

وبعدما أقام الدليل على الوحدانية بآية الخلق ، بين الغرض السامى والهدف الأعلى المترتب على عبادته وحده فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ولعل هنا تفيد الغاية والتعليل ، أى لتتقوا ولا تفيد الترجى ، لأن الترجى توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع فيه جهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ، إذاً فلتأت هذه الكلمة بمعنى يليق بذات الله فيكون معناها الحكمة والغرض . والتقوى هى السلاح الأقوى ، فمن عرف الله اتقاه ومن اتقى الله خافه ومن خاف الله أطاعه ومن أطاع الله اجتنب النواهى وامتثـل الأوامر ، ومن كان كذلك

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ــ ١٤ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٦ .
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ــ ٢٣ .
(٤) سورة الزمر آية : ٦ .
(٥) سورة الطارق آية : ٥ .
(٦) سورة عبس الآيات : ١٨ ــ ٢٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٧٨ .

فقد انخرط فى سلك المقربين الذين قال فيهم جل شأنه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾[١] . والتقوى كما قال الإمام على رضى الله عنه : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وينتقل بنا النظم الكريم من آية الخلق إلى آية أخرى ، هى خلق الأرض وكيف شملتها العناية الإلهية بكل رعاية فجعلتها مهيأة للعيش عليها كما جعلتها صالحة للحياة فوقها ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٢] . قال جل شأنه ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ أى ممهدة مبسوطة وهو قوله جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجا ﴾[٣] . وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[٤] . وقوله جل شأنه : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾[٥] . وقال عز وجل : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٦] . وفى هذه الآيات دعوة إلى كل عاقل أن يأخذ منها درساً وعبرة ، فيكون كالإبل فى الصبر وقوة التحمل ، ويكون كالسماء عزة وكرامة ، ويكون كالجبال رسوخاً وشموخاً ، ويكون كالأرض تواضعاً وكرماً .

أتدرى ماذا تقول الحقائق العلمية عن هذه الأرض ؟ .

يقول الدكتور فرانك الين فى بيان حكمة الله الرائعة والبديعة فى خلق الأرض على ماهى عليه : لو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت . أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ماهى عليه وانخفض تبعا لذلك ارتفاع غلافها الهوائى وزاد الضغط الجوى من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة على سطح الأرض . ولوكانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها مائة وخمسين ضعفاً ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى إلى أربعة أميال بدلا من خمسمائة ميل ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولارتفع الضغط الجوى إلى مايزيد على مائة وخمسين كيلو جراما على السنتيمتر المربع ، ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حالياً

(١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة طه آية :٥٥ .
(٣) سورة نوح الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .
(٤) سورة الملك آية : ١٥ .
(٥) سورة النبأ آية : ٦ .
(٦) سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .

رطلاً واحداً إلى مائة وخمسين رطلاً ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار فى حجم ابن عرس أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها فى مدارها تهيىء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها فى صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذى نشاهده اليوم فى حياتنا . سبحان القائل : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾(١) .

إن ما ساقه العلم من حقائق دليل على العناية والإتقان لا يقوى عليه إلا بارىء السموات والأرض . فاسألوا الدنيا بأسرها من الذى أوجد الأرض على هذا الوجه المتقن : هل الطبيعة الصماء ؟ هل الصدفة العمياء ؟ . كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

يقول الدكتور كريس موريسون : « والكرة الأرضية تدور حول الشمس بسرعة معدلها ثمانية عشر ميلاً فى الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً ستة أميال أو أربعين ميلاً فى الثانية ، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا . ثم إن الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ، ولهذا دواع دعت إليه ، فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان فى حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوباً مكدساً فى طريقه قارات من الجليد ، وربما ترك صحراء عند خط الاستواء من الملح ، وفى هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح لتكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج ، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض ويقلل هطول المطر فى كافة أرجاء العالم بما ينتج عن ذلك من عواقب مخيفة . ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلا بدلاً من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفى هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذى فى الهواء يحدث أعاصير كل يوم» . ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(٢) .

وينتقل بنا النظم الكريم من الأرض إلى السماء فيقول جل شأنه : ﴿ والسماء بناءً ﴾ وإنما قدم الحديث عن الأرض على الحديث عن السماء لأن الأرض أمنا التى نحيا بين أحضانها ونتغذى بألبانها ونتنشق هواءها ونشرب ماءها ، وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾(٣) ، وإنما جعلت السماء بناء ، أى فى إتقان نجومها وكواكبها وما أودع الله فيها

(١) سورة طه الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة لقمان آية : ١١ .
(٣) سورة فصلت آية : ١٠ .

من سدم ونيازك ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾(١) . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾(٢) ، يفسر هذه الآية قوله جل شأنه : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون ﴾(٣) . فالمملكة النباتية التى تتركب من الخلايا فيها الذكر والأنثى ، والمملكة الحيوانية كذلك فيها الذكر والأنثى ، وعالم الجماد يتركب من الذرات والذرة فيها السالب والموجب فكل المخلوقات كما أخبر الخالق ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين﴾(٤) . أما الذى لا يوصف بالزوجية فهو الله الأحد الفرد الصمد الذى ﴿ لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٥) . إذا كان ذلك كذلك ففروا إلى الله ، فإنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، ورضى كل يؤوس . من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وسبحان من أقسم قائلاً : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾(٦) وسبحان من أرشد خلقه إلى النظر فى عالم السماء بإتقان وفكر ثاقب فقال : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾(٧) .

فأنصت معى إلى لسان العلم يحدثك حديث الدارس الواعى عن عالم الفلك . يقول الدكتور سيسل هامان : إذا رفعنا أعيننا نحو السماء فلابد أن يستولى علينا العجب من كثرة مانشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها والتى تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون . إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا أن نوحد خالق هذا النظام البديع .

إن عالم الفلك عالم عجيب نطق بعظمته وبروعته قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(٨) .

إن فى لفظ التسخير ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله ، وفى قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ إشارة عجيبة ، فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم ومايحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والابداع . فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق

(١) سورة النمل آية : ٨٨ .
(٢) سورة الذاريات الآيات : ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) سورة ياسين آية : ٣٦ .
(٤) سورة الذاريات آية : ٤٩ .
(٥) سورة الاخلاص الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٦) سورة الذاريات الآية : ٧ .
(٧) سورة الملك الآيات : ٣ ـ ٥ .
(٨) سورة النحل آية : ١٢ .

بها كلماته ؟ وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العالم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ماوصل إليه هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العالم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل ، ففى كل مرة يصل العالم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رصدًا إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة وما زال العالم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد . ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير جيمس جينز فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريبًا من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله » ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ستين نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله» . ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساوٍ تقريبًا لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات كل يوم فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لوكنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التى نعيش عليها فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ، وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته ، فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ماعرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب كما للشمس فقط فياترى كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم » .

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود . فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً فى كل يوم ٢٤ ساعة وفى كل ساعة ستون دقيقة وفى الدقيقة ستون ثانية لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر مارصد من السدم وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية . فمتى بدأ فى حركته ومتى يقف وإلى أين ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام الوحدات فى بداية الكون . فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها . وأمر هذا الوجود ليس عجيبًا فى عدد النجوم والكواكب

والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم ، إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم والتى يرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تخمد لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة لكان يكفى ملايين السنين التى مرت منذ القدم أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ثم بالانفجار الأيدروجينى فى تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها . ومازال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة وهو : كيف لاتفنى كتلة النجم إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ؟ سبحانك ربى يا من قلت ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

يـامن يحـار الفـهم فى قـدرتـك وتـطلب الـنفس حمى طـاعتـك
تخفى عـلى النـاس سنا طلعتـك وكـل مـا فى الكـون من صنعتك

يامبدع الكائنات يامن كل فعلك حكمة بالغة يامن قلت وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[2] ويامن قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ . وهذان دليلان على عظمة ووحدانية الخالق بعد ما ساق من الأدلة آية الأرض وبناء السماء . فماذا يقول العلم فى حقائقه عن الماء ؟ يقول الدكتور توماس دافيز باركس : « ولكن هذا النظام الذى نشاهده فى العالم من حولنا ليس مظهرًا من مظاهر القدرة على كل شيء فحسب ، بل إنه يتصف فوق ذلك بالحكمة والاتجاه نحو تحقيق مصالح الإنسان مما يدل على أن عناية الخالق بنفع عباده لا يقل عن عنايته بالسنن والقوانين التى تنظم هذا الوجود . انظر حولك إلى الحكمة البالغة التى ينطوى عليها خروج بعض الظواهر عن العادة أو المألوف ؛ فالماء مثلاً يتوقع الإنسان من وزنه الجزيئى (١٨) أن يكون غـازيًا تحت درجـة الحرارة المعتـادة والضغط المعتاد ، فالنوشادر مثلاً ووزنها الجزيئى (١٧) تكون غازية عند درجة حرارة (-٥٩) ، ولذلك فإن وجود الماء على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر . وللماء فوق ذلـك كثير من الخـواص

(١) سورة الأنعام آية : ٩٧ .
(٢) سورة يٓس الآيات : ٣٧ ـــ ٤٠ .
(٣) سورة فصلت آية : ١٢ .

الأخرى ذات الأهمية البالغة والتى إذا نظر الإنسان إليها فى مجموعها وجدها تدل على التصميم والتدبير . فالماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض ، وهو بذلك يؤثر تأثيرًا بالغاً على الجو السائد ودرجة الحرارة ، ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض تغيرات فى درجة الحرارة تؤدى إلى حدوث الكوارث . وللماء خواص أخرى فريدة فى نوعها وتدل كلها على أن مبدع هذا الكون قد خلقه بعناية وإتقان بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد . إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : إن جميع المواد إذا تجمدت زادت كثافتها فيما عدا الماء فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة إذ تقل كثافتها عند التجميد ، لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تختص بالمواد الأخرى . وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؛ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

أليس فى ذلك أبلغ الرد على من يقول بميكانيكية الحياة ؟ ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرًا ﴾[١] والقائل : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٢] .

لا الصدفة العمياء ولا الطبيعة البكماء الصماء . كلا بل هو الله العزيز الحكيم . وقد رتب الله على إنزال الماء من السماء إخراج الثمرات من الأرض . قال سبحانه : ﴿ **فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٣] . ولو علمت كيف يكون هذا النبات الذى كان فى أصله غضاً طريًا لينا ، لو علمت كيف يكون الخشب فى جسمه لهتفت بلسان قلبك وعقلك وفكرك تقول : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾[٤] . لنجلس فى محراب العلم لحظة نستمع إلى حقائقه وهو يجيب عن هذا السؤال : كيف يكوّن الشجر الخشب فى جسمه ؟ إن للعلم كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهى . يقول المهندس عثمان حلمى فى كتابه « من آيات الله فى الكون » تحت عنوان « النار من الشجر الأخضر » : فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها

(١) سورة الفرقان آية : ٢ .
(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الأنعام آية : ٩٩ .
(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

وتعليل كيفية حدوثها لأننا فى الواقع لانرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة الذى تابعها النبات إلى أن وصل إلى هذه النتيجة . فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة مسألة تكون الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لاغنى لنا عنها فى حياتنا اليومية . وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك وتذكر الناس بقدرة الخالق الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾[1] وعندما نتدبر نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيرًا صحيحًا يفيدون منه وتتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية وصلتها بحياة الإنسان وماخلق الله فى السماوات والأرض . وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر مايتسع لها المقام . فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسوّاها وقدرها ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة . وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكون الخشب :

دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقودًا ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه وادخاره ليوقده عند الحاجة ، وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن استغرقت آلاف آلاف السنين وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة فتكربنت ، أى تفحمت ، وأصبحت ذلك الفحم المعروف . والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أوكسجين الهواء ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه . ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب ومانتج عنها من الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ويمثله فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية فى درجة الحرارة العادية دون عناء ملحوظ ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض .

والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل ، ولذا فإن الشجر الأخضر دون سواه هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٧١ ، ٧٢ .

أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأوكسجين ، ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر ، على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث ، ومتى تم تحليل هذا المحلول السكرى لينتقل من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب فيخزن فيها ثم يتركز تدريجيًا ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة مثل اللجنين والسبرين فتستقر فى موضع التخزين وتصبح مادة صلبة هو الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب لايمكن رؤيتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١٠٠/١ من المليمتر بكثير مثلها من الخلايا ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات فقامت بعملها المُعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض فيكوّن الخشب كما كونه النبات ؟ كلا . . لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى مادة الخلية وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها ، فهو الذى قدر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية وقد جعل الله لعقله أفقًا محدودًا ولم يؤته من العلم إلا قليلاً ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق لكى لايعلم من بعد علم شيئًا تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئًا ﴾[١] . هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها فيصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالاً ودماراً يهلك حرثهم ويفنى نسلهم قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالاً فقال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾[٢] . فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٣] ، ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لايعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى . وشاء الله كذلك أن يعلمِّ الانسان مالم يعلم ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد فقال : إن الذى أنشأ العظام أول مرة ثم يحييها هو ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[٤] .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامدًا فى موضعه قد استطاع أن يصيغه من الهواء والماء والضوء وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً . ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٥] ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف

(١) سورة الحج آية : ٥ .
(٢) سورة يس اية : ٧٨ .
(٣) سورة يس آية : ٧٩ .
(٤) سورة يس آية : ٨٠ .
(٥) سورة الحشر آية : ٢١

الطالب والمطلوب ﴾(١) . فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة بل عن استرداد ماتسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة والذبابة الدنيئة إزاء خلق السموات والأرض وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾(٢) .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات المعجزة والتى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا وعلم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾(٣) لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم : سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذا كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات . والفاء فى قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره « أعموا » فلا ينظرون ؟ سبحانك ياقائل : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾(٤) .

وبعد أن ساق القرآن من الأدلة الساطعة والبراهين الناطقة مايدل دلالة جازمة على وحدانية الخالق عقب بقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون ﴾ والأنداد الشركاء . والله يقول فى حديثه القدسى الجليل : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك)(٥) . والإخلاص فى العبادة قد بينه المولى تبارك اسمه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون) فيه إلزام لهم بالحجة . فكل القلوب موقنة بأن الله وحده خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، وهو الذى سخر الشمس والقمر والنجوم والشجر :

سبحانك اللهم أنت الواحد   كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى   وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ولما بينت الآيات السابقة موقف المؤمنين والكافرين والمنافقين ووجهت دعوة عامة إلى الناس أجمعين بأن يعبدوا الله وحده لا شريك لهونصبت من الأدلة ماهو ناطق بعظمة الخالق ووحدانيته ونهت عن الشرك ، كان لابد لنا أن نسجل هنا نبذة عن الإخلاص ، وهو أن يقصد المرء بعمله وجه الله وحده ، وأردنا بذلك أن نسوق بعض الأحاديث الشريفة عن الصادق المعصوم لنعلم أن الإخلاص شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وأن النفاق شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة غافر آية : ٥٧ .
(٣) سورة الغاشية الآيات : ١٧ ــ ٢٠ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٢ .
(٦) سورة الكهف آية : ١١٠ .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ : (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض)(١) .

وعن أبى فراس قال : نادى رجل فقال يارسول الله : ما الإيمان ؟ قال : (الإخلاص)(٢) . وفى لفظ آخر قال قال رسول الله ﷺ : (سلونى عما شئتم فنادى رجل يارسول الله ما الإسلام ؟ قال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . قال فما الإيمان ؟ قال : الإخلاص . قال : فما اليقين ؟ قال : التصديق)(٣) .

وعن معاذ بن جبل أنه قال حين بعث إلى اليمن : يارسول الله أوصنى قال : (اخلص دينك يكفك العمل القليل)(٤) .

وروى عن ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول : (طوبى للمخلصين . أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء)(٥) .

قال رسول الله ﷺ : (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم)(٦) .

وعن أبى أمامة قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لاشىء له) فأعاده ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : (لاشىء له) ثم قال : إن الله عز وجل لايقبل من العمل إلا ماكان له خالصًا وابتغى وجهه)(٧) .

نبوة الصادق المعصوم

لما بين الله لعباده أنه المعبود بحق ، أثبت بعد ذلك أن معجزة القرآن معجزة خالصة تدل على صدق من نزل عايه القرآن ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا ﴾(٨) . لما كان ذلك كذلك فقد أفحم القرآن أهل الريب والشك فى نبوة خاتم الأنبياء ، قال تعالى :

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

على كل مسلم أن يكون على علم بالعقائد الإسلامية ، وأولها مايجب لله تعالى ومايجوز فى حقه وما يستحيل ، فيجب لله تعالى كل كمال يليق بذاته ويجوز فى حقه فعل مايريد ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٨ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ١٨ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٠ .
(٨) سورة النساء آية : ١٦٦ .

الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[١] ، ويستحيل فى حق الله كل نقص ، لأنه تعالى صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . كما يجب على كل مسلم أن يعرف مايتعلق بالنبوات ومايدور حول المعجزات ومايتصف به الرسل من الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ومايتعلق بهم من العصمة ، كما يجب على المسلم أن يؤمن بالسمعيات ، وهى الأمور التى أخبرنا بها الصادق المعصوم ﷺ من الملائكة والبعث بعد الموت والحشر والنشر والكتب والميزان والصراط والجنة والنار ، وهى التى أوجزها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ . وقد وجه القرآن فى هذا المجال وفى الآيتين اللتين بين أيدينا ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ . وجه الخطاب إلى كل جاحد مرتاب أو عنيد مكابر فى إثبات النبوة للصادق المعصوم ﷺ وتحداهم جميعًا أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن التى أنزلها الله على النبى الأمى الذى ثبت بالتاريخ والتواتر والعقل أنه ماذهب إلى أستاذ ولا اختلف إلى معهد فمّن الذى علمه هذا القرآن ؟ قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾[٢] . وأقصى ماقالوه فى حق صاحب الرسالة أنه تعلم هذا القرآن من رجل يسمى جبرا وكان يعمل حدّادًا وكان رجلاً أعجميًا لا عربيًا فرد عليهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين * إن الذين لايؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾[٣] ولقد تدرج القرآن معهم فى التحدى فقال ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[٤] . ثم تحداهم بعشر سور فقال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٥] ثم تحداهم بسورة فقال : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾[٦] . ثم بعد ذلك أرشدهم إلى أنهم لا يستطيعون ذلك فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٧] . ثم تأمل معى فى التعقيب على هذا التحدى ، ففى سورة البقرة يقول جل شأنه : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ففى قوله جل شأنه ﴿ ولن تفعلوا ﴾ إنباء بالغيب لما سيكون عليه حالهم من العجز الشنيع بعد ما قال تعالى : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، أى هاتوا سورة وادعوا لجنة التحكيم منكم ، ومع ذلك فإنكم لن تفعلوا . وفى سورة هود يتحداهم مولانا أن يأتوا بعشر سور ، ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٨] ، وفى سورة الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾[٩] . وقد سبق أن قدمنا بحثاً فى هذا الكتاب يدور حول الإعجاز . وأى تحد بعد ما قال الله لهم ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ ثم قال لهم : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦ .
(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) سورة النحل الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٤) سورة الطور آية : ٣٤ .
(٥) سورة هود آية : ١٣ .
(٦) سورة يونس آية : ٢٨ .
(٧) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٨) سورة هود اية : ١٤ .
(٩) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

الله ﴾(١) . إنه القرآن وعظمته . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(٢) وشاءت حكمة الله تعالى أن يقدم إليهم النصح الخالص فيقول لهم : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، وهذا نصح لو عملوا به مااتخدوا كتاب الله الذى أفحم المعاندين ورماهم بقذائف الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾(٣) والمراد بالوقود هو ماتوقد به النار ، والمراد بالناس هم المشركون والمخالفون لأوامر الله ، والمراد بالحجارة الأصنام التى عبدوها ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ﴾(٤) هذه النار أعدت للكافرين ، فهى موجودة فعلاً ، قال تعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارًا ﴾(٥) ، وقال فى شأن آل فرعون : ﴿ النـار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾(٦) .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أكثر دعاء النبى ﷺ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)(٧) .

وعن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : (اتقوا النار . قال وأشاح ثم قال اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)(٨) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : يابنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار . . يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار . . يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . . يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . . يافاطمة أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً)(٩) .

نور الوعد

جرت سنة القرآن الكريم أن يقرن الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب لتكون حال العبد دائرة بين الخوف والرجاء ، ومن ثم فقد جاء الوعد بعد الوعيد . فبعد ماقال الله تعالى للكافرين : **﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾** قال فى شأن المؤمنين :

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا

(١) سورة هود آية ١٣ .
(٢) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ١٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ٩٨ ، ٩٩ .
(٥) سورة نوح آية : ٢٥ .
(٦) سورة غافر آية : ٤٦ .
(٧) الجامع الصغير .
(٨) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٢٨ .
(٩) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٧ ط الشعب .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة هى الإخبار بما يسر ، وقد تأتى بخلاف ذلك ، ويراد بها التبكيت كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾(١) . والذين بشروا فى الآية قوم آمنوا واقترن إيمانهم بالأعمال الصالحة وما أكثرها وما أجلها . والإيمان : تصديق بالقلب لابد أن يصدقه العمل ، وعلى كل مسلم أن يجتمع له ثلاثة أركان : نطق باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، هذه الثلاثة تساوى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ . وفى القرآن العظيم نماذج للأعمال الصالحة نراها متمثلة فى قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾(٢) . كما نرى الأعمال الصالحة متمثلة فى قوله عز وجل : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(٣) . ونراها متمثلة فى قوله جل جلاله : ﴿ **إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون** ﴾(٤) ، والجنات جمع جنة ، وهى الحدائق والبساتين ، والتنكير هنا للتعظيم ، هذا هو الجزاء الأول : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم إن الأنهار ، جمع نهر بفتح الهاء وسكونها ، وهو الشق فى الأرض يجرى فيه الماء ، ومعنى تجرى من تحتها الأنهار أو تجرى من تحتهم الأنهار أى من تحت القصور والأشجار ، قال تعالى : ﴿ **يفجرونها تفجيرًا** ﴾(٥) . لماذا استحقوا هذا الجزاء ؟ لأنهم : ﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورًا * إنا نخاف من ربنا يومًا عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا** ﴾(٦) .

هذه الجنات يقول فيها مولانا فى الحديث القدسى الجليل : (قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل :

(١) سورة التوبة آية : ٣٤ .
(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١ ــ ١١ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ ــ ٣٥ .
(٥) سورة الإنسان آية : ٦ .
(٦) سورة الإنسان الآيات : ٧ ــ ١١ .

أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واقرءوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[١] .

وأهل الجنة إذا جيئ لهم بثمارها وفاكهتها قالوا : لقد رزقنا مثل هذا من قبل فتقول لهم الملائكة : كلوا إن اللون إن كان متشابهاً فإن الطعم مختلف . وإما أن يكون المعنى لقد رزقنا مثل هذا فى الدنيا فيقال لهم : إن تشابهت الألوان فقد اختلفت الطعوم والروائح . قال ابن عباس : « لايشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء ». ثم ماذا ؟ ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ . والمقصود بهن الحور العين ، وهن مطهرات طهارة حسية من الحيض والنفاس والبول والغائط ، وطهارة معنوية من أذى اللسان والحقد والحسد والبغضاء .

روى مسلم أن النبى ﷺ قال : (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يتبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس)[٢] . قال تعالى : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ . فبعد الجنات والأنهار والرزق من الثمار العجيبة والأزواج المطهرة جاءت النعمة العظمى وهى نعمة الخلود . إذ كيف يكون هناك نعيم ينقضه الفناء ؟ إن كل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
لا تركنن إلى الدنيا ومافيها ... فالموت لاشك مفنينا ويفنيها
واعمل لدارٍ غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

ومن أراد أن يعيش عيشة مطمئنة فى مساكن طيبة ، فالعيش عيش الآخرة حيث الخلود الذى لاتشوبه قدرة الفناء والرحيل وفرقة الأحباب والصحاب والأهل والأقرباء . ومن أراد أن يعيش لحظة فى الجنة وهو على وجه الأرض فليقرأ ما أعده الله لعباده الصالحين فى سور الرحمن والواقعة والدهر . خذ هذه النماذج الشريفة ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * ذواتا أفنان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان تجريان ﴾[٣] . . إلى آخر الآيات . وقال فى سورة الواقعة : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين ﴾[٤] إلى أن قال جل شأنه فى نساء الجنة ، وهن النساء اللاتى كن صالحات فى الدنيا : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكارًا * عرباً أترابًا * لأصحاب اليمين ﴾[٥] . وقال تعالى فى سورة الدهر : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا * متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسًا ولا

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٣) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ ـ ٥٠ .
(٤) سورة الواقعة الآيات : ١٠ ـ ١٦ .
(٥) سورة الواقعة الآيات : ٣٥ ـ ٣٨ .

زمهريرًا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾[1] إلى أن قال جل شأنه : ﴿ وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا ﴾[2] .

عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لايجدها عاق ولا قاطع رحم)[3].

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه : (ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربى . فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله . فقال فى الخامسة : رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك . فيقول رضيت رب . قال : رب ما أعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر)[4] .

ضرب الأمثال

* إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ لايستحى ﴾ : الحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف مايعاب به ويذم . والمراد به هنا لازمه وهو الترك والامتناع . ﴿ فما فوقها ﴾ : فما دونها فى الصغر . ﴿ الفاسقين ﴾ : أصل الفسق فى كلام العرب الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه . ﴿ ينقضون ﴾ : النقض فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء أو حبل . ﴿ الميثاق ﴾ : العهد المؤكد باليمين ، وهو أبلغ من العهد .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل

(١) سورة الإنسان الآيات : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٧ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣١٨ .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾(١) . وقوله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾(٢) . أثر تنزيه من مطلق الريب بما تحداهم به فى الآيات السابقة إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن فى القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثيل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم والحقير يمثل له بالحقير . فأى عيب فى ضرب الأمثال ولها حكمتها البالغة ؟ فقد تضرب الأمثال للتوضيح والبيان ، وحتى ينزل المعقول منزلة المحسوس ، ولذا لما ضرب الله مثلاً بالعنكبوت عقب على ذلك بقوله : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾(٣) . وقال جل شأنه فى آية أخرى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(٤) . وضرب الأمثال مأخوذ لغة من ضرب النقود ، أى بالتأثير فيها بالنقش والكتابة . كذلك لضرب المثل أثر فى النفوس من تبيين ووضوح ، والمثل هو الحال العجيبة ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وما كان ذلك إلا ليكون كلام الله واضحاً فى نفوس عباده . وقد صدق الله إذ يقول : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾(٥) . ويقول : ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾(٦) . ويقول : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾(٧) . وقد ضرب الله الأمثال فى مواقع كثيرة ومواطن متعددة ؛ فمن ذلك قوله جل شأنه : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾(٨) . أعلمت كيف أصبح المثل موضحاً تمام الإيضاح لقضية من أدق قضايا العقائد فى توحيد الله ؟ ومثل آخر يقول الله فيه : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾(٩) . يريد سبحانه أن يقول: كيف ترضون الشركاء لى وأنتم لاترضون لعبيدكم وخدمكم أن يكونوا شركاء لكم فى أرزاقكم ؟ إن الذى لا ترضونه لأنفسكم وأنتم عبيد كيف ترضونه لخالقكم وهو الواحد القهار ؟ هل ترضون أن تكونوا سواءً مع ماملكت أيمانكم تخافونهم كخيفتكم أنفسكم فكيف ترضون ذلك لى ؟ . ثم يبين جل جلاله الحكمة من ضرب هذا المثل فيقول : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾(١٠) ، ومثل آخر يقول فيه سبحانه : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾(١١) . فهل ضرب الأمثال بالأشياء التى رأوها حقيرة يكون سبباً فى امتناع الله عن ضرب المثل ؟ ﴿ إن الله لا يستحى ﴾ ، أى يمتنع ولا يترك ضرب المثل من أجل أن يكون المضروب له المثل حقيرًا ، فالمثل العظيم يضرب للعظيم وغيره يضرب لغيره .

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٤١ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٤٣ .
(٤) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٥) سورة هود آية : ١ .
(٦) سورة الإسراء آية : ١٢ .
(٧) سورة القيامة آية : ١٩ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٥٩ .
(٩) سورة الروم آية : ٢٨ .
(١٠) سورة الروم آية : ٢٨ .
(١١) سورة النمل آية : ١١٢ .

علی قدر أهـل العزم تـأتى العـزائم وتـأتى عـلى قـدر الكـرام المكـارم
ويعـظم فى عين الصغـير صغيـرهـا وتصغـر فى عـين العـظيم العـظائم

بل إن الله تعالى قد يضرب المثل بما هو فوق البعوضة صغرًا وضآلة . ثم بعد ذلك يبين العلى الحكيم موقف المؤمنين والكافرين من ضرب الأمثال فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ : أى أن المؤمن عندما يسمع المثل يعتقد اعتقاداً جازمًا لايعتريه شك أن الله ماساق هذا المثل إلا لحكمة بالغة وهدف أسمى ، لأن العتب على الله محال ، بل إن رسول الله ﷺ قد ضرب المثل بما هو أقـل من جناح البعوضة فى قوله ﷺ : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء)[1] .
فالمؤمنون ثابتون على أن كلام الله حق ، والمثل من كلام الله ، فهو حق . وأما الكافرون فإنهم مرتابون شاكون ، يسألون سؤال معاند وجاحد كؤود :﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ ؟ وكيف يكون كلام الله قد ذكر فيه البعوض والنمل والذباب ؟ هل جهل هؤلاء أن الله تحدى بالذباب قومًا عبدوا غيره أن يأتوا أو يخلقوا ذباباً؟ إنهم عاجزون عن استنقاذ أى شيء يسلبهم الذباب ضعف الطالب والمطلوب . وأى عجب أن يضرب الله الأمثال بما خلق ؟ أليس هو القائل : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾[2] ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ إن الله لايستحى أن يضرب مثلاً (ما) ﴾ أى أى مثل . فسبحانه يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة .
لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فأقول سبحان الله ماهى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام . والأبيات هى :

يـامن يـرى مـد البعـوض جنـاحـه فى ظلمـة الليـل البهيـم الأليـل
ويـرى نيـاط عـروقهـا فى نحـرهـا والمـخ فى تـلك العـظام النُّحَّـل
ويـرى ويسمـع مـايـرى مـادونها فى قـاع بـحـر زاخـر متجنـدل

وازداد عجبى عندما قرأت هذا البحث الذى قام به البروفيسير « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد : « يقوم الدكتور أردين ليا من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب مستخدمًا أدوات جراحية دقيقة مثل التى يستعملها صانع المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من خمس دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض الطيران . ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض والذى ينتشر فى المستنقعات ، وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من مخ البعوضة ، وكذلك بعض الغدد من الرقبة . وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لايمكنها بعد ذلك وضع البيضة » .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر . (٢) سورة الزمر آية : ٦٢ .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلاً فقال : ﴿ إن الله لايستحى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها ﴾ ، فما بالك بهذه الخليقة ومافيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها واجمة عبقريات العباقرة والمفكرين ! .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ ومشيئة الله منزهة عن العبث . إن الإضلال والهداية هنا جاءا بناء على موقف كل من الفريقين . أما الذين قالوا ﴿ إنه الحق ﴾ فهؤلاء هم أهل الهداية ، وأما الذين تشككوا وارتابوا وقالوا ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ، فهم أهل الإضلال والغواية ، وهذا منطق العدالة الإلهية ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾(١) ، إذ العدل وضع الشىء فى موضعه . قال تعالى فى حق أهل الغواية : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٢) . وقال أيضا : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾(٣) ، وقال فى النص الذى بين أيدينا : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ ، والفسق هو الخروج عن طاعة الله . ثم وصف هؤلاء بما جعلهم أهلاً للإضلال والضلال والغواية والبعد عن طاعة الله فقال : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ ، فهم أولاً فاسقون خارجون على حدود الله وإطاعة أوامره . وهم ثانياً : ناقضون للعهد ، ونقض العهد بمعنى التحلل منه وعدم الوفاء به ، وعهد الله هو ميثاقه المؤكد باليمين ، وهؤلاء نقضوا عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهو الميثاق العام الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤ نا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون(٤) ﴾ . كما أن هناك عهداً وميثاقاً أخذه الله على الأنبياء . قال تبارك اسمه : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(٥) . وهناك عهد أخذه الله تعالى على العلماء فى قوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس مايشترون ﴾(٦) . وقد أمر الله بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ماتفعلون ﴾(٧) . وحذر سبحانه من نكث العهود فقال : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾(٨) . وهؤلاء الفاسقون الناقضون للعهود بعد توكيدها بالميثاق نقضوا عهد الله عندما كفروا به بعد أن أراهم الله آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وبعد ماتبين لهم أنه الحق ، وقد أمدهم سبحانه بالفعل المميز وأرسل إليهم رسلاً وأنزل كتبًا تهدى إلى صراط مستقيم . ولم يكن أمرهم مقصوراً على ذلك بل قطعوا ما أمر الله به

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .
(٢) سورة فصلت آية : ١٧ .
(٣) سورة الصف آية : ٥ .
(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ ــ ١٧٤ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٨١ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٧) سورة النحل آية : ٩١ .
(٨) سورة النحل آية : ٩٢ .

أن يوصل ، فقطعوا ما أمر الله بوصله عندما آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾[١] . وقطعوا ما أمر الله بوصله عندما قطعوا الأرحام ، والله تعالى يقول : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[٢] ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فإن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله . فمخالفة أمر الله فيما أمر بوصله يعتبر قطيعة ، والاعتداء على أهل الخير والصلاح وظلم أهل الإيمان بتعذيبهم وتشريدهم إنما هو قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)[٣] . وقتل الذين يأمرون الناس بالقسط قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾[٤]. ثم ماذا ؟ ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ . والإفساد فى الأرض له وجوه لا تحصى ومواقع لا تستقصى . فالاعتداء على النفس أو المال أو العرض أو العقل أو العقيدة أو غير ذلك فساد وإفساد ، ونسوق هنا بعض وجوه الفساد التى حذر منها خير العباد محمد ﷺ .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر ؟ وآتيه)[٥] . رواه البخاري ومسلم .

وروى عن الوليد بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم وصلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل)[٦] رواه الطبرانى . ومن وجوه الفساد ماورد النهى عنه فى قوله ﷺ : (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتالوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته)[٧] رواه أبو داود . ومن وجوه الفساد ماورد التحذير منه فى قوله ﷺ : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[٨] رواه البخارى .

ومنها قوله ﷺ : (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه)[٩] رواه أبو داود .

(١) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) رياض الصالحين للإمام النووى ص ١٣١ ط دار التراث .
(٤) سورة آل عمران آية ٢١ .
(٥) رواه الشيخان .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٧٩ . ط وزارة الأوقاف .
(٧) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٠ .
(٨) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٦ .
(٩) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٩٦ .

وقال ﷺ : (والذى نفسى بيده ليبيتن أناسٌ من أمتى على أشرٍ وبطر ولعب ولهو فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم واتخاذ القينات وشربهم الخمر وبأكلهم الربا ولبسهم الحرير)[١] رواه عبد الله بن الإمام أحمد . وقال ﷺ : (يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير)[٢] رواه ابن ماجه وابن حبان .

وتأمل معى ماذكره الله تعالى فى حق هؤلاء الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، تجد الأسلوب هنا قد جاء بصيغة الفعل المضارع : ينقضون ـــ يقطعون ـــ يفسدون . وهذا الفعل يفيد الحال وقد يفيد الاستقبال بمعنى أنهم متلبسون بأفعالهم لم ينتهوا عنها ، فاستحقوا بذلك أن يحكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ . وهكذا بأسلوب اسم الإشارة وضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وأداة التعريف (ال) وهو أسلوب يدل على الحصر والقصر ، أى أولئك هم الخاسرون لاغيرهم ، فقد خسروا سعادة الدارين وخسروا أنفسهم وهم فى جهنم خالدون . وإنما كانت خسارتهم لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان واشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فيا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك . ويا حى يا قيوم برحمتك نستغيث .

شىء عجيب

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

إنه لشىء عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء بمن أوجدهم من العدم ، وهل يقوى على ذلك غيره ؟ وإنه لشىء عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء الجاحدون بمن أقام من الأدلة ماتنبهر به النفوس وتندهش له العقول : سماوات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ، ألا يكفى كل هذا على وجود العليم الخبير ؟ . سئل الإمام على رضى الله عنه : هل رأيت ربك ؟ فقال:وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا : فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لاتراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ فقال : ومتى غاب عنى سبحانه ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

دواؤك فيك وما تبصر	وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى	بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير	وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٧ .

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ وهو الذى أحياكم بعد موتكم ، وهو الذى يميتكم بعد حياتكم ، وهو الذى سيحييكم بعد موتكم ، وهو الذى إليه المآب والرجعى ، وذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾(١) . فالموتة الأولى هى التى كانت قبل نفخ الأرواح فى الأشباح ، والموتة الثانية هى التى ستكون فى الدنيا . والحياة الأولى كانت بعد نفخ الأرواح ، والحياة الثانية تكون بعد إعادة الأرواح إلى أجسادها يوم القيامة . فهناك موتتان وحياتان ورجوع إلى الله ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾(٢) . كيف تكفرون بالله وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ، يغذيكم بنعمه ويربيكم بآلائه وكرمه .

الشمس والبدر من أنوار حكمته	والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده	والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه	والنحل يهتف حمدًا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرًا فيسترهم	والعبد ينسى وربى ليس ينساه

أتكفرون بمن هذا شأنه وقد سخر لكم ماقى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ، ثم قصد إلى السماء بعد خلق الأرض فأتم خلقهن سبع سموات ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(٣) فيسألون من الذى أبدع الكائنات وخلق الكونيات : الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾(٤) . أتكفرون بهذا الخالق الذى أحل لكم ما فى الأرض ؟ فالأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد دليل على الحظر : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾(٥) ، إن الذى أمات وأحيا ثم أمات وأحيا هو بكل شىء عليم ، فقدرته باهرة وعلمه شامل كامل أزلى قديم ، فهو سبحانه علم ماكان وعلم مايكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ آية اشتملت على الزمان كله بآزاله وآماده وآباده ، وإن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(١) سورة غافر آية : ١١ .
(٢) سورة القيامة الآيات : ١٠ - ١٣ .
(٣) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٤) سورة فصلت الآيات : ٩ ـ ١٢ .
(٥) سورة يونس آية : ٥٩ .

قصة البشرية

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾

للقصة فى القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى ، ففيها إثبات النبوة للنبى الأمى صلوات ربى وسلامه عليه . وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة . وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك ﴾[١] .

فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن فى القصة مايدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبى صادق كل الصدق مؤيد كل التأييد فى نبوته . فمن الذى أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم فى أوطانهم ولم يعاصرهم فى أزمانهم ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد ؟ ومن ثم فإننا لنرى كثيرا من القصص القرآنى يختم بما يدل على هذا . فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾[٢] . يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٣] . فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وتحركنا مع أحداثها من بلد إلى بلد ، ومن حدث إلى حدث ، وواكبنا وقائعها ، ألفينا أن الله تعالى وجّه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه ، بعد ما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٤] . توجه الخطاب الربّانى إلى النبى الأمى ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[٥] ، ثم يختتم السورة الكريمة بما

(١) سورة هود آية : ١٢٠ .
(٢) سورة هود آية : ٤٨ .
(٣) سورة هود آية : ٤٩ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠١ .
(٥) سورة يوسف آية : ١٠٢ .

يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(١) . فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة فى سورة طه . . نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾(٢) . وإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى فى سورة القصص وجدنا أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يوجه الخطاب فى نهايتها إلى مبعوث العناية الإلهية فيقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنّا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وماكنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وماكنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾(٣) . فإذا ما انتقلنا إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾(٤) .

فمن الذى أوحى إلى نبيه بأنباء الغيب ؟ إنه العليم الخبير : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾(٥) . والوحى دليل النبوة ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾(٦) . قال تعالى مخاطباً شمس الهداية الربَّانية : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾(٧) .

والحكمة ما أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آية وكمالاً لرسوله الكريم . قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(٨) . حتى لايقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أثيم إن محمدا قرأ الكتب السابقة ووعى مافيها ثم أدَّاها كما قرأها . والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت ، والتواتر يروى أن محمدا ﷺ قضى حياته بينهم فى مكة قبل البعثة أربعين عاما . وقد جاء ذلك صريحا فى كتاب الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلىَّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون ﴾(٩) .

فإذا ما انتقلنا إلى الغرض الثانى من القصة القرآنية ، وهو الجانب التربوى وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾(١٠) ، فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله تعالى قد تكون بالقدوة الصالحة والتى بينها القرآن الكريم بيانا كافيا

(١) سورة يوسف آية : ١١١ .
(٢) سورة طه آية : ٩٩ .
(٣) سورة القصص الآيات : ٤٤ ـ ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٤٤ .
(٥) سورة هود آية : ٤٩ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٦ .
(٧) سورة النساء آية : ٧٩ .
(٨) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٩) سورة يونس الآيات : ١٥ ـ ١٧ .
(١٠) سورة يوسف آية : ١١١ .

شافيا ، وحذر الدعاة أن تخالف أقوالهم أفعالهم . قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلاتعقلون** ﴾ . وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب يقول لقـومه : ﴿ ومـا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[١] ، وقال جلَّ ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[٢] .

وكما أن التربية تكون بالقدوة ، كذلك تكون بالموعظة الحسنة ، ولابد من متابعة النفس بالموعظة ، إذ أن النفس كزجاجة الدواء إن لم ترج قبل استعماله ترسبت فيها العقاقير ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وإن لم يملأها شيء ملأها الهواء . قال تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٣] .

كذلك تكون التربية بالقصة ، ويكفيك أن تأخذ مثلا على هذا قصة يوسف وما احتوته من عبرة وحكم بالغة . فقد انتقل يوسف من بين أحضان أبيه عندما انتزعته أيدى إخوته وألقِيَ فى غيابة الجب ثم انتقل إلى قصر العزيز واستعصم بالله واجتاز محنة المراودة ، ولم تنسه شدة السجن أن يدعو إلى ربه . وانتقل بعد ذلك إلى ملك مصر فكان على خزائن الأرض وجمعه الله بإخوته ، وكانت هناك أحداث ومباحثات إلى أن جمع الله شمل الأسرة ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . . وهكذا تكون التربية باستنباط العبر وتكون الدعوة باستخلاص الدروس . نعم لقد كان فى قصصهم عبرة .

كذلك تكون التربية والدعوة بالتعليق على الأحداث الجارية على وجه الأرض أولا بأول بحيث يضرب الداعية والحديد ساخن . كذلك تكون التربية بتطبيق العقوبات على الذين لا تردعهم الحجج الساطعة ولا البراهين القاطعة . وقد جمع الله الفريقين فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنـا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للنـاس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٤] . فالناس قسمان : قسم تكفيه الحجة والبرهان ، وقسم : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولَّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾[٥] . . ﴿ يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾[٦] . هذا القسم يردع بالعقوبة حتى لاتنتقل عدواه المدمرة إلى غيره من أصحاب العقول الرشيدة .

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبى ﷺ وتصبيره على مايلاقيه من أذى قومه . وقد جاء مصداق ذلك فى سورة هود ، فبعدما قص الله عليه قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، قال الله له فى نهاية السورة : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٧] . وفى هذا المجال يقول سبحانه لصفوة خلقه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الـذى

(١) سورة هود آية : ٨٨ .
(٢) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٥٥ .
(٤) سورة الحديد آية : ٢٥ .
(٥) سورة لقمان آية : ٧ .
(٦) سورة الحج آية : ٨ .
(٧) سورة هود الآيات : ١٢٠ ــ ١٢٣ .

يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾(١) . ويقول جل شأنه : ﴿ مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ﴾(٢) . إلى غير ذلك من الآيات التى كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ بردا وسلاما تخفف عنه مايلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم ، قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾(٣) .

ولنأخذ الآن فى تفسير قصة آدم : فإنه تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والإيجاد فى قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ بين لهم بعد ذلك تشريفه لأبيهم الذين جاءوا من صلبه ، وكيف ذكره فى العالم العلوى والملأ الملائكى ، وأنه تعالى لما خلق لنا ما فى الأرض جميعا وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه امتنَّ على أبينا آدم بالخلافة ليقيم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة . وليس ثمة أدنى شك فى أن تشريف الآباء تشريف للأبناء ، وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد . فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ . تقديره اذكر لقومك يامحمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المربى عباده على كرمه ورزقه . ماذا قال ؟ إنه قرار إلهى لايقبل النقض : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ أى يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض . أو إنى جاعل فى الأرض أقواما يخلف بعضهم بعضا . فالمعنى الأول من باب قوله جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾(٤) . والمعنى الثانى من باب قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾(٥) . وقوله تعالى : ﴿ إنى جاعل فى الأرض ﴾ يفيد أنه خلق لعمارة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها لحكمة بل لحِكَم . من تلك الحكم : أنه سيأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه . كذلك أبناؤه يخالفون ثم يتوبون . ففعل الله منزه عن العبث . ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمرها وتعمرها أبناؤه من بعده . قال : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾(٦) . ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٧) .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : عجبت لابن آدم يتكبر على وجه الأرض وهو حفنة من ترابها ، وكيف يتكبر وهو الذى تنتنه عرقة وتؤذيه بقة وتقتله شرقة ؟ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة :

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ــ ٣٦ .
(٢) سورة فصلت آية : ٤٣ .
(٣) سورة فاطر آية : ٨ .
(٤) سورة ص آية : ٣٦ .
(٥) سورة الأنعام آية : ١٦٥ .
(٦) سورة الأعراف آية : ٢٥ .
(٧) سورة طه آية : ٥٥ .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلالك إن النتن تثريب
لو فكر الناس فيها فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... أكثر فإنك مأكول ومشروب

كيف تتكبر يا ابن آدم والقبر يناديك كل يوم : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهرى لأننى غدا سأضمك فى بطنى ..

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل وسلطانه ... وأين المباهى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا ... أما لك فيما مضى معتبر ؟

فماذا قالت الملائكة فى هذه الحضرة الإلهية المقدسة ؟ ﴿ **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ ؟ إن هذا استفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم ، وهو استفهام خال من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . قال تعالى فى حقهم : ﴿ بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾[1] ، وقال فى شأنهم : ﴿ لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾[2] . وإنما قالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ لأنها رأت ماكان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والإفساد . وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾[3] أى من قبل آدم . فقاست الملائكة هؤلاء الذين سيخلقون على الذين خلقوا من قبل . قالت الملائكة لرب العزة : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ . التسبيح هنا المراد به التنزيه . . ومعنى التسبيح بالحمد أى نسبح تسبيحا مقترنا بالحمد فنقول : « سبحان الله وبحمده » والتقديس هو التعظيم والتطهير . ولتسبيح الله فضل عظيم عند الله ، قال النبى ﷺ : (الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن مابين السماء والأرض)[4] .

ولذا جاء التسبيح فى القرآن الكريم بصيغ مختلفة : جاء بصيغة الماضى ﴿ سبّح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾[5] وجاء بصيغة المضارع : ﴿ يسبّح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾[6] . وجاء بصيغه الأمر : ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾[7] وجاء بصيغة المصدر : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾[8] . وجاء بصيغة الصفة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[9] .

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة التحريم آية : ٦ .
(٣) سورة الحجر الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٥) سورة الصف آية : ١ .
(٦) سورة الجمعة آية : ١ .
(٧) سورة الأعلى آية : ١ .
(٨) سورة الصافات آية : ١٨٠ .
(٩) سورة الصافات الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .

قـال لهم مولانـا جلَّ جـلاله : ﴿ إني أعلم مـا لا تعلمون ﴾ أى إن فى علمى من الحكم البـالغة ما لا تعلمونه أنتم ، فإن فى ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير ، فإن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . إن الملائكة دائما مطبوعة ومجبولة على طاعة الله . قال النبى ﷺ : (أطت السماء أطاً وحق لها أن تئط . ما من موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد لله ثم يقولون : وعزتك وجلالك ماعبدناك حق عبادتك ، والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا) . ﴿ يسبحـون الليل والنهار لايفترون ﴾[1] .

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2] .

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعل عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور . ويجب أن يكون الخليفة ذكرا حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء .

ولما كان آدم عليه السلام جديرا بالاستخلاف فى الأرض وتعميرها ، فقد أراد ربك أن يظهر فضله على آدم ويبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة . قال تعالى : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ . ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها . فلولا أن الله تعالى سمَّى الأسماء بأسمائها وجعل الأسـماء علامـة عليها لتـوقفت مصالـح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم . فخبرنى بربك لو لم نعلم أسماء الأشياء كيف كنا نتعامل ؟ فإذا كنت تريد مثلا أن تبيع فرسا وأنت لا تعرف اسمه أو تريد التنزه على شاطىء النهر ، فهل كنت ستأخذ صاحبك حتى تريه الفرس وتقول له : أريد بيع هذا ؟! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابنك أن يشتريه فماذا كنت تقول له ؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لاتعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له ؟ أعلمت لماذا علَّم الله آدم الأسماء كلها ؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته ؟ العلم نور والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلماء ورثة الأنبياء ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾[3] . إن الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يستطيعون عمارة الأرض . أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزاوج والتكاثر والمآكل والمشرب والملبس والتنقيب عما فى

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٢٦٤ وما بعدها .
(٣) سورة الكهف الآيات : ٦٥ - ٦٩ .

باطن الأرض ؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة ، فإنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، بل يسبحون الليل والنهار لايفترون . شهيقهم وزفيرهم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومن ثم فإن المكلّف بمعرفة الأسماء هو آدم ، لأنه سيتعامل معها . وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة ويقول لهم أنبئونى بأسماء هذه المسميات ، ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله فتنزه الله التنزيه الذى يليق بذاته قائلة : ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم** ﴾ وحدك الذى أحاط علمك بكل شىء ، فقد وسعت كل شىء رحمة وعلما ، وأنت ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى تضع الأشياء فى نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها . فالعبث عليك محال يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . وهنا قال الله تعالى : ﴿ **يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾ أى أخبرهم بها ، فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى . فقال لهم المولى جلّ جلاله : ﴿ **ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض** ﴾ ، أى ماغاب عنكم فى السماوات والأرض ، فهو سبحانه وتعالى علم ماكان وعلم مايكون وعلم ما لايكون لو كان كيف كان يكون : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾[1] . بل إنه تعالى يعلم القول : ﴿ **قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ وما كنتم تكتمونه فى أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم . فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض ينشر العدل ويقيم أسس الحق . أما قوله تعالى : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى فى قولكم إن الله لن يخلق أعلم منا ، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات . وجلت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحا زوجين وأنجبا من الذرية مابلغ اليوم أربعة آلاف مليون من البشر : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾[3] .

آدم والملائكة وإبليس

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٤ .
(٣) سورة النساء آية : ١ .

مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ * أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **اسجدوا** ﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يسجد له ، والتعظيم ، وهو فى اللغة : التذلل والخضوع ، وفى الشرع : وضع الجبهة على الأرض . ﴿ **إبليس** ﴾ : اسم للشيطان وهو أعجمى ، وقيل إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس . ﴿ **أبى** ﴾ : امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل . ﴿ **استكبر** ﴾ : الاستكبار : التكبر والتعاظم فى النفس . ﴿ **رغداً** ﴾ : واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا فى رزق واسع .

قال الشاعر :(١)

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث فى عيش رغد

﴿ **فأزلهما** ﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم ، يقال : زلت قدمه ، أى زلقت ، ثم استعمل فى ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبب له ذلك . ﴿ **مستقر** ﴾ موضع استقرار ، ﴿ **ومتاع** ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه .

(١) هو امرؤ القيس : ذكره أبو حيان والطبرى « القرطبى » جـ٨ ص ٣٠٣ .

﴿ فتلقّى ﴾ التلقى فى الأصل : الاستقبال ، تقول خرجنا نتلقى الحجيج . ﴿ إسرائيل ﴾ اسم أعجمى معناه : عبد الله وهو اسم يعقوب عليه السلام ، وقد صرح به فى آل عمران ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾[1] الآية . ﴿ أوفوا ﴾ الوفاء : الإتيان بالشىء على التمام والكمال ، يقال أوفى ووفى ، أى أداه وافياً تاماً . ﴿ تلبسوا ﴾ اللبس : الخلط تقول العرب : لبست الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلط ، قال تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[2] وفى المصباح : لبس الثوب من باب تعب لبسا بضم اللام ، ولبست عليه الأمر لبسا من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿ الزكاة ﴾ مشتقة من زكا الزرع ، يزكو ، أى نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هى من الزكاة ، أى الطهارة لأنها تطهر المال ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[3] الآية . ﴿ بالبر ﴾ البر : سعة الخير والمعروف ، ومنه البر والبرية للسعة وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما ، وفى الحديث : (البر لا يبلى والذنب لا ينسى) . ﴿ وتنسون ﴾ تتركون ، والنسيان يأتى بمعنى الترك كقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[4] ، وهو المراد هنا ، ويأتى بمعنى ذهاب الشىء من الذاكرة كقوله : ﴿ فنسى ولم نجد له عزما ﴾[5] ﴿ تتلون ﴾ : تقرءون وتدرسون . ﴿ الخاشعين ﴾ الخاشع : المتواضع ، وأصله من الاستكانة والذل ، قال الزجاج : الخاشع الذى يرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت . ﴿ يظنون ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد ، قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنّ وللشك ظن . وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ، ومنه ﴿ إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابيه ﴾[6] .

ولنأخذ الآن فى المعنى الذى تدور حوله الآيات . . قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ .

المعروف أن آدم خلق من طين ، وأن الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وقد أقسم الله بهم فى بعض الآيات كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا ﴾[7] وفى قوله جل شأنه : ﴿ والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرا * فالفارقات فرقا * فالملقيٰت ذكرا * عذراً أو نذراً ﴾[8] . وفى قوله جل شأنه : ﴿ والنازعات غرقاً * والنٰشطات نشطاً * والسابحات سبحاً * فالسٰبقات سبقا ﴾[9] . وقد جبلت الملائكة على الطاعة كما وصفهم الله جل شأنه فى قوله : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[10] . والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[11] أى لا يضعفون ولا يملون ولا يسئمون قال تعالى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ﴾[12] وأما إبليس فقد خلق من نار ، وهو أصل الجن ، وقد

---

(١) سورة آل عمران آية : ٩٣ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٩ .
(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .
(٤) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٥) سورة طه آية : ١١٥ .
(٦) سورة الحاقة آية : ٢٠ .
(٧) سورة الصافات الآيات : ١ ــ ٣ .
(٨) سورة المرسلات الآيات : ١ ــ ٦ .
(٩) سورة النازعات الآيات : ١ ــ ٤ .
(١٠) سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ ــ ٢٨ .
(١١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .
(١٢) سورة فصلت آية : ٣٨ .

صرح بذلك الكتاب الكريم فى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾[١] . وليس إبليس ملكا ، لأن الملائكة لاتتزوج ولا تتناسل ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة ، أما ، إبليس فله ذرية لأنه متزوج ، قال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ﴾[٢] . والملائكة لاتعصى الله تعالى ، لأنهم فطروا على الطاعة ، وإبليس قد أبى وعصى واستكبر وكان من الكافرين . والآية التى بين أيدينا قد جمعت ثلاثة نماذج من المخلوقات : آدم ، والملائكة ، وإبليس . وقد أخبر الصادق المعصوم عن الملائكة بأنهم يأمرون بالخير ، أما الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . روى الترمذى بسنده إلى رسول الله ﷺ : إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[٣].واللمة : الإلمام والإصابة .

أما السجود ، فقد يراد به التحية ويراد به العبادة ، وقد يكون من العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله . وقد اجتمع النوعان فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾[٤] .

ولقد كان السجود لآدم سجود تحية وإكرام لاسجود عبادة وتقديس . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يُسجد لك فقال : (لو كنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق)[٥] . أما الملائكة فقد أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله ، أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عناداً وجحوداً فصار بذلك من الكافرين ، واستعمل القياس الفاسد فقال أنا خير منه ، ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية ، فجمح به خياله العقيم حيث قاس عنصرا على عنصر ، وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر ، ونسى أن الميزان العادل الذى توزن به كرامات الخلق : التقوى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٦] . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون)[٧] .

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية فلا تنظر إلى المعصية من حيث أنها معصية فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه . لقد أمرك الله أن تسجد ، فكيف تنصرف من طاعة الأمر إلى البحث فى العناصر ؟

قال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من خردل من كبر)[٨] .

---

(١) سورة الكهف آية : ٥٠ .
(٢) سورة الكهف آية : ٥٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .
(٤) سورة الحج آية : ١٨ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٣٤٧ . ط دار الفكر
(٦) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٧) تفسير القرطبى جـ ٩ ص : ٦١٦٥ ، ٦١٦٦ . ط الشعب
(٨) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤١٣ ط وزارة الأوقاف .

قيل لبلال بن رباح : يابلال ابن من أنت ؟ فقال أنا ابن من أسجد الله له الملائكة .

وقيل لسلمان الفارسى : ياسلمان من أبوك ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . أنا ابن الإسلام . فلما بلغ ذلك القول أمير المؤمنين عمر صاح قائلاً : وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام . وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له ، كما كرمه من قبل بجعله خليفة فى الأرض وتعليمه الأسماء كلها ، وسيكرمه بعد ذلك بسكناه الجنة فإلى هناك :

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته . قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[1] . وجلت حكمة الله أن يقول لآدم اسكن ولم يقل له خالدين فيها ، لأن آدم خلق للأرض وتعميرها ، فلا مفر من عيشه على ظهرها ، وقال له أنت وزوجك ، وهذا دليل على أن صلة الرجل بالمرأة لاسبيل لها إلا الزواج وليس هناك من سبيل آخر إذا لم تكن محرما له . والجنس فى الإسلام قد أحاطه الله بالرعاية والعناية والصيانة حيث قال جل شأنه فى وصف المؤمنين : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾[2] ، ثم أغلق الباب أمام أى طريق آخر فقال : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾[3] . وليس فى الإسلام مايسمى عشق أو عشيقة ، قال تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾[4] . وقال فى وصف المؤمنات : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾[5] ، ومن ثم فإن الخطاب الذى وجه إلى آدم بالسكنى له دلالته ، إذ أن الخطاب لم يأت بضمير التثنية ، فلم يقل مولانا وياهذان اسكنا الجنة ، إنما جاء موجهاً إلى آدم أصلاً ثم عطفت عليه زوجه تبعاً ، بمعنى أن المرأة مسئولة من زوجها وأن زوجها مسئول عنها من حيث الرعاية والنفقة وحقوق الزوجية ، وقد جاءت الحكمة واضحة فى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾[6] . فتأمل قوله جل شأنه ﴿ فتشقى ﴾ ولم يقل فتشقيا بعدما قال يخرجنكما ، فقد ثنى الضمير فى النهى عن الإخراج وأفرده حين وقوع الشقاء ، لأن الشقاء فى الدنيا سيكون على رأس الرجل ، أما المرأة فهى مستقرة فى بيت زوجها ، أما الرجل فهو الذى سيضرب فى مناكب الأرض سعيا وراء القوت لاسيما إذا غدا القوت فى يد الناس كالياقوت . وجاء بعد ذلك الضمير مفردا كذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[7] .

(١) سورة الإسراء آية : ٧٠ .
(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٣) سورة المؤمنون آية : ٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ٥ .
(٥) سورة النساء آية : ٢٥ .
(٦) سورة طه الآيتان : ١١٦ ، ١١٧ .
(٧) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

وتأمل حكمة العليم الحكيم حيث جمع بين الجوع والعرى وبين الظمأ والحر . وقد يبدو الأمر لأول وهلة فى صورة أخرى ، فلسائل أن يقول : لماذا لم يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى وحر الشمس ؟ لكن حكمة الحكيم اقتضت أن يكون هناك جمع بين الجوع والعرى ، لأن الجوع يفقد الجسم حرارته حيث تكون طاقة الطعام قد تبددت ، والعرى يزيد الإنسان جوعا ، فناسب أن تكون الصورة على هذه الكيفية من شدة المعاناة : جوع يصحبه عرى ، وعرى بسبب شدة البرد ، وجوع يفقد الجسم طاقته ، فتأتى الصورة فى أشد معانيها . كذلك الجمع بين الظمأ وشدة الحر ، فشدة الحر تزيد الظمأ لهيبا وتزيد الكبد ظمأ ، فناسب أن يجمع بينهما فى آية واحدة وصدق من قال عن كتابه : ﴿ آلر كتَابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم .

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[2] ، وبعد ذلك قال الله لهما : ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ أى أكلاً هنيئاً ذا سعة ، وهذه منحة من الله ، وقد جرت سنة المولى جل ذكره أن يقرن المنحة بالمحنة ليكون العبد بين الترغيب والترهيب والخوف والرجاء ، فتستقيم حاله وتنتظم خطاه ، ورحم الله أصحاب رسول الله ﷺ ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وهل سلم الأنبياء من الابتلاء ؟ كلا لقد ابتلى نوح فى ابنه . ألم يقل له : ﴿ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾[3] . ألم تعتلج لواعج الشوق فى قلب نوح فقال لربه : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾[4] . ألم يقل له ربه : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾[5] . ألم يبتل إبراهيم فى ابنه بعدما من الله عليه به ؟ ألم ير فى المنام أنه يذبحه ؟ ورؤ يا الأنبياء وحى . ألم يذهب بابنه لينفذ فيه أمر الله وفى هذا يقول العلى الأعلى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾[6] . ثم ماذا ؟ لقد أسلم الوالد وولده الأمر لله . قال تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤ يا إنّا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين ﴾[7] . ويعقوب عليه السلام ، ألم يبتل بفقد يوسف ؟ ألم يسلم الأمر لله ويقول لأولاده : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[8] . ثم ألم يبتل يوسف بمراودة امرأة العزيز له وهو ابتلاء من أشد أنواع ما يبتلى به المرء ؟ ألم يقل لها يوسف : ﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن

(١) سورة هود آية : ١ .
(٢) سورة الرعد آية : ٣٨ .
(٣) سورة هود الأيتان : ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) سورة هود آية : ٤٥
(٥) سورة هود آية : ٤٦ .
(٦) سورة الصافات الأيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ ، ١٠٦ .
(٨) سورة يوسف آية : ١٨ .

مثواى ﴾[١] . ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . ألم يقل يوسف لربه : ﴿ السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ﴾[٢] . ألم يبتل أيوب فى نفسه وماله وأهله ؟ ألم يقل لربه : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾[٣] . ألم يبتل يونس ببطن الحوت ؟ ألم يقل مولانا العظيم : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾[٤] . فنادى فى الظلمات هذا النداء الكريم ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة فى قاع بحر زاخر متجندل : ﴿ فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٥] . ألم يقل فى شأنه رب العزة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[٦] .

ولولا أن يطول الكلام ولا يتسع له المقام لقلنا فى الأنبياء جميعاً ما قلناه فى هذه الكوكبة الطاهرة ، ويكفى أن تعلم أن سيدهم الأعظم وإمامهم الأكرم قد لاقى من البلاء ماتزول من هوله الجبال الشامخات . ألم يرم بالحجارة يوم الطائف حتى دميت قدماه ؟ ألم يرسل برقية عاجلة إلى رافع السماء بلا عمد يطلب النجدة والمدد : (اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٧] . ألم يمت أولاده فى حياته عدا فاطمة ؟ ألم يتجرأ المنافقون عليه حتى بلغ من سوء فعلهم أنهم رموا أم المؤمنين عائشة الناسكة الحصان العفيفة ، رموها بالإفك ، وظلت المدينة شهراً تغلى غليان المرجل حتى قال الرسول لعمر : ما تقول فى عائشة يا عمر ؟ وكان عمر معروفاً بالصرامة فى الحق . قال : يارسول الله من الذى زوجها لك ؟ فقال الرسول الكريم : الله . قال عمر بصراحته المعهودة وهو الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه : يارسول الله أترى أن الله دلس عليك فى زواجها ؟ وظلت المدينة فى فزع طيلة شهر . لو وضعت نفسك فى هذه المحنة ساعة لتصدع فؤادك تصدع الزجاج ، فما بالك بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، والدنيا كلها تشهد من هى عائشة ! والعالم أجمع يعرف من أبوها ، إنها الصديقة بنت الصديق أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة فى سمائها . بهذا شهد الله من فوق سبع سموات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٨] . ثم لمن تقال هذه الأقوال الخبيثة ؟ إنها لاتقال إلا للخبيثين . أما الأقوال الطيبة فإنها للطيبين . ومن أطيب من أم المؤمنين ؟ إن الطيبين مبرءون مما يقول عنهم مرضى القلوب ، قال جل شأنه : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾[٩] . صلى عليك الله ياعَلَم الهدى ما هبت النسائم وما ناجت على الأيك الحمائم .

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٢) سورة يوسف آية : ٣٣ .
(٣) سورة الأنبياء اية : ٨٣ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ٨٧ .
(٥) سورة الأنبياء آية : ٨٨ .
(٦) سورة الصافات الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٢١
(٨) سورة النور الآيات : ٢٣ ــ ٢٥ .
(٩) سورة النور آية : ٣٠ .

فلا عجب أن يبتلى آدم بالنهى عن قرب الشجرة ، لأن الابتلاء سنة الله لمن يعيش على ظهر الأرض ولمن قدر له أن يعيش عليها ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[١] . أما الشجرة التى نهى آدم عن قربها فإنها شجرة لم يرد تعيينها فى الكتاب أو السنة ، إنما كل ماورد فيها أقوال لم تثبت أمام البحث ، فمن قائل أنها شجرة الكرم ، أى العنب ، ومن قائل أنها شجرة الحنطة ، ومن قائل أنها شجرة التين ، ولو كان فى تعيينها فائدة لعينها الله كما عين النخلة التى أمرت مريم بهزها ، ولله حكمة فى عـدم تعيينها حتى لا يشمئز العباد من الأكـل منها . فـالشجرة لا ذنب لهـا ولا حيلة ، إنما كانت أداة اختبار .

وليس بصحيح ما قاله بعض الذين تعثرت أقدامهم وزلت أقلامهم وانفلت خيالهم فقال : إن المراد بها شجرة الجنس ، أو المقصود بها الشر . لأن اللغة لا تساعد على ذلك . فالأصل فى الألفاظ حقائقهـا لا مجازاتها ، وإنما يلجأ إلى المجاز إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى كقولهم سمعت بحراً يخطب ، ويراد به العالم ذا المعرفة الواسعة ، فأى مجاز فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ **فأكلا منها** ﴾ فهل يؤكل الجنس ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . أما الجنة التى كان فيها آدم فقد صال فيها العالمون وجالوا . فمن قائل إنها كانت فى السماء وإنها جنة الخلد ، ومن قائل إنها بستان فى رُبوة عالية . كذلك اختلفوا فى مكانها من الأرض . ولما بحثت هذه الأقوال كلها رأيت أن القوم يضربون فى حديد بارد ، وسألت نفسى : ما ثمرة هذا الخلاف ؟ إن الجنة التى دخلها آدم وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[٢] . فلنقف عند قول الله سبحانه وليس لنا أن نتجاوز الحدود . إنها جنة دخلها آدم وكلف فيها ألا يقرب الشجرة ، ووصفها الله بأوصاف خاصة . فلنؤ ن بها كما وردت ولنأخذ العبرة مما حدث فيها . وهذا القدر يكفينا . قوله تعالى : ﴿ **فتكونا من الظالمين** ﴾ أى آدم وحواء ، أى من الظالمين لأنفسكما وذلك بإخـراجكما من الجنـة . فماذا حدث ؟

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبـطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

والزلل معناه السقوط ، وذلك عن طريق الوساوس الشيطانية . قـال تعالى فى سـورة الأعراف : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالـمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين * فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان

(١) سورة البقرة الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .
(٢) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[١] .

فأنت ترى فى هذه الآيات أن إبليس أقسم لآدم بالله وقال إنى لكما من الناصحين ، ولم يكن آدم يتوقع أن هناك من يقسم بالله كذبا ، فهذا أمر عزيز على نفس آدم ، وهذا يذكرنا بما دار بين المسيح ابن مريم وبين أحد اللصوص ، فقد رأى المسيح لصاً يسرق فقال له المسيح : لماذا سرقت ؟ قال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح . صدق الله وكذبت عيناى ، قالها تمجيداً وتقديساً وتعظيماً لاسم الله ، وهكذا ما كان يدور بخلد آدم أن هناك من يتعرض ليمين الله بالكذب . وفى قراءة ﴿ فأزالهما ﴾ أى أبعدهما عنها ، عن الجنة ، وترتب على ذلك إخراجهما منها ، قال تعالى : ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ وهو تعبير موجز عن معنى كثير ، أى ماكانا فيه من راحة وهناء وأكل رغد ولكنها سنة الله .

وهكذا كما قال جل شأنه : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ ، والهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان أسفل ، وهذا هو الهبوط الحسى ، وقد يكون هبوطاً معنويا كما قال موسى لقومه وقد قالوا له : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ قال لهم : ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ . فهذا هبوط من المن والسلوى إلى القثاء والفوم والبقل والعدس والبصل . نعم إنه هبوط كما قال جل شأنه : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ ، والمراد بمصر أى مكان ينبت هذه الأشياء ، أى غير هذا المكان الذى ينزل فيه المن والسلوى . قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ المقصود بين آدم وحواء وبين إبليس وذريته : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾[٢] . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٤] . وليس بلازم أن يكون إبليس قد دخل الجنة التى كان فيها آدم وحواء ، فقد وسوس لهما من خارج الجنة ، قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ، وقد ذكرت فى هذا المقام أقوال من الإسرائيليات كقولهم إنه دخل فى فم الحية إلى غير ذلك مما تنفر منه العقول السليمة . ولابد لنا هنا من سؤال : كيف يقع آدم فى المخالفة ؟ وقد قال أبو ذر : أرأيت آدم أنبى كان ؟ قال : « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » يعنى عياناً . وللإجابة عن هذا السؤال إن آدم أصاب وكان وقتها ناسيا ، قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩-٢٥ .
(٢) سورة يس الآيات : ٦٠ ـ ٦٢ .
(٣) سورة فاطر آية : ٦ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٢٧ .

نجد له عزما ﴾[١] أى قصدا ، وإنما سماها الله معصية فى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[٢] . ذلك لما كان لآدم من مكانة عظيمة ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

لقد بلغ من مكانة آدم عند الله أن يوم الجمعة نال الكرامات لأن الله خلق آدم فيه . عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ . المراد بمستقر : الاستقرار والعيش فيها ، وهذا مقتضى الأمر الإلهى ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٤] . والحين زمان غير محدود المقدار ، وهكذا نحن فى الدنيا ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٥] . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[٦] . وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾[٧] .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمى عصره
لايعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ماكان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

يابن آدم اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

ياناظراً يرنو بعينى راقد ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدم منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ . سبحانك ربى ياكاشف الضر والبلوى ، ياعالم السر والنجوى ، يامن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

(١) سورة طه آية : ١١٥ .
(٢) سورة طه آية : ١٢١ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٣٠ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٢٥ .
(٥) سورة طه آية : ٥٥ .
(٦) سورة النساء آية : ٧٨ .
(٧) سورة النساء آية : ٧٧ .

أنـت الـذى تهـب الـكـثـير وتجبر القلب الكسير وتغفـر الزلات
وتقـول هـل من تـائب مستغفـر أو سـائل أقضى لـه الحـاجـات

لقد تاب آدم لتتوب ذريته ، وقبل الله التوبة حتى لاييأس العباد من رحمة الله . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾[١] . شاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾[٢] . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[٣] . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٤] . قال العلماء : إن الكلمات التى تلقاها آدم مفسرة بقوله تعالى : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[٥] .

وقال ابن عباس : قال آدم يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى ، ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له بلى ، عطست فقلت يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى ، وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى ، قال أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ .

وقال بعض العلماء الكلمات هى : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم »[٦] .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى أنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾[٩] ، وغير ذلك من الآيات . . وبعدما أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مقترنا بقوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ ، أعاد الأمر بالهبوط مقترنا بقوله تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ قال سبحانه :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . هذا الأمر بالهبوط اقترن بالحكم

(١) سورة الإسراء اية : ٨٤ .
(٢) سورة غافر آية : ٣ .
(٣) سورة الحجر آية : ٤٩ .
(٤) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٢٣ .
(٦) القرطبى جـ١ ص ٣٢٤ .
(٧) سورة التوبة آية : ١٠٤ .
(٨) سورة النساء آية : ١١٠ .
(٩) سورة الفرقان آية : ٧١ .

الإلهى النافذ ﴿ إما يأتينكم منى هدى ﴾ وإن هنا شرطية مقترنة (بما) تقلب توكيد الفعل بعدها كما فى قوله تعالى : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ﴾[1] ، وإما هنا جىء بها بين (إن) والفعل لإفادة توكيد الإتيان ، كأنه تعالى قال : سيأتيكم منى هدى وسوف يترتب على هذا الهدى الذى قد يراد به الإرشاد إلى طريق الحق من باب قوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾[2] وقوله جل شأنه : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾[3] . والرسل داخلون فى هذا الباب دخولاً أولياً . قال تبارك اسمه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[4] . كذلك قد يراد بالهدى الكتب المنزلة على الرسل وعلى رأسها وفى قمة رفعتها القرآن العظيم ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ . فما الذى ترتب على إتيان الهدى ؟ قال جل شأنه : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت . فقد أرسلت إلينا رسلاً وأنزلت عليهم كتباً وخلقت لنا عقلاً ، ذلك كله من باب رحمتك وبرك ولطفك ، وأرشدتنا إلى الطريق فظهر الأمر جلياً ، فمن تبع هداك واتبع رسلك عاش آمناً من خوف ، مطمئناً لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ، لايخاف مما سيأتى ولا يحزن على مافات : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلاً من غفور رحيم ﴾[5] .

إن نفى الخوف والحزن نعمة لاتدانيها نعمة ، وطمأنينة القلب بلقاء الله هى أعظم مملكة يتربع المؤمن على عرشها ، ولذلك أدرك الصالحون هذا . . قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . قال الحسن ياأمير المؤمنين : صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

ولما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة قيل له : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى ، إن ابن آدم يوم يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بهما أحد غيره . الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عن ماله كله . ومن هنا فإن التأمين الحقيقى على الحياة لايكون بإيداع الأموال فى شركات التأمين التجارية الربوية ، إنما هو كما قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ﴾[6] . ماذا يفعلون ياربِ ؟ قال : ﴿ فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[7] . فتقوى الله والقول السديد خير ثمرة فى خير شجرة تظلل على أبنائك بعد موتك . فصاحب

(١) سورة مريم آية : ٢/٦ .
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة الرعد آية : ٧ .
(٤) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٥) سورة فصلت الآيات : ٣٠-٣٢ .
(٦) سورة النساء آية : ٩ .
(٧) سورة النساء آية : ٩ .

المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكئاً . البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان . ومن أجل ذلك فإن الله يطمئن أهل الصلاح ألا تخافوا مما سيأتى ولا تحزنوا على مافات . أما الفريق الثانى فقوم كفروا وكذبوا بالآيات ، جحدوها ولم يصدقوا بها ، فجمعوا بين أكبر جريمتين : الكفر والتكذيب : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(١) . ﴿ إنهم كانوا لايرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شىء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾(٢) .

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . ما أقسى النار ، ولكن الأقسى منها هو الخلود فيها . فالكرب كلما اشتد انتظر الإنسان الفرج ، والليل إذا اشتد ظلامه قرب فجره ، ولكن تنخلع القلوب لوعة وتسيل الكبد مرارة إذا فقد الإنسان الأمل . إنهم قوم قال الله فيهم : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم * يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾(٣) . وقد جاء فى سورة طه قوله جل شأنه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾(٤) .

فانظر معى كيف جمع الله للذين اتبعوا هداه وسلكوا سبيل مرضاته ، جمع لهم بين سعادة الدارين ، لايضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو بالاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما السعادة فى رضا الله ، ولقد كان قوم من الصالحين يبيتون على الطوى ويقولون نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . وفى سورة النحل مايجمع للمؤمنين بين خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٥) ، وقال جل شأنه : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾(٦) ، وقال تبارك اسمه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٧) ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(٨) .

وهكذا لا يضل من اتبع هدى الله فى الدنيا . ومن يعتصم بالله فقد هـدى إلى صراط مستقيم ، ولا يشقى فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لايسمعون

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٩ .
(٢) سورة النبأ الآيات : ٢٧-٣٠ .
(٣) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) سورة طه الآيات : ١٢٣-١٢٧ .
(٥) سورة النحل آية : ٤١ .
(٦) سورة النحل آية : ٣٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٩٧ .
(٨) سورة النحل الآيات : ١٢٠-١٢٢ .

حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[1] . أما الفريق الثانى ، وهو الذى أعرض عن ذكر الله ، فقد حقت عليه الشقاوة فى الدنيا والآخرة . فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

يابارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يامن لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[2] ، أى يعيش فى ضيق ولو كان يملك من الأموال جبالاً ومن الذهب والفضة القناطير المقنطرة ، ومن الخيل المسومة ماتضيق به أودية مكة ، ومن النساء والجوارى مايفوق جمالهن ملكات الجمال . سوف تضيق عليه الأرض بما رحبت ، لأنه مثل الذى يشرب الماء الملح ولا يزيده إلا ظمأ على ظمأ ، تراه دائماً فى كرب ، إن أقبلت عليه الدنيا طلب المزيد ، وإن أعرضت عنه تقلب فى فراشه ليلاً أو نهاراً لا يطمئن جنبه فى المضاجع ولا يذوق للراحة طعماً .

إن الصادق المعصوم ﷺ قال لابن عمر : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور)[3] ، وقال لأبى ذر : (جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود) . ولذا كان أحدهم يقول : « حفر بئرين بابرتين ونزح بحرين بغربالين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وهش أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى » . وليت العذاب قد اقتصر على دار الدنيا ، إنما هو ممتد إلى دار الآخرة ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وما أدراك ما العمى فى الآخرة ؟ إنه الحيرة كلها والشقاء كله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً * ذلك جزاؤ هم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾[4] . حتى يقول العبد : ﴿ رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ﴾[5] فيأتيه الجواب الصادق : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[6] .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أخذ مضجعه لينام يقول لنفسه : ماذا تقول لربك غداً يا عمر ؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، وكنت وضيعاً فرفعك الله . وكان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[7] . وكان يقول : لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد .

(١) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١-١٠٣
(٢) سورة طه آية : ١٢٤ .
(٣) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة الإسراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .
(٥) سورة طه آية : ١٢٥ .
(٦) سورة طه آية : ١٢٦ .
(٧) سورة الحاقة آية : ١٨ .

فمن يبـارى أبـا حفص وسيـرتـه ... أو من يحـاول للفـاروق تشبيهـا
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقـال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فـأشريهـا
ما زاد عن قوتنا فالمسلمـون به أولى ... فـقـومى لـبيـت المـال رديهـا

وكان على كرم الله وجهه إذا أرخى الليل سدوله يتمثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، أى الذى لدغته حية ، ويبكى بكاء اليتيم ويقول : يادنيا غرى غيرى ألى تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير وخطرك حقير . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

تـزود من التقـوى فـإنـك لاتـدرى ... إذا جن ليـل هل تعيش إلى الفجـر
فكم من فتىً أمسى وأصبح ضاحكاً ... وقـد نسجت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينوهـا لـزوجهـا ... وقـد قبضت أرواحهم ليلة القـدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمـة القبر
وكم من صحيح مات من غـير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

تباركت ربنا وتعاليت . حكمت لمن اتبع هداك بأنه لايخاف ولا يحزن ولا يعتل ولا يشقى ، وحكمت على من كذب بآياتك وكفر بها بأنه مخلد فى النار وبأن له معيشة ضنكا وتحشره يوم القيامة أعمى . سبحانك أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤ ك حق والساعة حق والجنة حق والنار حقٌ . اللهم عليك توكلت وإليك أنبت ولك حاكمت وبك خاصمت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت .

يـا من يجيب العبـد قبـل سؤالـه ... ويجـود لـلعـاصـين بـالغـفـران
وإذا أتـاه الـطالبـون لـعـفـوه ... سـتر القبيح وجـاد بـالإحسـان

أستحى أن أسألك وأنا أنا ، وكيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإنّ عفوك لا حد له ولا نهاية .

يـارب إن عـظمت ذنـوبى كثـرة ... فلقـد علمت بـأن عفـوك أعـظم
إن كـان لا يـرجـوك إلا محسـن ... فـبمـن يـلوذ ويستـجـير الأثـم
أدعـوك ربى كـما أمـرت تضرعـاً ... فـإذا رددت يـدى فمن ذا يـرحم
مـالى إليـك وسيلـة إلا الـرضـا ... وعـظيم عـفـوك ثـم أنى مسلم

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله .

﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلاً وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . لما ذكر الله تعالى قصة آدم وما يتعلق بها من تعليمه الأسماء وجعله خليفة فى الأرض وإسجاد الملائكة له وإدخاله الجنة وأكله من الشجرة وتوبة الله عليه ، يبين بعد ذلك الطريق المؤدى إلى الجنة ونعيمها فقال : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . كما بين مصير الذين انحرفوا عن الصراط وتجنبوا الجادة فقال : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بئاياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لما بين الله كل هذا ذكر نموذجاً بشرياً من أبناء آدم ، وهم بنو إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب نبى الله ، وسمّى إسرائيل لأنه كان صفياً لله مجاهداً فى الله . فإسرائيل معناه صفى الله ، والمقصود به يعقوب .

روى أبو داود بسنده إلى عبد الله بن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى نبى الله ﷺ فقال لهم : (هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ قالوا : اللهم نعم . فقال النبى ﷺ : اللهم اشهد) . ونعمة الله التى أنعم بها على بنى إسرائيل كثيرة . قال مجاهد : « نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ، ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون » .

قال أبو العالية : نعمته أن جعل فيهم الرسل والأنبياء وأنزل عليهم الكتب . قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وءاتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ﴾[1] .

والمراد بعهد الله هو العهد الذى أخذه عليهم أن يؤمنوا بخاتم أنبيائه محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ . كذلك يشمل الإيمان بالله إيماناً جازماً صادقاً . وهذا العهد الأول ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن ءامنوا بى وبرسولى قالوا ءامنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[2] ، فإذا كان الله قد أمرهم بالإيمان بعيسى فى هذه الآية ، فقد أمرهم عيسى بالإيمان بمحمد ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[3] . كما أمرهم موسى أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه ، وكل الأنبياء الذين أرسلوا إليهم أمروهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه . قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[4] . قال الحسن البصرى رضى الله عنه : إن المراد بعهد الله الذى أخذه عليهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وءامنتم برسلى

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٢) سورة المائدة آية : ١١١ .
(٣) سورة الصف آية : ٦ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٨١ .

وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾(١) . وقال آخرون : هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين .

وقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : هل تجد لرسول الله ﷺ وصفاً فى التوراة ؟ فقال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ؛ قال الله تعالى له فى التوراة : (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً وآذانا صماً وقلوباً غلفاً) . وقد جاء تفصيل ذلك فى سورتى الأعراف والفتح ؛ قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوٰة والذين هم بئايٰتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فئامنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(٢) . وفى سورة الفتح يقول تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(٣) .

أما قوله تعالى : ﴿ أوف بعهدكم ﴾ هكذا مجزوماً فى جواب الطلب ، وكأنه تعالى يقول لهم إن توفوا بعهدى وتدخلوا الإسلام أوف بعهدكم فأرضى عنكم وأدخلكم الجنة ، وإنما خاطبهم فى صورة أبيهم يعقوب فقال : ﴿ يابنى إسرائيل ﴾ ، ولم يخاطبهم بذواتهم لإثارتهم وحفزهم وتقوية هممهم للإيمان والإسلام الكامل ، أى يا أبناء الرجل العظيم المؤمن الذى وصاكم بالإسلام كونوا مثل أبيكم قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلٰها واحدًا ونحن له مسلمون ﴾(٤) . قوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أى لاتخافوا أحداً سواى وخافونى أنا ، فأنا الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله . سبحانه

(١) سورة المائدة آية : ١٢ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) سورة الفتح آية : ٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآيات : ١٣٠ ، ١٣٣ .

علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر . فمن خاف الله خوف الله منه جميع خلقه ، ومن لم يخف الله خوفه الله من جميع خلقه ، ومن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله مابين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . ومن الوفاء بعهد الله الإيمان بكل ماأنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ . وهو مصدق لما جاء فى الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾[١] . وقال لبنى إسرائيل : ﴿ وءامنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ فأنتم أولى الأمم بتصديق ما أنزل على محمد والإيمان به ، فأنتم تعرفونه حقاً كما تعرفون أبناءكم . لما نزل قوله تعالى : ﴿ الذين آتينهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[٢] ، قال عبد الله بن سلام : والله إنى لأعرف أنه نبى الله حقاً أكثر مما أعرف ابنى بأنه ابنى ، قالوا : وكيف يا ابن سلام ؟ قال : لأن ابنى قد يجوز أن يكون من غيرى ، أما محمد فقد نزل الأمين من السماء على أمين الأرض والسماء بأنه رسول الله ، فما أشك فى هذا ؟

ثم قال تعالى فى مجموعة الأوامر والنواهى التى وجهها إلى بنى إسرائيل : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ ، وهذا موقف يدعو إلى الأسى والأسف . فأنتم الذين يجب عليكم أن تكونوا أول مؤمن به ، فقد أخبرتكم كتبكم المنزلة بأنه نبى الله حقاً وصدقاً ، وبأن القرآن حق وصدق لا مرية فيه ولا ريبة . ثم قال لهم تعالى بعد ذلك : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾ ، والثمن القليل هنا هو الدنيا ، أى لاتجحدوا الآيات المنزلة على خير خلق الله وتبيعوها مقابل الدنيا وسلطانها وزخارفها ومناصبها ، فإنها ثمن قليل ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ؛ فصفوها كدر ، والوصل هجران ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾[٣] . ثم قال لهم مولانا : ﴿ وإياى فاتقون ﴾ أى أنا الأولى بالتقوى ، والتقوى هى السلاح الأقوى . وقد أشار النبى ﷺ إلى صدره وقال : (التقوى ها هنا) . قال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ﴾[٤] .

إذ المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

والتقوى كلمة جامعة لشُعب البرِّ كلها ، قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ ولكن البرَّ مَن اتقى ﴾[٦] ، وفسر هذه الكلمة العظيمة فى آية جامعة لأنواع الخير كله ، فقال سبحانه : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٧] .

(١) سورة المائدة آية : ٤٨ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٦ .
(٣) سورة النساء آية : ٧٧ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٩٧ .
(٥) سورة النساء آية : ١٣١ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٨٩ .
(٧) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

لقد وجه الله تعالى إلى بنى اسرائيل من الأوامر والنواهى ما لو عملوا به واستمسكوا به لنالوا سعادة الدنيا ورضوان الله فى الآخرة ، فأمرهم تعالى أن يذكروا نعمته فقال : ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** ﴾ ، وأمرهم ثانيا بالوفاء بعهده فقال : ﴿ **وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم** ﴾ ، وأمرهم ثالثا أن يخافوه وحده فقال : ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ ، وأمرهم رابعا أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم الأنبياء فقال : ﴿ **وءامنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾ ، ثم نهاهم أولاً عن أن يكونوا أول الكافرين به فقال : ﴿ **ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ ، ثم نهاهم ثانياً عن أن يبيعوا آيات الله ويشتروا الدنيا فقال : ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً** ﴾ ، ثم أمرهم خامساً بتقواه وحده ، والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فقال : ﴿ **وإياى فاتقون** ﴾ ، ثم نهاهم الله ثالثاً عن أن يلبسوا الحق بالباطل ويخلطوا هذا بذلك ويخلطوا الصدق بالكذب والعدل بالظلم والرشوة بالأحكام ، وكل هذا خلط لا يليق ولا يجمل ، وفى نفس الوقت يكتمون الحق الذى قرأوه ودرسوه فى التوراة ، ومنه إنكار نبوة سيد المرسلين ، وهم يعلمون علم اليقين أنه حق لا مراء فيه ، قال تعالى : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ . فما أسوأ العبد إذا خلط الظلمة بالنور وكتم الحق وخلط الأمور بعضها على بعض مع علمه بكل ما يفعل أنه خلط وباطل وإنكار وجحود ! إنه عَلِمَ فلم يعمل بما علم فاستحق أن يكون من المغضوب عليهم . نسأل الله أن يحول بيننا وبينهم ، فاهدنا الصراط المستقيم يارب العالمين ، ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . ثم أمرهم مولانا سادساً بإقام الصلاة ، وسابعاً بإيتاء الزكاة ، وثامناً بالركوع مع الراكعين . فهذه تسعة أوامر وثلاثة نواه وجهت إلى بنى إسرائيل . وقد أمرهم الله بإقام الصلاة لأن فيها طهارة للقلب ؛ قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ؛ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلؤه بعزتى ، واستحفظه ملائكتى ؛ أجعل له فى الظلمة نوراً ، وفى الجهالة حلماً . ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة . ففى الصلاة طهارة للقلب ، وفى الزكاة طهارة للمال ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] . وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وقال ﷺ : (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستعينوا على حمل البلاء بالدعاء والتضرع)[2] . ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، ولذلك لم تكن الزكاة منّة يمن بها الغنى على الفقير ، إنما هى حق معلوم الثبوت واجب الأداء ، وإنما سميت صدقة أو زكاة لأنها دليل الصدق مع الله ، فالمال عزيز على النفس ، والنفس مطبوعة على الشح ، فمن دفعها فقد صدق الله فى النية . وسميت زكاة لأنها طهر ونماء قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[3] . ثم أمرهم تعالى تاسعاً بقوله :

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ . (٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧٦ دار الفكر .

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ ، أى الزموا جماعة المسلمين ، وسيروا فى هدى المصطفى الأمين ، وأخلصوا النية للإسلام ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة والتزموا الجماعات فى أعظم الأركان ، فاركعوا معهم والتزموا هديهم وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهى .

لا يليق بالعقلاء

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلوٰة وإنها لكبيرة إلا على الخشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

ألقى الله تعالى باللائمة على كل من يأمر الناس ولا يأتمر ، وينهاهم ولا ينتهى . وهذا حكم شامل لبنى إسرائيل وغيرهم ، فالقدوة أساس الدعوة ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[1] ، وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب ، وهو يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[3] . إن النفس تذوب خجلاً ، وإن الفؤاد يذهب شعاعاً أمام الهمزة الاستفهامية مع قوله تعالى : ﴿ أتأمرون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ كيف يتأتى ذلك منكم ؟ ماكان يليق أن يصدر هذا من عاقل ، وفى هذا يقول القائل :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما	إذ عبت فيهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً عاملين لها	وأنت أكثر منهم رغبة فيها

ومن ثم كان الوعيد شديداً والإنكار بالغاً : ﴿ أتأمرون ﴾ و﴿ تنسون ﴾ ؟ أتأمرون غيركم ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ . أتأمرون الناس بالبر ، وهو حسن الخلق والتقوى والكلمة الجامعة لشعب الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً ، ولا تتوجهون بالأمر إلى أنفسكم وأنتم أولى الناس بالامتثال ؟ إنه لا يفعل هذا إلا من سفه نفسه وأصيب بالخبال . ولذا جاءت الفاء فى قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره : أجننتم فلا تعقلون ؟ أسفهتم أنفسكم فلا ترشدون ؟ قال ﷺ : (مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه)[4] ، ويقول ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ؛ قال قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)[5] . وقال ﷺ : (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنزلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يافلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول لهم : كنت آمركم

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .
(٢) سورة هود آية : ٨٨ .
(٣) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٢٩ ط دار الفكر .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٢ ط الشعب .

بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)[١] . وقال ﷺ : (إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء)[٢] . وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٣] . وقد ورد فى بعض الآثار : « أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم » . وقال ﷺ : (إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل)[٤] .

ثم أمر الله تعالى عباده أن يستعينوا على مرضاته وطلب ما عنده من رضوان بالصبر والصلاة فقال : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . والصبر والصلاة من خير ما يستعان به فى طلب ما عند الله . وقد جاء كل منهما منصوبا على الاختصاص لما له من جليل القدر وكريم المنزلة . جاء ذكر الصابرين منصوبا على الاختصاص فى آية البر فى قوله جلّ شأنه : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾[٥] .

فقد جاء ذكر الصابرين منصوبا ، كأنه تعالى يقول : وأخص الصابرين من بين الأبرار ، كما جاء المقيمين الصلاة منصوبا على الاختصاص فى قوله تعالى : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[٦] .

فأنت ترى هنا أن لفظ ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ جاء منصوبا على الاختصاص كأنه تعالى يقول : وأخص المقيمين الصلاة بالمدح . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه أعم ، فالصبر فى الأعمال كلها مرغوب فيه وممدوح صاحبه ، وهو فى الصلاة أوقع وأفضل ، إذ الصبر فى الصلاة يسرى فى أوصالها ويتغلغل فى خلاياها سريان ماء الورد فى الورد ، أو كما يسرى الماء فى العود الأخضر . وصلاة بلا صبر شوهاء لاخشوع فيها . وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[٧] . قالت أم المؤمنين عائشة : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

وقيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى والموت ورائى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى والله تعالى مطلع علىَّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها فإذا سلّمت لا أدرى أقبلها الله أم ردَّها علىَّ . الصبر مع الله وفاء ، والصبر فى الله رضاء ، والصبر بالله ولاء ، والصبر لله استغناء ، والصبر عن الله جفاء .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٨٥ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٩١ ط دار الفكر .
(٣) سورة الزمر آية : ٩ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ط دار الفكر .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(٧) سورة المؤمنون الآيتان : ١ ، ٢ .

فما هو الصبر ؟ هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح .

وقيل : إن الصبر هو ثبات باعث الدين مقابل باعث الشهوات . وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصى ، ولهذا قرنه الله بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

والصبر قد يكون جسمانيا وقد يكون نفسانيا ، فإذا كان احتمالا للكد وتحملا لمشقات الحياة كان صبرا جسمانيا ، وقد يكون نفسانيا ؛ فالصبر على جهل الجهلاء حلم ، والصبر عن الشهوات عفة ، والصبر عن جمع المال قناعة ، والصبر على تحمل الشدائد شجاعة . وقد وردت عن النبى ﷺ أحاديث ترغب فى الصبر وتبين ما للصابرين من مثوبة عند رب العالمين . وقد نزلت هذه الأحاديث على أهل البلاء كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى . ولما كنت واحدا من أهل البلاء رأيتنى أناجى ربى قائلا :

مـا مسنى قـدر بكـره أو رضـا ... إلا اهتـديت بـه إليـك طـريقـا
أمضى القضاء على الرضا منى به ... إنى عـرفتـك فى البـلاء رفيقـا

نعم عرفت ربى فى البلاء رفيقا عندما سلبنى موهبة البصر وجعل أفئدة من الناس تهوى إلىَّ . فما أجمل الصبر ، وما أعظم أجر الصابرين ، وما أكرم قـوله جـلَّ شأنـه : ﴿ إنما يـوفَّى الصابـرون أجرهم بغير حساب ﴾[1] .

قال ﷺ فى الترغيب فى الصبر : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر)[2] . عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وجسد على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خوفا فى نفسها ولا ماله)[3] . وعن علقمة قال قال عبد الله : الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله .

إن الأمـور إذا اشتـدت مسـالكهـا ... فـالصبـر يفتـح منها كـل مـارتجـا
لا تـيـأسَنَّ وإن طـالـت مـطالـبـه ... إذا استعنت بصبـر أن تـرى فـرجـا
أخلق بـذى الصبر أن يحـظى بحاجتـه ... ومـدمن القـرع لـلأبـواب أن يلجـا

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[4] .

(1) سورة الزمر آية : ١٠.
(2) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٢٤ ط دار التراث .
(3) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٤٠ ط دار الفكر .
(4) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٤٧ ط دار الفكر .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : (إن الله عز وجل قال : يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم مايحبون حمدوا الله ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمي وعلمي)[١] .

إذا ما أتاك الدهر يوما بنكبة فأفرغ لها صبرا وأوسع لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبة فيوما ترى يسرا ويوما ترى عسرا

وروى عن شجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعطى فشكر وابتلى فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظُلِم فغفر ، ثم سكت فقالوا : يارسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[٢] .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما ابتلى الله عبدا ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عزَّ وجلَّ أو يدعو غير الله فى كشفه)[٣] .

كن حليما إذا بليت بغيظ وصبورا إذا أتتك مصيبة
فالليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أيُّ الناس أشدُّ بلاء ؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة)[٤] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينصب لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا ، حتى إن أهل العافية ليتمنون ، فى الموقف ، أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله)[٥] .

تصبر أيها العبد اللبيب لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت يكون وراءها فرج قريب

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أحب الله عبدا أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وشجه عليه شجا . فإذا دعا العبد قال : ياربَّاه ، قال الله : لبيك ياعبدى لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك وإما أن أدخره لك)[٦] .

أما عن الصلاة ، فيكفيك أن تعلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة . ولقد أخبر

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ط ٢ ، محمد على صبيح وأولاده ١٩٦١ م .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٦٣ ط وزارة الأوقاف .
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٥ .
(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦٦ .
(٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦٦ .

عبد الله بن عباس بوفاة أخيه فنزل عن دابته وصلى ، فقيل له فى ذلك فقال : أوماقرأتم قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾[١] . وقد أخبر الصادق المعصوم أن الصلاة نور ، والصبر ضياء . والضياء مصدر النور ، فنور الصلاة مستمد من ضياء الصبر . قال جلّ شأنه : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾[٢] . ومن الثابت المعلوم أن القمر يستمد نوره من ضوء الشمس ، فما أجمل الشمس والقمر إذا اجتمعا فى قلب المؤمن ، وما أعظم الصبر والصلاة إذا استعان بهما المؤمن على طلب مرضاة الله .

وقد مر عليه الصلاة والسلام بأبى هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : (أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم . قال : قم فصل فإن الصلاة شفاء) .

قوله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ . الضمير هنا عائد على الصلاة ، فالصلاة التى أوصانا الله بأدائها عهد بيننا وبينه حتى قال الرسول ﷺ : (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة)[٣] . فأداء الصلاة بأركانها وشروطها والمحافظة عليها فى أوقاتها والمداومة على أدائها أمر ثقيل على فريق من الناس إلا الخاشعين منهم ، وهم الذين امتلأت قلوبهم من خشية الله وتواضعوا فى أدائها لله ، ودرسوا شروط وجوبها وشروط صحتها ووقفوا عند شروط قبولها ، وغاصوا فى بحار قول الله عزَّ وجلَّ فى الحديث القدسى الجليل : (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب . ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى واستحفظه ملائكتى ، أجعل له فى الظلمة نورا ، وفى الجهالة حلما ، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة)[٤] .

كفاكم أيها الصابرون فخراً أن الله قد استثناكم من ذوى الطباع السيئة فأنقذكم منهم . قال تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)[٥] .

وكفاكم أيها المصلون عزّاً أن الله تعالى استثناكم من ذوى الطبائع السيئة كما استثنى الصابرين واستنقذكم منهم . قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[٦] . فمن هؤلاء الخاشعون الذين نفذوا وصية الله وصانوا عهده والذين شملهم قوله تعالى : ﴿ وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا ومايلقّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[٧] ؟ إنهم هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ . المراد بالظن هنا العلم اليقينى لا الظن الذى هو إدراك الطرف الراجح فإنه لا يفيد فى العقائد . وقد ورد من كلام العرب

(١) سورة البقرة آية : ١٥٣ . (٢) سورة يونس آية : ٥ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤٨٩ ط دار الفكر .
(٤) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٣٦ ط ٢ محمد على صبيح ١٣٨٠ – ١٩٦١ .
(٥) سورة هود الآيات : ٩ – ١١ .
(٦) سورة المعارج الآيات : ١٩ – ٢٣ . (٧) سورة فصلت آية : ٣٥ .

وأشعارهم مايدل على أن الظن يأتي بمعنى اليقين والعلم ، ومنه قول عمير بن طارق :

فـإن يعبروا قـومي وأقعـد فيكم وأجعـل منى الظن غيبـا مـرجما

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما .

ومن الظن الذى يفيد العلم اليقيني قوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾[١] ، وقـوله جـل شأنـه : ﴿ فأمـا من أوتى كتابـه بيمينه فيقـول هاؤم اقـرءوا كتابيـه * إنى ظننت أنى مـلاق حسابيه ﴾[٢] . فهؤلاء الخاشعون هم الذين علموا علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل عين اليقين أنهم ملاقوا ربهم ، وذلك بعدما يفارقون الدنيا ليضعوا أقدامهم على عتبة اللانهائية ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٣] .

فأيامنا خمسة : يوم مفقود ، وهو الذى مضى ولن يعود ؛ ويوم مشهود ، وهو الذى نحن فيه ، وهو الذى ينادى على ابن آدم : « أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » ؛ ويوم مورود ، وهو الغد الذى لا يعلم مافيه إلا الله وحده ؛ ويوم موعود ، وهو يوم لقاء الروح بخالقها . ﴿ كلا إذا بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق ﴾[٤] ، وهذا هو المقصود بلقاء الله ؛ ويوم ممدود ، وهو اليوم الذى ينادى فيه مالك الملك وملك الملوك : يادنيا أين بحارك وأين أنهارك وأين قصورك وأين جبالك ؟ أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين عاشوا فى خيرى وعبدوا غيرى ؟ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٥] . ﴿ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٦] .

نعم الله على بنى اسرائيل

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ

(١) سورة الكهف آية : ٥٣ .
(٢) سورة الحاقة الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة الواقعة الآيات : ٨٣ ، ٩٦ .
(٤) سورة القيامة الآيات : ٢٦ - ٣٠ .
(٥) سورة مريم آية : ٤٠ .
(٦) سورة القيامة الآيات : ٧ - ١٣ .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

وعاد الخطاب مرة أخرى إلى بنى إسرائيل يذكرهم فيه الخالق العظيم بنعمه عليهم ، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من النعم ، كتفجير الحجر ، وإنزال المن والسلوى ، وماذكرهم به موسى فى قوله تعالى : ﴿ ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ﴾(١) . وإنما كرر الخطاب لما عرف منهم من كثرة الجحود والإنكار . أليسوا هم الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ وهم الذين قالوا : يد الله مغلولة ؟ . والجاحد فى حاجة إلى تذكير دائم . إنهم بإرسال الرسل إليهم ، وبما أنزل عليهم من نعم يعتبر تفضيلا لهم على عالم زمانهم خاصة لا على العالمين فى كل زمان ، لأن الله تعالى قال فى أمة محمد ﷺ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤ منون بالله ﴾(٢) . وهذا إن كان فيه تذكير للذين حضروا وعاصروا نزول القرآن ، فإن تكريم الآباء ولا شك فيه شرف للأبناء ، وإن الإنعام على الأجداد يستدعى أيضا شكر النعمة من الأحفاد . وقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد فقال : ﴿ **واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا** ﴾ . وتنكير يوم يدل على تفخيمه ومافيه من أهوال جسام . فياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، فاحذروا مايقع فى هذا اليوم من قبل أن يأتى .

كان عمر رضى الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا .

ومن أهوال هذا اليوم ماذكره الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ **لا تجزى نفس عن نفس شيئاً** ﴾ ، أى لا تغنى نفس عن غيرها ولا تحاسب بالنيابة عنها ، بل كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٣) . وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل *

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٣) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما * يُبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾[١] . وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٢] .

يلقى الولد والده فيقول له : يا أبت لقد كنت بك بارا وإليك محسنا وعليك مشفقا ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو .

وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى : لقد كان بطنى لك وعاءً ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول لها يا أماه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فلا تزر وازرة وزر أخرى * وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[٣] . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾[٤] . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[٥] . ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[٦] .

ويأتى الهول الثانى المذكور فى هذه الآية فيقول تعالى : ﴿ **ولا يقبل منها شفاعة** ﴾ ، لأن الشفاعة لاتكون إلا للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فلا شفاعة لهم . قال تعالى : ﴿ إلا أصحاب اليمين * فى جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾[٧] . وقال جلَّ شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾[٨] .

أما الشفاعة الحقيقية فتكون للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٩] . وقال جلَّ شأنه : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[١٠] . ولرسول الله ﷺ عدة شفاعات ، منها الشفاعة العظمى بتعجيل الحساب ؛ وحتى أن أهل الموقف يتوجهون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل منهم لست هنالك ، فيتوجهون إلى خاتم الأنبياء ، نبى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتى العرش العظيم ويسجد لله سجدة ويسأله فصل القضاء ، فينادى : يا محمد ، ارفع رأسك وقل ماتشاء نسمع ، واشفع تُشفَّع .

(١) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥ .
(٢) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٣٧ .
(٣) سورة فاطر آية : ١٨ .
(٤) سورة لقمان آية : ٣٣ .
(٥) سورة المدثر آية : ٣٨ .
(٦) سورة الطور آية : ٢١ .
(٧) سورة المدثر الآيات : ٣٩ - ٤٨ .
(٨) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ - ١٠١ .
(٩) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .
(١٠) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا فلا أحد فى الرسل يشفع إلاه
فيسجد تحت العرش لله سجدة ويسأل فصل القضاء فيعطاه

وهذا هو المقام المحمود الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾(١) .

وهناك شفاعة للرسول يدخل بها قوما الجنة بغير حساب ، وشفاعة للمذنبين ، وذلك ماجاء فى قوله ﷺ : (شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، فمن كذب بها لم ينلها)(٢) . وهناك شفاعة يخرج بها بعض عصاة الموحدين من النار .

قوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ ، أى فدية . قال تعالى : ﴿ فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾(٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين ﴾(٤) . قال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾(٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾(٦) . فقوله جل شأنه : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ هَوْل ثالث . ويأتى الهول الرابع ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ، أى لا يجدون لهم ناصرا ﴿ يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر ﴾(٧) . قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ﴾(٨) . وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾(٩) .

ثم أخذت الآيات تفصّل النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ؛ قال تعالى : ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ . واذكروا يابنى إسرائيل نعمة الله عليكم حين نجاكم من آل فرعون والمقصود بالـ ﴿ آل ﴾ الأهل ، إلا أنها تستعمل لأصحاب البيوتات الكبيرة ، وفرعون اسم لملك مصر . لماذا نجاهم من آل فرعون ؟ إنقاذا لهم من ظلمهم ، فقد كانوا يكلفون بنى إسرائيل من الأعمال ما يسوؤ هم ، ويذيقونهم أشد العذاب . فقد دخل بنو إسرائيل مصر أيام كان يوسف على خزائن الأرض ، وتناسلوا وتكاثروا حتى بلغ عددهم ستمائة ألف طوال أربعة قرون وثلاثين سنة . ولقد رأى فرعون فى المنام ناراً تأتى من جهة القدس ، فسّرها له علماء الرؤ ى بأن هذه النار التى جاءت من القدس إلى مصر أن زواله سيكون على يد رجل من بنى

(١) سورة الإسراء آية : ٧٩ .
(٢) الجامع الصغيرجـ ٢ ص ٧٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة الحديد آية : ١٥ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٩١ .
(٥) سورة المائدة آية : ٣٦ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٨٧ - ٨٩ .
(٧) سورة الطارق الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٨) سورة الصافات الآيات : ٢٢ - ٢٦ .
(٩) سورة آل عمران آية : ٢٢ .

إسرائيل . فجن جنونه وثارت ثورته وغلت مراجل الغضب فى عروقه ولم يبق لديه فى قوس الصبر منزع ، فأمر بذبح الأبناء من بنى إسرائيل ، واستحياء النساء ، أى تركهم أحياء . قال تعالى : ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[١] . ثم بين لهم الله تعالى أن ماقام به فرعون من التذبيح والعذاب إنما هو بلاء عظيم ، والبلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[٢] .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى فقال : ﴿ **وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا ءال فرعون وأنتم تنظرون** ﴾ . والمقصود بفرق البحر فصل بعضه عن بعض وتحويله إلى طرق يابسة بعدد أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر ؛ والسبط ولد الولد ، وهو فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، فبعدما دارت المعركة الفاصلة بين سحرة فرعون وموسى أوحى الله إلى موسى أن يلقى عصاه ﴿ فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن ءامنا بئايات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾[٣] . وتملك فرعون الغضب وركب الشيطان رأسه ، فصلبهم فى جذوع النخل . وسبحان مقلب القلوب ؛ كانوا فى الصباح يقسمون قائلين : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[٤] ، وبعد ظهور الحق قالوا وهم يقسمون بالله قائلين : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾[٥] . سبحانك يا مقلب القلوب ؛ لقد كانوا فى الصباح سحرة كفرة ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة . وتمت المأساة الفرعونية ، فاسم فرعون إذا أطلق يراد به ملك مصر ، كما يطلق القيصر ويراد به ملك الرومان ، ويطلق كسرى ويراد به ملك الفرس ، ويطلق النجاشى ويراد به ملك الحبشة . ثم أميط اللثام عن المشهد الحاسم : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميعٌ حذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين ﴾[٦] . وهنا نصل إلى حافة الهاوية لأعداء الله ؛ قال تعالى : ﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾[٧] . لما عبر موسى وقومه البحر الأحمر ظن فرعون أن

(١) سورة القصص الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١١٧ - ١٢٦ .
(٤) سورة الشعراء آية : ٤٤ .
(٥) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ - ٦٠ .
(٧) سورة الشعراء الآيات : ٦١ - ٦٤ .

الطريق مازالت مهيأة له فى البحر ، فأراد موسى أن يطبق البحر كما كان فيضربه بالعصا حتى لا يستطيع فرعون وقومه العبور ، فأوحى الله إليه أن يا موسى اترك البحر رهوًا ، أى ساكنا كما هو ، إنهم جند مغرقون ؛ ويصف الله هذا المشهد الرهيب فيقول : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا حتى إذا أدركه الغرق قال ءامنت أنه لا إله إلا الذى ءامنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[1] ، فكان الجواب : ﴿ ءالئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءاية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[2] .

إن نجاة بنى إسرائيل من فرعون نعمة ، وتلك نعمة أخرى ذكرها الله فى قوله : ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ . فنظر الناجى إلى عدوه الهالك نعمة بعد نعمة النجاة كان يجب أن تقابل بالشكر ، لكنهم ، والأسف شديد ، قابلوها بخلاف ذلك وأقدامهم مازال بها أثر البلل من ماء البحر . ماذا قالوا لموسى ؟ اسمع إلى قوله جلّ شأنه : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم ءالهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضلكم على العالمين ﴾[3] . وذكرهم الله بنعمة أخرى ، فقد وعد موسى أربعين ليلة لينزل التوراة بما فيها من أحكام وهداية ، قال تعالى : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة** ﴾ وأخذ موسى خيار بنى إسرائيل ليتلقى التوراة . فماذا فعل بنو إسرائيل فى غيبة موسى ؟ اسمع إلى قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[4] . قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ . نعم لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . وبعد ذلك عفا الله عنهم ليشكروه ، قال تعالى : ﴿ **ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون** ﴾ . وهناك نعمة أخرى هى إتيان موسى التوراة فيها هدى ونور ليحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، كما آتاه الله الفرقان ، وهى الآيات المعجزة التى لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء . فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهر على أيدى الأنبياء تصديقاً لهم فى دعواهم مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله ، قال تعالى : ﴿ ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات ﴾[5] ، وكان ذلك كله ليهتدوا ويعلموا أن الله هو الحق المبين ، وحيث إنهم عبدوا العجل وأشركوا بالله ، و﴿ قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾ فلابد لهم من توبة ؛ ولكن ما شروط هذه التوبة ؟ إنها توبة لابد أن يدفعوا ثمنها بسخاء ، وما ثمنها لكى يتوب الله عليهم ؟ أن يقوم الموحدون المخلصون الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوه ، وإنما قال تعالى : ﴿ **فاقتلوا أنفسكم** ﴾ لأن المؤمن للمؤمن كنفسه ، قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[6] أى لا تصيبوا غيركم ، فنفذوا أمر الله وقتلوا الذين وقعوا فى تلك الزلة ، فتاب الله عليهم بعدما نفذوا الأمر الإلهى ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب**

(١) سورة يونس آية : ٩٠ .
(٢) سورة يونس الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٠١ .
(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

الرحيم ﴾ ، وبارئكم هو خالقكم ، وتاب عليكم بمعنى قبل التوبة منكم ، إنه عظيم المتاب على عباده ، رحيم بهم ، يرفع العذاب عنهم فى الآخرة ، وهذه توبة خاصة بهم .

المأساة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ الصاعقة ﴾ ، نار محرقة تنزل من السماء ، وسببها اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو باتحادها مع كهربية الأرض السالبة .

عجيب أمر بنى إسرائيل وأى عجب ، إنهم قوم اعتادوا العناد والجحود بعدما أنجاهم الله من فرعون وأغرقه أمامهم وهم ينظرون إليه ، وتجاوزوا البحر إلى اليابس وأقدامهم مبتلة بماء البحر . كان قياس العقلاء يقتضى أن يخروا لله ساجدين سجود شكر ، ولكنهم خالفوا كل قياس وخرجوا على كل منطق سديد . لقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، ثم ازداد الأمر سوءاً ؛ لقد عزم موسى على الذهاب إلى منطقة الطور بسيناء ليتلقى التوراة التى قال الله فيها : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾[1] . واختار موسى لهذه الرحلة سبعين رجلاً من خيرة بنى إسرائيل ، وكلمه الله ، فما كان من بنى إسرائيل السبعين المختارين بعناية ودقة إلا أن قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ذلك لأنهم قوم يؤمنون بالمحسوسات . وقد قال أهل الحكمة : ومن طلب المحسوس فى غير المحسوس يَعْم عن المحسوس كعشاء عين الخفاش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس ، هذا هو مطلب السبعين المختارين أما بقية القوم الذين وصى موسى هارون بهم خيراً ، وقال له : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[2] فماذا صنعوا فى غيبة نبى الله موسى ؟ ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[3] . بل إنهم فعلوا أكثر من ذلك ؛ لقد قالوا عن العجل إنه إلههم وإله موسى ، نسى موسى إلهه هنا فذهب يبحث عنه هناك ، قال تعالى : ﴿ أفلا يرون أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾[4] . أما السبعون المختارون فقد ظنوا أن من لا يرى لا يوجد ، وهل نحن رأينا كل شىء ؟ إن ما لا نراه أكثر مما نراه . هل رأينا الأشعة الحمراء أو فوق البنفسجية ؟ وهل عرفنا حقيقة الكهرباء والمادة ؟ وهل رأينا الروح التى بين جنباتنا ؟ وهل رأينا الهواء ؟ هل رأينا الأثير الذى ينقل إلينا الأصوات والصور فى المذياع والتلفاز ؟ . إن الله تعالى أقسم قائلا : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون *

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٥ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٢ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .
(٤) سورة طه آية : ٨٩ .

وما لا تبصرون ﴾(١) . أجهل هؤلاء أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناه ولا متلون ولا متكيف ؟ لا يسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يقال أين هو سؤال إحاطة لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الحق ما قاله الله عن نفسه : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾(٢) ، وما قاله : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾(٣) . لما سأل المشركون رسول الله ﷺ : حدثنا عن ربك أمن ذهب هو أم من فضة ؟ نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ . فتعالى الله الملك الحق لا اله إلا هو رب العرش الكريم . سئل الإمام على كرم الله تعالى وجهه فقيل له يا على : هل رأيت ربك ؟ قال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمين

لقد أنزل الله على هؤلاء صاعقة ، أى نار محرقة ، أماتتهم كما يموت ابن آدم بالسكتة القلبية ، ونظر بعضهم إلى بعض وهو يموت . قال تعالى : ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ . وانظر إلى قولهم ﴿ **لن نؤمن** ﴾ هكذا بلن التى تفيد تأبيد النفى كما حكى الزمخشرى ، وتأمل مافيها من إصرار واستكبار واستمرار ، انظر إلى مدى العناد ﴿ **حتى نرى الله جهرة** ﴾ ومع ذلك فقد شكا موسى لربه : ماذا يقول للقوم إذا رجع بدون السبعين ؟ وطلب من الله إحياءهم ، فأحياهم الله ليشكروه ويعترفوا بفضله ، وهيهات هيهات ، إنها نفوس جبلت على العناد . إذا كان هذا حال المختارين فما بال غيرهم ؛ قال تعالى : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ﴾(٤) . أما الذين عبدوا العجل فى غيبة موسى ، فقد أمروا بالتوبة ، ومن شروط قبولها أن يقتلوا أنفسهم فيتوب عليهم خالقهم ومصورهم .

نعم أخرى

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ **الغمام** ﴾ : هو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس .

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة طه آية : ١١٠ .
(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ .

﴿ المن ﴾ مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد فيجمعها الناس .
﴿ والسلوى ﴾ (السمان) الطائر المعروف .

مازلت أكرر عجبى لبنى إسرائيل . أعطاهم الله نعماً لاتعد ، ومنحهم أرزاقاً لا تحصى . عبروا البحر واشتكوا إلى موسى شدة الحر فظللهم الله بالسحاب الأبيض ، وما أجمل الظل الظليل على قوم خصهم الله بذلك . شكوا إلى موسى الطعام وشدة الجوع ، فأرسل الله عليهم طعاماً فريدًا « المن » وهو مادة سكرية كالعسل ، « والسلوى » وهو طائر طيب . شكوا إلى موسى شدة الظمأ فاستسقى موسى لقومه فأمره الله أن يضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، عدد الأسباط ، أى القبائل ، واختص كل سبط بعين حتى لايتنازعوا ولا يتشاجروا وقال الله لهم ﴿ كلوا من طيّبات مارزقناكم ﴾ . أما الثياب فقد حفظها الله من البلى فظلت محتفظة بجدتها . فأى نعم أعظم من تلك النعم : غمام يقى من حر الشمس ، ومنّ وسلوى وماء يتفجر من العيون مغزاراً ومدراراً وثجاجاً خالصاً سائغاً للشاربين ، وثياب لا تبلى جدتها ؟ ومع ذلك جحدوا وظلموا أنفسهم بالجحود والإنكار بدل الشكر والعرفان . لذلك استحقوا ما حكم الله به عليهم فى قوله : ﴿ وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[(١)] .

إن شكر المنعم واجب . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى . قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[(٢)] . والعبد إذا جحد نعمة الله وقابلها بالكفران فإنما ظلم نفسه ونقصها الخير الكثير وما ظلم الله شيئاً ، قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[(٣)] . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[(٤)] .

إذا كنت فى نعـمـة فـارعـهـا	فـإن المعـاصى تـزيـل النعم
وداوم عـليهـا بـشـكـر الالـه	فـإن الإلـه سـريـع النـقـم

ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم،على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ماكانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد . لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبى ﷺ . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوا فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا الله فيه ، وأمرهم فملأ وأكل وعاءً معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء ، سألوا الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر . هذا هو الأكمل فى اتباع الشىء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ .

(١) سورة البقرة آية : ٦١ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٣) سورة الزخرف آية : ٧٦ .
(٤) سورة يونس آية : ٤٤ .

الأمر بدخول القرية

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وتلك واقعة خطيرة ما كان ينبغى لهؤلاء القوم أن يقعوا فيها ، لقد أمروا بأمر ما أيسره على النفوس وما أجل أثره عند الله ، أمرهم الله أن يدخلوا القرية ، والمراد بها هنا بيت المقدس كما حكاه المفسرون ، وقال لهم : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدًا ﴾ أى أكلاً هنيئاً ذا سعة . أبَعْد هذا الفضل فضل ؟ أبعد هذا الإنعام إنعام ؟ وأمرهم الله إذا دخلوا بيت المقدس أن يسجدوا إذا دخلوا الباب سجود شكر على ما أنعم الله به عليهم من عظيم النعم وجليلها . أيستحق هذا الأمر الميسور الذى لا عنت فيه ولا مشقة أن يقابل بالعناد والمخالفة ؟ خاصة وقد رتب الله عليه مغفرة الذنوب والخطايا ، وأى شىء يستحق هذا العناد ﴿ ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً ﴾ ثم ماذا ؟ قولوا وأنتم داخلون : اللهم حط عنا خطايانا وذنوبنا . وحطة خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمرنا حطة أى نسأل الله أن يحط عنا خطايانا وذنوبنا . ووعد الله حق ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] . فما كان أجدر القوم أن يعملوا بما أمروا ، فالله إذا وعد أنجز كرمًا وفضلاً ، وإذا أوعد فهو إن شاء عفا وإن شاء عاقب . وقال الله لهم ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ ، وهذا هو مقام الإحسان أن يزيد على العدل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[2] . فإن أثبنا فبمحض الفضل ، وإن يعاقب فمحض العدل .

والمحسنون هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، وهذا هو مقام المشاهدة ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، وهذا هو مقام المراقبة . فماذا كان موقف هؤلاء من هذه الأفضال ؟ غيروا القول الذى قيل لهم وبدلوه لأنهم بتركه وعدم الامتثال له كأنهم بدلوه وغيروه من عمل إلى ترك ومن امتثال إلى مخالفة. فما سجدوا ، إنما دخلوا مرفوعى الرؤوس كبرًا وعجبًا ، وتلك طبائع معتلة ، وهذا سلوك مختل ، والشىء من معدنه لا يستغرب . أليسوا هم الذين قالوا : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ أليسوا هم الذين عبدوا العجل فى غيبة نبيهم ؟ أليسوا هم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ؟ أليسوا هم الذين قالوا يد الله مغلولة ؟ أليسوا هم الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ إنهم أساءوا الأدب حتى مع الله وأساءوه مع الأنبياء . ألم يقولوا لموسى أتتخذنا هزوا وهو من أولى العزم الذين ورد ذكرهم فى قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين

(١) سورة الروم آية : ٦ .
(٢) سورة النحل آية : ٩٠ .

ولا تتفرقوا فيه ﴾[١] ، وفى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾[٢] . أليس موسى هو الذى قال الله له : ﴿ وأنا اخترتك ﴾[٣] ، وقال له : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾[٤] . وقال له : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[٥] . وقال فى حقه : ﴿ وكان عند الله وجيهًا ﴾[٦] ؛ ومع ذلك اجترءوا عليه وقالوا له : ﴿ أتتخذنا هزوًا ﴾[٧] ؟ أمروا بأن يدخلوا الباب سجّداً فدخلوه غير سجّد وأمروا أن يسألوا الله مغفرة ذنوبهم ويقولوا حطة فلم يفعلوا ، وظلموا بتغييرهم أوامر الله وتبديلهم إياه فاستحقوا من الله الجزاء الأوفى ، لأنهم كما قال الله عنهم : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾[٨] . وهنا يظهر فضل أصحاب محمد ﷺ : ﴿ قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٩] . وهيهات هيهات ثم شتان بين من قالوا سمعنا وعصينا وبين من قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . وهكذا أنزل الله عليهم من العقوبة ما يستحقونها ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ أى عذاباً ؛ وقد ورد أنه الطاعون . قال ﷺ : (الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ؛ فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه ، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها)[١٠] . وقد أوعد النبى ﷺ قوما ظهرت فيهم الفاحشة فقال : (لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم)[١١] . ولم تكن العقوبة بالطاعون لهؤلاء ظلمًا ، فالله أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ، بل كان الجزاء عادلاً ، فقد قال تعالى : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ والفسق خروج عن طاعة الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾[١٢] ، والخروج عن طاعة الله ظلم . ولقد كان ابن تيمية يقول : إن الله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة على الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١٣] ، وقال ﷺ : (اتق دعوة المظلوم)[١٤] .

---

(١) سورة الشورى آية : ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٧ .
(٣) سورة طه اية : ١٣ .
(٤) سورة طه آية : ٣٩ .
(٥) سورة طه آية : ٣٩ .
(٦) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .
(٧) سورة البقرة آية : ٦٧ .
(٨) سورة البقرة آية : ٩٣ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(١٠) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ١٤٠ ط دار الفكر .
(١١) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٢٥ ط وزارة الأوقاف .
(١٢) سورة يونس آية : ١٣ .
(١٣) سورة هود آية : ١١٧ .
(١٤) الجامع الصغير جـ١ ص ٢٤ ط دار الفكر .

الأمر بضرب الحجر

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء هو طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته ، لأن السين والتاء يدلان على الطلب ، كقولك : اللهم إنى أستعينك وأستغفرك وأستهديك ، أى أطلب منك العون والمغفرة والهداية .

وانفجرت وانبجست بمعنى واحد . والمشرب مكان الشرب . وقوله تعالى : ﴿ ولا تعثوا ﴾ أى ولا تتجاوزوا الحدود فتفسدوا .

وتلك نعمة ومعجزة . فقد اعتاد بنو إسرائيل عند الضيق أن يلقوا باللائمة على موسى ؛ شكوا إليه شدة الظمأ ولهيب العطش ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه التى فلق الله البحر بعدما ضرب به موسى بها .

فالسقيا : نعمة ، وضرب الحجر بالعصى وتفجير الماء عقب ذلك معجزة ، فالمعجزة قد تكون فعلاً كانفجار الماء من الحجر بعد ضربه بالعصا ، وقد تكون تركاً كترك الإحراق بالنار عندما ألقىَ إبراهيم فيها ، فقد توافرت الأسباب وزالت الموانع ، ولكن اختلفت النتائج . فالنار من طبعها الإحراق ، وقد ألقى إبراهيم فيها ، فما حرقت إلا قيوده التى قيدوه بها ، وظل إبراهيم بها حتى خمدت ، ورآه النمروذ يجلس أحسن مما كان صحة وعافية . لقد نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق . حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ، ﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يانار كونى بردًا وسلاماً على إبراهيم ﴾(١) . جمع له بين البرودة والسلامة ، لأنه لو قال لها كونى برداً على إبراهيم لتجمد من برودتها ، ولو قال لها كونى سلاماً على إبراهيم لآذته بحرارتها ، فجمع لها بين البرودة والسلامة حتى يظل فيها وكأنه فى روضة غناء وربوة حالمة . كذلك من المعجزات ترك الذبح من السكين التى أراد إبراهيم أن يذبح بها ولده إسماعيل . فالأسباب متوافرة وقد زالت الموانع ، فما الذى حال بين السكين وبين الذبح ؟ إنها المعجزة ، أراد الخليل أن يذبح ، ولكن الجليل أراد أن لا يذبح ﴿ فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم ﴾(٢) . وقد تكون المعجزة قولية كمعجزة الإسلام الخالدة : القرآن الكريم المنزل على سيد الأنبياء والمرسلين ، من أفضل مكان هو اللوح المحفوظ ، وبأفضل ملك هو جبريل ، وبأفضل لغة هى العربية ، وفى أفضل بلد هى مكة ، وفى غار حراء ، فى أفضل شهر هو رمضان ، فى خير ليلة هى ليلة القدر ، لخير أمة أخرجت للناس ، على أفضل الأولين والآخرين هو نبى الرحمة محمد ﷺ . ومن هنا فإن

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ . (٢) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ - ١٠٧ .

المعجزات الفعلية تكررت على يدى موسى ، كفلق البحر وضرب الحجر وانفجاره بالماء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وإحياء الله موتاهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وبعد انفجار الحجر قال الله لهم : ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى لقد أبحت لكم الأكل والشرب من رزقى فأنا الرزاق ذو القوة المتين :

لاتعجلن طلب الرزق بالعجل الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا لكنه خلق الإنسان من عجل

ولو ركب ابن آدم الريح فرارًا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم . قال ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)[١] . وقال صلوات ربى وسلامه عليه : (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا)[٢] . حتى قال بعضهم للإمام على كرم الله وجهه : لو حبس إنسان فى مكان فمن أين يأتيه رزقه ؟ فقال الإمام : من حيث يأتيه أجله .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ماشاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

إن الرزق يقتضى الشكر ؛ قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٣] . ومن ثم فقد نهاهم عن الفساد والإفساد . فقال لهم : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ . فماذا كان موقفهم وهم الشعب المدلل ؟ ماذا كان موقفهم بعد كل هذه النعم ؟ .

الذلة والمسكنة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وذلك أيضا موقف يثير العجب : قوم أنزل الله عليهم المن والسلوى ، وهما من أعظم أنواع الطعام

(١) الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٤٦ ط دار الفكر . (٣) سورة سبأ آية : ١٣ .
(٢) رياض الصالحين للنووى ص ٤٢ ط دار التراث العربى .

قدرا وذوقا وطعما وغذاء . رزق ينزل بلا عناء : مادة كالعسل ، وطير من أشهى أنواع الطير ، ورب كريم يقول لهم : ﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[١] . . ولكن طباعهم أبت عليهم إلا العناد . فماذا طلبوا من موسى ؟ لقد طلبوا منه ما يدعو إلى الدهشة ويثير فى النفس كوامن الأسى . قالوا : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ . وكان تعبيرهم بالصبر يفيد أنهم يأكلونه على مضض . فالصبر حبس النفس على الشدائد ، وكأنهم قوم بلغوا من الجهد مابلغوا . فماذا يريدون من موسى ؟ قالوا له : بما لك من مكانة عند ربك فادعه يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها . قال المفسرون المراد بالبقل : النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا مايطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما ؛ والقثاء هى مايسمى بلغة العامة (القتة) ؛ والفوم : هو الثوم ؛ والعدس والبصل معروفان . . . قال لهم الكليم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مستنكرا هذا الطلب : أتستبدلون الذى هو أدنى من الطعام من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل تاركين الذى هو خير من المن والسلوى ؟ والمراد بالأدنى هنا الأقل قدرا . ومادمتم قد أردتم ذلك فاهبطوا مصرا من الأمصار ، أى اذهبوا إلى بلد من البلاد التى تنبت هذه الأشياء ، فإن الأرض التى أنتم بها الآن لا تنبت ماطلبتم . هذا هو الرد الذى رد به موسى عليهم . فماذا صنع الله بهم وهم الذين استكبروا وأصروا على استكبارهم وجحدوا وعاندوا واستمرأوا ذلك ، وكلما نزلت بهم شدة ألقوا باللائمة على موسى . لقد عاقبهم الله على عنادهم وكبرهم عقوبة تطابق فعالهم ، فضرب ﴿ عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ؛ والتعبير بـ ﴿ ضُربت عليهم ﴾ يفيد الإحاطة والإلزام ، والذلة هوان وضيم يأتى من خارج النفس ؛ أما المسكنة فإنها ضعة وذل نابع من النفس وملازم لها . ولذا جاء فى آية أخرى : ﴿ ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُربت عليهم المسكنة ﴾[٢] .

فنحن نرى فى هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب عليهم الذلة قال : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ . والمراد بالحبل هنا العهد ، أى إلا أن يكون بمقتضى عهد من الله أو عهد بينهم وبين الناس . أما المسكنة فلا استثناء فيها ، لأنها نابعة من النفس ذاتها متغلغلة فى خلاياها . ولم يكن هذا الجزاء عبثا أو ظلما ، فمعاذ الله أن يكون فى حكمه عبث أو أدنى ظلم ، إنه تعالى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . لقد جاءت حيثيات الحكم على الوجه التالى ، وهى أربعة تناهت فى الفحش والطغيان ومجاوزة الحد ؛ أولها ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بئايات الله ﴾ . ألم يقولوا من قبل : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ؟ . ثم ألم يتخذوا العجل إلها ؟ . ثانيتها : ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ . قال ﷺ : (أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبيا) .

وهكذا يبدو الفعل فى أبشع صورة من صوره عندما يقترن قتل النبيين بغير الحق . والقتل للنبيين قد وقع منهم بإسراف وسفه ، فإذا كان القتل فى حد ذاته بغير الحق ، فما بالنا إذا اقترن بهذه الصورة ؟ إنه يكون فى أشنع صورة وأبشع فعل . وهل الحق إلا وضع الشىء فى موضعه الذى أمر الله أن يوضع فيه ؟ وهل بعد

(١) سورة طه آية : ٨١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٢.

الحق إلا الضلال ؟ وهل الكبر إلا غمط الناس وبطر الحق ؟ . ثم تأمل معى مجيء الفعلين فى صيغة المضارع الذى يفيد الحال وقد يفيد الاستمرار ، كأن الأمر لم يقف عند حد من الحدود ، إنما تجاوز الأزمان وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يكفرون ﴾ و﴿ يقتلون ﴾ .

ثم تأتى الحيثية الثالثة فى قوله تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ . والمعصية هى الخروج عما نهى الله عنه قوله : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ . ثم ختم الله هذه الحيثيات بقوله : ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ . والاعتداء تجاوز عن سبل الهداية والإرشاد والخروج عن كل ما هو خير وإصلاح . وهكذا جمع القوم بين الكفر بآيات الله وقتل أنبياء الله وعصيان الله والاعتداء على حدود الله . أليس من العدالة أن يبوءوا بغضب من الله ؟ ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

فرق وعقائد

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

هذه أربع فرق بدأها الله تعالى بالمؤمنين ، وهم أتباع محمد ﷺ والذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾(٢) ، وهذه هى الفرقة الناجية ، لأنها آمنت بكل ما أمر الله عباده أن يؤمنوا به . فهم الموحدون المصدقون بالملائكة ، المؤمنون بالكتب كلها والرسل جميعا . لم يفرقوا فى الإيمان بهم بين نبىٍّ ونبىٍّ ولا بين رسول ورسول . هؤلاء ما عرف الكفر إليهم طريقا ولا اتخذ إليهم سبيلا ، لأن قلوبهم ملئت بصدق اليقين . أما الفرق الباقية من اليهود والنصارى والصابئين ، فإنما يحكم لهم بالنجاة إذا اتبعوا سبيل المؤمنين ، فآمنوا بالله والملائكة والكتب والرسل وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ . فلن يكمل إيمان ولن يصح إسلام ولن يقبل عمل إلا بالإيمان بخاتم الأنبياء . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصلحت وءامنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثلهم ﴾(٣) . وهل هناك ما ينجى من النار إلا الإسلام : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٤) . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٥) . قال تعالى فى حديث قدسى : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىَّ كل طريق واستفتحوا علىَّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) .

اليهود قوم سلكوا فى عقيدتهم مسالك شتى ، انحرفت بهم عن طريق الجادة وتنكبت بهم عن سواء

(١) سورة آل عمران آية : ١١٧ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٣) سورة محمد الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٩ .
(٥) سورة آل عمران اية : ٨٥ .

الصراط . فمنهم من يقول : عزير ابن الله ، ومنهم من يرى تجسيد الإله وتشبيهه ، ويرى أن الله صرع يعقوب وكاد يعقوب يصرعه !! .

وإنما سموا باليهود لميلهم[1] ، وهو رجوعهم من شيء إلى شيء . والهود : الميل . وقيل لأنهم من ولد يهوذا بن يعقوب عليه السلام . وقد ذكر الله عزّ وجلّ فى القرآن الكريم من اعتقادهم ما يدل على كفرهم من قولهم : ﴿ عزير ابن الله ﴾ وقولهم هم والنصارى : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحِبّاؤه ﴾[2] ، وغير ذلك مما نزل به القرآن . ومع ذلك بدلوا صفة النبى ﷺ التى وجدوها فى التوراة حسداً منهم له وعنادا ، وبدلوا أحكام التوراة ، فأحلوا الحرام ، وحرموا الحلال ، وشرعوا لأنفسهم شرعا باطلا غير ما شرع الله لهم ، فأحلوا نكاح بنات الإخوة وبنات الأخوات ، ومن طلق منهم زوجته أى طلاق كان ، استحلها بعقد نكاح جديد ما لم تتزوج غيره ، فإن تزوجت غيره وطلقها الزوج الثانى ، أو مات عنها لم تحل للزوج الأول أبدا . ومن مات منهم عن امرأة وله أخ ، فإن كان له منها ولد أو من غيرها لم تحل لأخيه أن يتزوجها أبدا . وإن لم يكن له منها ولد ولا من غيرها فإنها توقف عليه ولا يجوز لأحد منهم نكاحها قبل أن يحلها منه .

ومما شرّعوه لأنفسهم خلاف ما شرع الله تعالى لهم فى التوراة فيما بينهم ـ أن من مات منهم وخلف أبا وأما وزوجة فإنهم يجعلون المال كله للأب بغير صداق الزوجة ولا شيء للأم وللزوجة من الميراث ، وذلك إذا لم يكن للميت أولاد ، فإن خلف أولادا كان المال كله لهم ولا شيء للأب والأم ، فإن كان الأولاد ذكورا وإناثا فإنهم يعرضون للبنت الأولى عشر المال والتى بعدها عشر ما بقى ، وعلى هذا إلى انقضائهن ، وما بقى قسم بين البنين بالسوية إلا أن يكون أحدهم بكرا لأبيه دون أمه فإنه يكون له سهمان ، ولكل واحد من إخوته ، وغير ذلك مما بدلوه من الأحكام .

وأما النصارى : فهم منسوبون إلى قرية بفلسطين تسمى ناصرة ، لأنه كان بدء خروجهم منها ، وهم من قوم عيسى عليه السلام . ومنهم من قال : إن الآلهة ثلاثة ، ظهر منها اثنان هما مريم وعيسى عليهما السلام ، وخفى منهم واحد وهو الله تعالى .

ومنهم من قال : إن الله تعالى هو المسيح ابن مريم ، وهم اليعقوبية أصحاب يعقوب (ليس بأبى يوسف عليهما السلام) وكذبوا فى ذلك كله . وهم مفترقون على اثنتين وسبعين فرقة كما أخبر النبى ﷺ . وقد قالوا فى ابتداء أمرهم : نؤمن بإله واحد : الله تعالى ، خالق ما يرى وما لا يرى . ثم نقضوا ذلك فقالوا : المسيح خالق غير مخلوق . ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو ابن الله ، ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو الله .

وإذا كتبوا كتابا كتبوا فى أوله : باسم الآب والابن والروح القدس . وهم يعتنقون الصلبان . فهذا ما أجمعوا عليه ، وأما ما اختلفوا فيه فكثير .

وأما الصابئون : فاسمهم مأخوذ من صبأ إذا خرج من شيء ، ومن دين إلى دين . ومن العلماء من

---

(١) ارجع إلى كتاب البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان . تأليف عباس بن منصور السكسكى الحنبلى دار التراث العربى .
(٢) سورة المائدة اية : ١٨ .

يقول إنهم من النصارى فصبأوا إلى المجوسية . ومنهم من قال إنهم قوم عبدوا النجوم وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . وقال بعض العلماء إنهم قوم عبدوا الملائكة وقرأوا الزبور . وقال آخرون : هم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب ، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها .

هذه الفرق التى ورد ذكرها بعد المؤمنين بيّن القرآن لها طريق النجاة فى ثلاثة أركان : الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، العمل الصالح . ولابد من الإتيان بهذه الأركان لينضموا بها إلى فريق المؤمنين . وقد يقول سائل : فأين الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ؟ ونقول : إن مقتضى الإيمان بالله يقتضى الإيمان بكل ما أنزل على رسوله . وقد قال الله فى الكتاب المنزل على سيدنا محمد : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا ءامنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾(١) . وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾(٢) . فمن آمن بالله ورضى به ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا فقد ذاق حلاوة الإيمان . فلو أن هذه الفرق سلكت الطريق فآمنت بالله وأيقنت باليوم الآخر وعملت صالحا لكانت جديرة بما حكم الله به للمؤمنين فى قوله : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٣) ، والأجر يفسر هنا بسعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾(٤) . أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾(٥) . وقال عزَّ من قائل : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٦) ؛ ثم زاد على ذلك الأجر أن نفى عنهم الخوف والحزن فبدل خوفهم أمنا وحزنهم سروراً : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾(٧) ، والأمن والسرور نعمتان لا تعدلهما أى سعادة إلا الفوز برضوان الله . قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٨) ، ومن ثم فإن الله جلّت قدرته وتعالت عظمته رفع عن أوليائه الصالحين الخوف والحزن ، الخوف مما سيأتى والحزن على ما فات ، وشر ما تبتلى به النفس أن تعيش فى قلق وتصاب بما يسميه علماء النفس عقدة الخوف من المستقبل . ومن ثمَّ تأتى ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٩) .

---

(١) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٢) سورة هود آية : ١١٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٤ .
(٤) سورة طه آية : ١٢٣ .
(٥) سورة النحل آية : ٣٠ .
(٦) سورة النحل آية ٩٧ .
(٧) سورة فاطر الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٨) سورة التوبة آية : ٧٣ .
(٩) سورة التوبة آية : ٥١ .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج — أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه — لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة — لا تجزعنّ فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به — إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد — فحسبك الله فى كل لك الله

إن السعادة كلها فى الرضا ، وإن الشقاء كله فى الاعتراض والجزع . لقد كان بعض الصالحين ينام على الطوى ، ويقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف .

فليتك تحلو والحياة مريرة — وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر — وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين — وكل الذى فوق التراب تراب

والخلاصة أن هذه الآية التى بين أيدينا ركزت النجاة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . فأى فرقة من الفرق التى انحرفت عن هدى الرسالة إن توافرت لها هذه الأركان كانت مع المؤمنين ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾[1] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾

فى هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى بنى إسرائيل بمواقف أجدادهم وآبائهم حتى يكون لهم فيها عبرة وموعظة فينتفعوا بدروسها ، فمن تلك المواقف أن الله تعالى أخذ عليهم مواثيق ، منها قوله جل شأنه : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[2] . ومنها : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾[3] . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[4] .

ولما كان القوم يؤمنون بالمحسوسات ، فإن الله تعالى رفع الجبل فوقهم ، وظل فوق رءوسهم كأنه ظلة

(١) سورة النساء آية : ١٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٨٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٨٤ .
(٤) سورة النساء آية : ١٥٤ .

حتى ظنوا أنه واقع بهم . وما أروع القرآن فى التعبير : بواقع بهم ، ولم يقل واقع عليهم ، إذ لو كان التعبير بعليهم لوقع فوق رءوسهم ، لكن التعبير بواقع بهم يدل على أن الجبل سيأخذهم ويقع بهم فى أعماق الأرض . وقال لهم الله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى خذوا ما فى التوراة من أحكام واعملوا بها ، إذ لا قيمة لعلم بلا عمل . قال أحد الحكماء :

العلم كالغيث والأخلاق تربته إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة والناس تلعنه فى البدو والحضر

قال الإمام عليّ : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال الإمام الغزالى : إذا حصل انفصال بين العلم والعمل فما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتابا إلى أحد أمرائه ، وأمره أن يبنى له قصرا فى ناحية من مملكته ، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبنى القصر ، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذى أرسل به إليه ؟ .

قوله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى بحزم وعزم وتصميم وتنفيذ . كما قال جلّ شأنه : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾(١) ، فإن القوم كانوا غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، حتى جاء فيهم قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾(٢) . ثم قال لهم تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . لأن نسيان العهود والتشريعات والأحكام الإلهية ضلال بعيد . ويوم ينسى الإنسان ما أمره الله بذكره ، فقد هوت به الريح فى مكان سحيق . قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾(٣) . وقال تعالى فى حق اليهود : ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾(٤) . وقد ينسى الإنسان خلقه فيضل . قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾(٥) . وجعل عاقبة ذلك ، أى الأخذ للأحكام بقوة ، جعل عاقبته التقوى ، فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، والتقوى هى طريق النجاة ، إذ هى السلاح الأقوى . أما من حمل الأحكام ولم يعمل بها فهو كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾(٦) .

قال تعالى مذكرا إياهم : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ ، أى أعرضتم عن صيانة المواثيق وحفظ العهود . ولولا أن رحمة الله تداركتكم ، فهو سبحانه وسع كل شىء رحمة وعلما ، لولا ذلك لكنتم من الخاسرين الهالكين . وتلك سنة الله يتدارك العصاة برحمته فيتوبوا إليه ، فإذا تمادوا وسدروا فى طغيانهم ، فإن قول الله تعالى يتحقق فيهم : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾(٧) . إن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٨) .

---

(١) سورة مريم آية : ١٢ .
(٢) سورة البقرة آية : ٧٤ .
(٣) سورة الكهف آية : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ١٤ .
(٥) سورة يس آية : ٧٨ .
(٦) سورة الجمعة آية : ٥ .
(٧) سورة القلم الآيتان : ٤٤ ، ٤٥ .
(٨) سورة هود آية : ١٠٢ .

أما من عمل بما علم فإن الله تعالى سيورثه علم ما لم يكن يعلم ، أى يفتح أمامه مغاليق المعارف وكنوز المعرفة . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . وبعد الفضل والرحمة يذكرهم الله تعالى باعتداء جسيم ، فقد أمرهم مولانا سبحانه أن يتفرغوا يوم السبت من كل أسبوع لعبادته ، ونهاهم عن اصطياد الحيتان فى هذا اليوم ، ولكنهم اعتدوا وتجاوزوا الحد . قال تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[١] . قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ﴾ . فماذا كان جزاء المعتدين ؟ لقد مسخهم الله قردة أذلاء صاغرين . روى جمهور العلماء أن الله مسخ صورهم فصارت صور القردة . وروى أن الممسوخ لا ينسُل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام . وبين الله الحكمة من هذا الجزاء فقال : ﴿ فجعلناها نكالا ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة عبرة للذين سيأتون بعدهم ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ لما بين يديها ﴾ ، كما جعلها الله عبرة للذين عاشوا زمانها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما خلفها ﴾ ، كما جعلها الله موعظة ودرسا للمتقين . فإن التقوى سبب قوى من أسباب الانتفاع بنُوَب الدهر وأحداث الليالى . وهكذا ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾[٢] . والله تعالى يقرر أنه لا يعتبر بالأحداث إلا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، قال تعالى : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾[٣] . وقال جلّ شأنه : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٤] .

قصة البقرة

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٣ .
(٢) سورة الحاقة آية : ١٢ .
(٣) سورة الزمر آية : ٩ .
(٤) سورة النازعات آية : ٣٦ .

اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

وسميت السورة الكريمة بسورة البقرة ، لأنه اسم لقصة بلغت من العجب مبلغا بعيدا . فبنوا إسرائيل إن أردنا أن نسميهم باسم يدل على نفوسهم المعقدة ، استطعنا أن نقول إنهم قوم مصابون بعقدة البقرة ، وللبقرة فى هذه السورة قصة تنخلع لهولها القلوب وتنفطر لها النفوس وتحار فيها العقول . ولعل ذوى الألباب الباصرة وأولى الأفئدة المستنيرة لو نخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد رأيهم لعلموا ما تحتويه تلك القصة من موقف متصلب لقوم شددوا فشدد الله عليهم . ولما أخبرهم نبيهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، قالوا له بلسان جرىء وحماقة شنيعة : ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ ، ما كان يليق أن يوجه مثل هذا الخطاب إلى نبى رسول كليم من أولى العزم قال فى شأنه ربه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين ءاذَوْا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾[1] ، وقال له مولاه : ﴿ ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ماءاتيتك وكن من الشاكرين ﴾[2] ، وقال له ربه : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾[3] ، وقال له سبحانه : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾[4] ، وقال له : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾[5] . يخلع عليه ربه هذه الأوسمة وتلك النياشين ويقول له قومه بحماقة ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ فيقول لهم بلسان الحليم الناصح الأمين الشفوق الكريم : ﴿ معاذ الله أن أكون من الجاهلين ﴾ . ياله من أدب ، وما أجمله من خلق ، وما أعظمه من حلم . قوم يسخرون ونبى يُربى ويعلم ويصبر ويحتسب : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى ﴾ وأى أذى ، ولكنه حلم الأنبياء .

المفردات : البقرة : اسم الأنثى ، والثور : اسم الذكر ، والهزو : السخرية ، والجهل : هنا فعل ما لا ينبغى أن يُفعل ، وقد يطلق اعتقاداً لشىء بخلاف ما هو عليه ، والفارض : المسنّة التى انقطعت ولادتها ، والبكر : الصغيرة التى لم تحمل بعدُ ، والعوان : النصف فى السن من النساء والبهائم ، والذلول : الريض الذى زالت صعوبته ، ويقال دابة ذلول بيّنة الذِّل (بالكسر) ، ورجل ذلول بيّن الذل (الضم) والإثارة : قلب الأرض للزراعة ، والحرث : الأرض المهيأة للزراعة ، والمسلّمة : التى سلمت من العيوب ، والشيَة : العلامة ، أى لا لون فيها يخالف لونها ، من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان ، والآيات : هى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور الغريبة ، وادّارأتم : أى تدارأتم من الدرء وهو الدفع ، ويقال عقلت نفسى عن كذا : أى منعتها منه .

جاء فى تفسير المراغى مانصه : فى هذا القصص بيان نوع آخر من مساويهم لنعتبر به ونتعظ ، وفيه من وجوه العبرة :

(١) أن التنطع فى الدين والإلحاف فى السؤال مما يقتضى التشديد فى الأحكام ، ومن ثم نهينا عن

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .
(٣) سورة طه آية : ١٣ .
(٤) سورة طه آية : ٣٩ .
(٥) سورة طه آية : ٤١ .

ذلك بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾[١] . وبما جاء فى صحيح الحديث من قوله ﷺ : (وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال) .

(٢) أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ماعبدوه ، وهو العجل ، ليهون عندهم ماكانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ماكان فى نفوسهم من حب عبادته .

(٣) استهزاؤهم بأوامر الأنبياء .

(٤) أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته تعالى فى خلق الأشياء من أضدادها .

وأول القصة معنى قوله : ﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ الخ ، إذ هى المخالفة التى صدرت منهم : ثم ذكر المنة فى الخلاص منها فى قوله : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ الخ ، وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها ، وهى ذبح البقرة . وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب فى ذبح البقرة ، والمفاجأة بحكاية ماكان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة فى أمر الله بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها .

والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين فى تنسيق الكلام بحسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذى يستثير اللب ، ويأخذ بمجامع القلب ، ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث .

﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ . روى فى سبب الذبح أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر قتله بنو عمه طمعا فى ميراثه ، وحملوه إلى قرية أخرى وألقوْهُ بفنائها ، ثم جاءوا يطالبون بديته وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما خفى من أمر القاتل ، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر عن قاتله .

﴿ قالوا أتتخذنا هزوا ﴾ ، أى قالوا : أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟ نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، وهذا غاية فى الغرابة ، وبعيد كل البعد عما نريد ؛ وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام ، ثم ينتظروا ما يحدث بعدُ ، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى .

﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أى ألتجىء إلى الله من الهزء والسخرية بالناس ، إذ هو فى مقام تبليغ أحكام الله دليلُ السفه والجهل .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ ، أى سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها ، وقد سألوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهدوه ، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم .

(١) سورة المائدة آية : ١٠١ .

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فـارض ولا بكر عـوان بين ذلـك ﴾ ، أى ليست بالكبيـرة ، ولا بالصغيرة ، بل هى وسط بينها .

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ ، أى فامتثلوا الأمر ولا تتوانَوْا فى نفاذه . ولا يخفى ما فى هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت ؛ وكان يجب عليهم الاكتفـاء به والمبـادرة إلى الامتثال ، لكنهم أبَوْا إلا تنطعـاً واستقصاء فأعادوا الطلب .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ ، سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية فى بيان مميزاتها ، لكنهم ما قنعوا بهذا ، بل زادوا فى الإلحاف وإعادة السؤال مرة أخرى .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ ، هذا سؤال لطلب إيضاح وإظهار ، زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة ، لأنه لم يحصل لهم تمام البيان . ثم ذكروا السبب فى إعادة السؤال : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أى لأن وجوه البقر تتشابه .

﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ إلى البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفى من أمر القاتل أو إلى الحكمة التى من أجلها أمرنا ، وقد رُوى أنه ﷺ قال : (لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد) .

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ . أى إنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحراثة والسقى ، وهى سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ، أى إنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التى ذكرتها لنا .

﴿ فذبحوها ﴾ ، أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة ، حتى وجدوها فذبحوها .

﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعـد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع مـا كان من تنطعهم وتعنتهم . والخلاصة : فذبحوها بعد توقف وبطء .

روى ابن جرير عن ابن عباس : (لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم) .

﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ ، هذا مؤخر لفظا مقدم معنى ، لأنه أول القصة ـــ أى وإذ قتلتم نفسا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى ، فقال موسى إن الله يأمركم . . . إلى آخر الآيات ؛ ولم يقدم لفظا ، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ، وأسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبى ﷺ ، لأنهم سلائل أولئك ، وهم راضون بفعلهم ، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمـة فى مجموعهـا كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب :

وجُـرْم جـرّه سـفـهـاء قـوم فحـلّ بغـير جـارمه العقـابُ

﴿ فادّارأتم فيها ﴾ ، أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها ، وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه .

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ ، أى والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل ، فمن كان يعرف أمراً يكتمه لهوى فى نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن ، والعداوة ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ . أى اضربوا المقتول ببعض البقرة ، أىّ بعض كان ، وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها .

﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ ، أى فضربوه فَحَيِىَ ، وقلنا : كذلك يحيى الله الموتى ، أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ، وقد روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تَشْخُب دما ، وقال قتلنى فلان وفلان ، وهما ابنا عمه ، ثم سقط ميتا ؛ فأُخذا وقُتلا .

وإنما أمرهم بالضرب ، ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة ، كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة .

﴿ ويريكم آياته ﴾ ، وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت ، وإخبار الميت بقاتله ، مما ترتب عليه الفصل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، أى لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

وقد ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن عبيدة السلمانى ، قال : « كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك فقال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ ؛ قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها ، فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا ، لابن أخيه ، ثم مال ميتا ، فلم يعط من ماله شيئا ؛ فلم يورث قاتل بعد » . ورواه ابن جرير .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لا فارض ﴾ يعنى لا هرمة ولا بكر ، يعنى ولا صغيرة ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أى نصف بين البكر والهرمة ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ ، أى صاف لونها ، ﴿ تسر الناظرين ﴾ ، أى تعجب الناظرين . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ﴾ ، أى لم يذللها العمل . ﴿ تثير الأرض ﴾ ، يعنى وليست بـذلـول تثير الأرض ﴿ولا تسقى الحـرث﴾ ، يعنى ولا تعمـل فى الحـرث .

﴿مسلّمة﴾ يعنى مسلمة من العيوب ، ﴿لا شية فيها﴾ ، يقول لا بياض فيها ﴿قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ . قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ لما هدوا إليها أبدا ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى ، وهى القيمة عليهم ؛ فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها ضاعفت عليهم الثمن ؛ فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى : إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم ، فاعطوها رضاها وحكمها ؛ ففعلوا واشتروها فذبحوها ، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ، فأخذ قاتله ، وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه ، فقتله الله على سوء عمله .

وهناك روايات أخرى نذكرها فيما يلى ، فإنها تزيد المعنى وضوحا وتبين لنا مدى ما كان عليه القوم من تمويه وضلال وبعد عن الحق : روى محمد بن جرير بسنده إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال فى شأن البقرة : إن شيخا من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته ، فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله . وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته ، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداهما ، وكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية . وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها ، فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ قائلين : عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرمن لنا دية عمنا . قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام ، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ : عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم ، فقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا ، وأن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام ، فقال : قل لهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فتضربوه ببعضها .

قال السدى ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقـرة﴾ قال : كـان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه ، فغضب الفتى وقال : والله لأقتلن عمى ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته . فأتاه الفتى ، وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل ، فقال : يا عم انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أن أصيب منها ، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى . فخرج العم مع الفتى ليلا ؛ فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله . فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه ــ كأنه لا يدرى أين هو ــ فلم يجده ، فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال : قتلتم عمى فأدوا إلى ديته . فجعل يبكى ويحثو

التراب على رأسه ويندب : واعماه . فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية . فقالوا له : يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية ، فوالله إن ديته علينا لهينة ، ولكن نستحى أن نعير به . فذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون ﴾ فقال لهم موسى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله فتقول اذبحوا بقرة ! أتهزأ بنا ؟ . قال : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ . قال ابن عباس : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم . فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ . والفارض : الهرمة التى لا تلد ، والبكر : التى لم تلد إلا ولدا واحدا . والعوان : النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها ﴿ فافعلوا ماتؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها * قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ ، قال نقى لونها ﴿ تسر الناظرين ﴾ ، قال تعجب الناظرين . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ ، من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ، فطلبوها فلم يقدروا عليها . وكان رجل فى بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وأن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفا . قال الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا . فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : والله لا أشتريه منك بشىء أبدا . وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة ، فأبى ، فأعطوه اثنتين ، فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرا ، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك . وأخذ يزيد عليهم ، وأخيرا أعطوه ما طلب . ذلك لأنهم شددوا فشدد الله عليهم ، وهذا جزاء المتنطعين . فانظر إلى بركات بر الوالدين هذا الذى بلغ من شدة إحسانه لأبيه أنه أبى أن يوقظه من نومه مهما كان الثمن ، ذلك لأن رضا الوالدين من رضا الله وسخطه من سخطهما ، وكأن هذا الولد البر يقول لرب العزة :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك ؟ فقال لهم ابن أخى قال : أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته . فأخذوا الغلام فقتلوه .

قوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ، قال ابن عباس : كادوا ألا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذى أرادوا لأنهم أرادوا ألا يذبحوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد

الجهد ، وفى هذا ذم لهم ، وذلك أنهم لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قوله تعالى : ﴿ والله مخرج ماكنتم تكتمون ﴾ قال صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول : ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله . وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك فى كلام الله ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ا هـ .

فسبحان من يعلم السر وأخفى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾(١) . وسبحان من يعلم دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾(٢) .

صدقت يارسول الله إذ قلت للأمين جبريل لما سألك عن الإحسان قلت له : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٣) .

إن هؤلاء القوم الذين قتلوا ابتغاء مرضاة الدنيا والمال والميراث وحاولوا إخفاء الجريمة وخططوا لها وأرادوا أن يرموا غيرهم بها ، هؤلاء لم يستطيعوا أن يفلتوا من عقوبة الله . إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة . ماذا يريدون ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾(٤) . قال تعالى : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾(٥) . يقتلون وبينهم رسول ينزل عليه الوحى من لدن حكيم خبير ؟ لكن سحائب الغفلة حجبتهم عن نور الله ومعرفته .

إذا الإيمـان ضـاع فـلا أمـان ... ولا دنيـا لمن لم يحـى دينـا
ومن رضى الحيـاة بغـير ديـن ... فقـد جعـل الفنـاء لهـا قـرينا

قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ أى ببعض منها وأى جزء منها ، ولو كان فى تعيين البعض أى فائدة لعينّ ولكن الله وحده هو الذى سيحيى القتيل ، وما الضرب ببعضها إلا سبب ظاهرى وقدرة الله تعالى صالحة على الإيجاد والإعدام بدون أسباب . ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون * وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾(٦) . وإنما أمرهم الله بذبح بقرة ولم يأمرهم بذبح حيوان آخر ، لأنهم قبل ذلك عبدوا العجل فأراد ربك أن يذبحوا من جنس ما عبدوا حتى يكون فى ذلك دليل عملى على أن عبادة غير الله باطلة .

وتجلت عظمة القرآن الكريم فى ذكر القصة فى أن الله تعالى ذكر قصة البقرة أولاً فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، ثم ذكر سبب إحيائها ثانيا ، فكأن القرآن قدم المسبب على

(١) سورة طه آية : ٧ .
(٢) سورة ابراهيم آية : ٣٨ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٣٨ ط الشعب .
(٤) سورة النساء آية : ١٠٨ .
(٥) سورة النساء آية : ١٠٨ .
(٦) سورة القصص الآيات : ٦٨ - ٧٠ .

السبب ليجعل منها موقفين لبنى إسرائيل ما كان ينبغى أن يقعوا فيها : الموقف الأول قولهم لموسى أتتخذنا هزوا وجدالهم وتشديدهم وكثرة سؤالهم . كل هذا ما كان ينبغى أن يكون . والموقف الثانى قتلهم النفس التى حرم الله قتلها وتدافعهم واختلافهم الذى أدى إلى النزاع الشديد فى سبيل معرفة القاتل وبينهم نبى يوحى إليه ، ومن ثم تجلت عظمة القرآن وروعته حيث جاء أسلوبه الرفيع على هذا النحو ، قصة يليها سبب ، وكلاهما مأخوذ على بنى إسرائيل فى عنادهم وعقدة أنفهم التى لا تنفك . قال الله تعالى ﴿ **كذلك يحيى الله الموتى** ﴾ ، أى كما أحيا هذا القتيل فقام وأخبر عن قاتله بل وذكر الدافع الذى من أجله قتل ، ورأيتم ذلك رأى العين ، قال تعالى : ﴿ **ويريكم ءاياته لعلكم تعقلون** ﴾ . وهل بعد إحياء القتيل وإزهاق روحه آية أقوى عبرة وأجل موعظة ؟ لكن القوم كما قال فيهم مولانا جلّ جلاله :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى توبيخا لبنى إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله ، وإحيائه الموتى ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ كله ، فهى كالحجارة التى لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ **ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[1] . يقول ابن كثير عن ابن عباس : لما ضرب المقتول ببعض البقـرة جلس حيا ، فقيل له : من قتلك ؟ فقال : بنو أخى قتلونى ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه[2] ، فقال الله : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ يعنى أبناء أخى الشيخ ، ﴿**فهى كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ ، فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهى فى قسـوتها كـالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشّقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله . وفيه إدراك لذلك بحبه كما قال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمـده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً ﴾[3] . وعن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل ، لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وعن ابن عباس : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهر وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ ، أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق .

(١) سورة الحديد آية : ١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٢ ط الشعب .
(٣) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

قال الإمام القرطبى وغيره من الأئمة : إن الله يخلق فيها هذه الصفة كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾[١] . وقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾[٢] . وقال : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾[٣] . ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يَتَفَيَّؤُ ظِلَـٰلُهُ ﴾[٤] ، ﴿ أَتْيَنَا طَوْعًا ﴾[٥] . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾[٦] . ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله ﴾[٧] . وفى الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه »[٨] . وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفى صحيح مسلم : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن »[٩] . وفى صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة . أما فى قوله تعالى : ﴿ أو أشد قسوة ﴾ ، فقد قال بعض علماء اللغة : إنها بمعنى بل ، فتقديره : فهى كالحجارة بلْ أشـد قسوة كقـوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾[١٠] . وكقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾[١١] ، وكقوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[١٢] . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كل ما يبعث القسوة فى القلب ؛ قال الحافظ أبو بكر بن مردويه قال رسول الله ﷺ : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى) ورواه الترمذى فى كتاب الزهد[١٣] .

وقال ﷺ : (أربع من الشقـاء : جمود العـين ، وقساوة القلب ، وطـول الأمل ، والحـرص على الدنيا)[١٤] . وقد نبه الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد .

وقد ذكر الله تعالى فى هذه السورة بما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع أولها قولة تعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[١٥] . وثانيها ما جاء فى قصة البقرة من إحياء القتيل . وثالثها قصة الذين خرجوا من ديارهم ﴿ وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾[١٦] . ورابعها قصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ﴿ قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾[١٧] . وخامسها ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل عـلى كل جبـل منهن جزءًا ثم ادعهن يـأتينك سعيـاً واعلم أن الله عزيـز حكيم ﴾[١٨] .

(١) سورة الأحزاب آية : ٧٢ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٤٤ .
(٣) سورة الرحمن آية : ٦ .
(٤) سورة النحل آية : ٤٨ .
(٥) سورة فصلت آية : ١١ .
(٦) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٧) سورة فصلت آية : ٢١ .
(٨) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤١ ط دار الفكر .
(٩) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٢٤ ط دار الشعب .
(١٠) سورة النساء آية : ٧٧ .
(١١) سورة الصافات آية : ١٤٧ .
(١٢) سورة النجم آية : ٩ .
(١٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٤ ط الشعب .
(١٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٦٣ ط الشعب .
(١٥) سورة البقرة آية : ٥٦ .
(١٦) سورة البقرة آية : ٢٤٣ .
(١٧) سورة البقرة آية : ٢٥٩ .
(١٨) سورة البقرة آية : ٢٦٠ .

كذلك نبه الله بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما كما قال . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي رزين العتيل قال : قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : (أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً . قلت بلى . قال : كذلك النشور ، أو قال : كذلك يحيى الله الموتى)[١] . وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وءاية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾[٢] .

وبعد فمازالت الآيات الكريمة تبين لنا مواقف القوم وما لهم من هنات ليست بهينات قال تعالى :

* أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

الطمع : تعلق النفس بإدراك ما تحب تعلقاً قوياً وهو أشد من الرجاء . أن يؤمنوا لكم : أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم إياهم ، والفريق : الجماعة . لا واحد له من لفظه . من بعد ما عقلوه : أى ضبطوه وفهموه ولم تشتبه عليهم صحته ، وفى ذلك إيماء إلى تعمدهم وسوء قصدهم وإبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم . وهم يعلمون : أى وكانوا فى حال العلم بالصواب لا ناسين ولا ذاهلين ، وفى هذين الوصفين نعى عليهم وتسجيل لتعمق الفسوق والعصيان فيهم .

كما يبين الله تعالى قسوة قلوب اليهود ، وأنها كالحجارة أو أشد قسوة ، وعدّد مالهم من مواقف سيئة وشنيعة من نبيهم موسى ، وكيف قالوا له مرة ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ، وقالوا له مرة أخرى : ﴿ اجعل لنا إلـها كما لهم ءالهة ﴾[٣] وقالوا ، له مرة ثالثة ورابعة وخامسة من الأشياء ما تنبو عنه الأذواق السليمة مما يطول شرحه ، فقد اتخذوا العجل إلها ، وقالوا له لن نصبر على طعام واحد ، ونقضوا العهود والمواثيق ؛ لما كان شأنهم كذلك قال الله تعالى للرسول وأصحابه : أبعد هذا كله تطمعون فى إيمانهم وهم الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله فى كتابه التوراة المنزل على رسوله موسى ، على نبينا وعليه الصلاة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٩٤ ط الشعب .
(٢) سورة يس الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) سورة الاعراف آية : ١٣٨ .

والسلام ، وذلك كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾[١] . فسماع كلام الله لا يشترط أن يكون من الله مباشرة إنما يكون عن طريق كتبه المنزلة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيمٌ * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتُب ولا الإيمـان ﴾[٢] . ثم ماذا بعد سماعهم لكلام الله فى التوراة ؟ حرفوه وغيروه وبدلوه بعد ما عقلوه وفهموه وأدركوه ، مصداقاً لما حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾[٣] . وفى قوله جلّ ذكره : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفـون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤ توه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾[٤] . هؤلاء هم أحبارهم وعلماؤهم ، سمعوا كلام الله فى كتابه التوراة وعقلوا ما فيه ودرسوه كما قال جلّ شـأنه : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولـوا على الله إلا الحق ودرسـوا ما فيـه ﴾[٥] . فإذا كـان هذا شـأن علمائهم ، وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ ، أى يعلمون ما فيه من الحق الذى غيروه ، فقد جمعوا بين جناية التحريف وجناية العلم ، وما أشدها من مصيبة أن يخالف الإنسان فيعمل بغير ما يعلم ، وهذا موقف آخر جمعوا فيه بين النفاق واليهودية : ﴿ **وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾ .

إن شر الناس منزلةً عند الله يوم القيامة ذو الوجهين ، يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ﴿ **وإذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا** ﴾ أى بصاحبكم رسول الله ﷺ ، ولكنه إليكم خاصة ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا** ﴾ لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم .

وقال السدى : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وقال الحسن البصرى : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم فيحاجوكم به عند ربكم ، فيخصموكم[٦] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ أى بما حكم الله عليكم فى كتابكم ببعثته ، وأنه نبى آخر الزمان ، وأنه كثير المحامد . لقد حرفوا التوراة وبدلوا فيها . ولما كان هذا حديثهم فى خلواتهم ، قال الله تعالى ردًا عليهم : ﴿ **أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى ألا يعلم هؤلاء وهم

(١) سورة التوبة آية : ٦ .
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .
(٣) سورة المائدة آية : ١٢ .
(٤) سورة المائدة آية : ٤١ .
(٥) سورة الاعراف آية : ١٦٩ .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ط الشعب .

ينصح بعضهم بعضا ألا يخبروا أصحاب محمد بما ورد عن ذكره فى التوراة وأنه نبى آخر الزمان ، أو لا يعلمون أنهم فى خلواتهم أن رسلنا لديهم يكتبون ؟ ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىءٍ عليم ﴾[(١)] ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[(٢)] . إنه يعلم ما يسرون فى خلواتهم وما يعلنون عندما يرون المؤمنين فيقولون بأفواههم آمنا . كان هذا شأن علمائهم ، أما الأميون منهم الذين لا يحسنون الكتابة وليسوا على دراية بالكتب المنزلة ، فإن كل ما يعلمونه من التوراة التى حرّفها الأحبار إنما هى الأمانى ، أى الأكاذيب التى تمنوها واتباع الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ومن هذه الأمانى ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[(٣)] . قال تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[(٤)] .

أمانيك الأحلام زخرفها الكرى وقلّ على الأيام أن يصدق الحلم
سمعنا كلاماً لذ فى السمع وقعه ورب لذيذ شاب لذته السم

وقد أخبر الله عن الأميين منهم فقال : ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون** ﴾ والأمور لا تبنى على الظن والتخمين ، خاصة العقائد الإلهية ، قال تعالى : ﴿ قتل الخرّاصون * الذين هم فى غمرةٍ ساهون * يسئلون أيان يوم الدين ﴾[(٥)] .

والخرص : معناه الظن والتخمين . ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك موقفاً لفريق من اليهود كتبوا التوراة بأيديهم ليزوّروا ما فيها من أحكام ؛ فجُعلوا الحلال حراماً والحرام حلالاً ، وأفتوا الناس بما يعلمون أنه الباطل مقابل عرض من الدنيا ، وقبلوا الرشى ، وقد لعن الله الراشى والمرتشى والرائش . ومن هنا جاء الوعيد شديداً تنخلع لهوله القلوب ، قال عز وجلّ : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ . والويل هو الهلاك الشديد ، وقيل هو واد فى جهنم . وليس بعد الهلاك كلام يقال ، وإنما جاز الابتداء به مع أنه نكرة ، لأن تنكيره فيه تفخيم وتهويل ، فصار المعنى فويل شديد لهؤلاء القوم الذين كتبوا التوراة من عند أنفسهم بأيديهم حتى جعلوا الحق باطلا والباطل حقاً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً ، وغيروا وبدلوا وأنكروا صفة الرسول الكريم فى التوراة مقابل عرض زائل وعارية مسترجعة هى الدنيا وزخارفها ومناصبها وأموالها . هؤلاء لهم الويل بسبب ما كتبت أيديهم من الباطل . وقد أمرهم الله أن يحفظوا التوراة من التبديل ، قال تعالى : ﴿ إنا

(١) سورة المجادلة آية : ٧ .
(٢) سورة الملك الأيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ١١١ .
(٤) سورة النساء الأيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٠ - ١٢ .

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا اعليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[١] . فأنت ترى هنا أن الله قد طلب منهم أن يحفظوا التوراة من التبديل والتغيير ، ونهاهم أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً هو الدنيا فغيروا وخالفوا واشتروا بآيات الله دنيا فانية زائلة فاستحقوا الويل بسبب ما كتبوا وبسبب ما كسبوا .

لقد كانت الجن أعقل من هؤلاء عندما وصفهم الله تعالى فى هذا المشهد بما يليق بالمؤمنين الصادقين . قال جلّ شأنه : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يـٰقومنا إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يـٰقومنا أجيبوا داعى الله وءامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[٢] .

وينتقل بنا النظم الكريم من تلك المساوىء إلى جنايات أخر . قال تعالى :

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ ۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ .

وتلك بعض المزاعم التى قالها القوم : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ . وهذا تحريف فى العقيدة بعد تحريفهم الكلم عن مواضعه كما سبق فى قوله جلّ شأنه ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ . قال العلامة أبو السعود : روى أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبى ﷺ فى التوراة وكانت هى فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة » فغيروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر» ، فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفا لما فى التوراة فيكذبونه .

قولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ المراد بالمس هنا اللمس ، والمقصود بالنار نار الآخرة ، وما نار الدنيا بالنسبة إليها إلا كنسبة ١ : ٧٠ . وقد جاء فى صفتها ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان . قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بئَايَٰتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٣] . وقال جلّ شأنه : ﴿ إنا أعتدنا للظـٰلمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٤] .

(١) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

... جلَّ شأنه . ﴿ إن جهنم كانت مرصادا * للطـٰغين مـٔابا * لـٰبثين فيها أحقابا * لايذوقون فيها بردا ولا ... ا * إلا حميماً وغساقاً * جزاءً وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بـٔايـٰتنا كذابا * وكل شيء أ ... ـه كتـٰبا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[١] .

و... الآية الأخيرة أشد آية على الكافرين ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم مـٰكثون ﴾[٢] بعد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لايُفَتَّر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمنـٰهم ولـٰكن كانوا هم الظالمين ﴾[٣] . قال ﷺ فى صفة النار : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية قال : إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءا كُلُّهن مثل حرها ﴾[٤] .

وعنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه)[٥] .

وعنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها . قال فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحفت بالمكاره . فقال ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها ، فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن يدخلها أحد ، وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها فإذا هى يركب بعضها بعضا . فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت ألاَّ ينجو منها أحد إلا دخلها)[٦] .

وعنه أيضاً رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل المظلم)[٧] .

وكان اليهود يقصدون بالأيام المعدودة الأيام التى عبدوا العجل فيها ، عندما كان نبيهم موسى يتلقى التوراة ، وكانت أربعين يوماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾[٨] . وهنا وجه الله تعالى إليهم سؤالا قال فيه : ﴿ **قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ ، أى إن كان لكم عند الله وعد بذلك فإن الله لا يخلف الميعاد ، لكن الحقيقة أنكم ليس بينكم وبين الله وعد ، فلم يبق إلا الشق الثانى ، وهو أنكم تقولون على الله

(١) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٧٧ .
(٣) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٨٨ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٨٩ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة البقرة آية : ٥١ .

ما لا تعلمون . والقول علي الله بغير علم سفه في العقول وخفة في الأحلام وجهل وتضليل وسفسطة . ثم عقب الله تعالى على قولهم بقوله : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وبلى حرف جواب أريد به هنا إبطال ما زعموه من قبل ، أى أن ما قلتموه باطل لا أساس له من الصحة ، إذ ليس بينكم وبين الله وعد بذلك ، فلم يبق إلا أنكم تهرفون بما لا تعرفون ، وتلك فرية ما فيها مرية . فاستمعوا إلى حقيقة الأمر لتعلموا أن الجزاء مبنى على عدالة مطلقة ، وأن الثواب والعقاب لا مساومة فيهما ولا مجاملة على حساب الحق: ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[١] . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٢] . ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٣] .

والمراد بالسيئة في هذه الآية ﴿ من كسب سيئة ﴾ الشرك ، لأنه الذنب الذى لا يغفر ويخلد صاحبه فى النار ويغلق عليه منافذ الرحمة . قال جل شأنه : ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ . وقد قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[٤] ، وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[٥] . أما غير الشرك من الذنوب فيلزمه التوبة . والذنوب كالأمراض والتوبة كالدواء ولكل داء دواء يستطب به . فالتوبة مثلا من الربا قال فيها مولانا : ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ﴾[٦] . ومن شروط التوبة رد الحقوق إلى أصحابها وطلب السماح من كل من أسيء إليه ، وأداء الفرائض التى وقع التقصير فيها ، والاستغفار وعدم الإصرار ، فإنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

روى الترمذى عن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت[٧] فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر صُقلت[٨] ، وإن عاد زيد منها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كلاَّ بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾)[٩] .

كما روى : أن النبى ﷺ قال لسفيان بن عبد الله الثقفى ، وقد قال له : يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : (قل آمنت بالله ثم استقم)[١٠] رواه مسلم .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن وجههم إلى التوبة ودعاهم إليها وأعلمهم أنّه غفَّار الذنوب ؛ قال

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .
(٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة النساء آية : ١١٦ .
(٥) سورة النساء الآيتان : ١٦٨/١٦٩ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٧٩ .
(٧) نكتت : النكتة الأثر . والمراد أثر الذنوب .
(٨) صقلت: أزيلت .
(٩) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٣٣٣ ط وزارة الأوقاف .
(١٠) رياض الصالحين للنووى ص ٤٤ ط دار التراث .

تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[١] . وحذّر سبحانه وتعالى من الندم على ما فات بعد فوات الأوان فقال سبحانه : ﴿ أن تقول نفس يَـٰحَسْرَتَىٰ على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن ٱلسَّـٰخِرِينَ * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلىٰ قد جاءتك آياتى فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٢] .

لقد اعتاد اليهود أن يقولوا على الله ما لا يعلمون فكذبوا حين قالـوا : ﴿ لن تمسنا النـار إلا أيامـا معدودة ﴾ .

ويقرن القرآن بين الوعيد والوعد ، ويبين نيزان الوعيـد ونور الـوعد بحيث يكـون حال العبـد بين الخـوف والرجاء . وبعد ذكر النار يأتى ذكر الجنة وما فيها من نعيم مقيم وخلود فى مستقر رحمة الله ، فيقول سبحانه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصَّٰلحٰت أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . هكذا يأتى الإيمان مقترنا بالعمل الصالح . قال سبحانه فى آيات عديدة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصَّٰلحٰت سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا ﴾[٣] ، وقال فى آية أخرى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصَّٰلحٰت يهديهم ربهم بإيمٰنهم تجرى من تحتهم الأنهٰر فى جنات النعيم ﴾[٤] ، وقال جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصَّٰلحٰت كـانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾[٥] ، وقال جل جلاله فى سورة العصر : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصَّٰلحٰت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[٦] . وهل كمال الإيمان إلا تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان ؟ .

يـا مسلما تدعى الإسـلام مجـانـا هـلا أقمت على دعـواك برهـانا

ما أكرمك يا ربنا . العمل الصالح أنت الذى وفقت إليه ، والجنة أنت الذى تفضلت بها ؛ ومع ذلك تجعلنا أصحابها وورثتها فتقول ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيًّا ﴾[٧] . وتقول : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٨] . ما أكرمك . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليًّا . شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا . أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . ما أجمل الجنة وما أجمل الخلود فيها ، وأجمل من هذا وذاك رضوان الله .

رضـاك خير من الـدنيا ومـا فيها يا مالـك النفس قاصيهـا ودانيها

(١) سورة الزمر الآيات : ٥٢ - ٥٥ .
(٢) سورة الزمر الآيات : ٥٦ - ٥٩ .
(٣) سورة مريم آية : ٩٦ .
(٤) سورة يونس آية : ٩ .
(٥) سورة الكهف آية : ١٠٧ .
(٦) سورة العصر آية : ٣ .
(٧) سورة مريم آية : ٦٣ .
(٨) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠ ، ١١ .

فـليس للـنـفس آمـال تحـقـقـهـا ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنـظرة منك يـاسؤلى ويـا أمـلى ... خـير إلىَّ من الـدنيـا ومـا فيهـا

إن النفس لتشتاق إلى ذكر شىء من صفة الجنة حتى تنشق نسيم الرضوان ، وتعيش فى كرم الرحمن .

ومما قاله الرسول ﷺ يشوقنا إلى جنة الرحمن : روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا) . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[١] . وروى ابن أبى الدنيا عن الأعمش عن ثوير قال : أراه عن ابن عمر قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل له ألف قصر بين كل قصرين مسيرة سنة يرى أقصاها كما يرى أدناها ، فى كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعو بشىء إلا أتى به[٢] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وهـذا ميثاق عـظيم وعهد مؤكـد ، أخذه الله عـلى بنى إسرائيـل ، واشتمل عـلى بنود ، أولهـا : **﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾** وثانيها : **﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾** وثالثها : **﴿ وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾** ورابعها : **﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾** وخامسها : **﴿ وأقيموا الصلاة ﴾** وسادسها : **﴿ وآتوا الزكاة ﴾** .

وقد اشتمل هذا العهد على ثلاثة جوانب : جانب العقيدة ، وجانب السلوك ، وجانب العبادة . أما جانب العقيدة فنراه جليًا فى قوله جلَّ شأنه : **﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾** ، وهذه العبارة فى حقيقتها نهى عن الشرك ، وجاءت فى صورة النفى لوجه من وجوه البلاغة ، كأن من وُجِّه إليهم النهى قد امتثلوه ونفذوه ، فنفى عنهم ما كان قد نهوا عنه ، كأنه قيل لهم : لا تشركوا ، فامتثلوا ؛ فقيل عنهم : إنهم لا يشركون . وهذا أبلغ من أن يأتى التصوير بأسلوب النهى .

والتوحيد هو الركن الركين والحصن المكين والأساس الأول فى رسالات الأنبياء . فجميع الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال الله جلَّ شأنه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] ، وقال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٤] . حتى لما جمع الله تعالى الأنبياء والمرسلين فى المسجد

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٢٢ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٢٣ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٤) سورة النحل آية : ٣٦ .

الأقصى ليلة الإسراء ، قال لرسوله : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[١] . ولقد رفع النبى هذا اللواء عاليا خفاقا عندما قال : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « لا إله إلا الله »)[٢] .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
مافى الوجود سواك رب يعبد	كلا ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل الوجود له يقر ويشهد

وقرن الله بين إفراده بالعبادة وتوحيده وبين الإحسان إلى الوالدين فقال : ﴿ وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾ . ذلك لأنه جلَّ شأنه الخالق الحقيقى للإنسان ، والوالدان هما السبب المباشر ، حتى جمع الله الشكر له وللوالدين فى آية واحدة فقال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ﴾ . عن ابن مسعود قلت : يارسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : (الصلاة على وقتها) . قلت : ثم أى ؟ قال : (بر الوالدين) . قلت : ثم أى ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله)[٣] . ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يارسول الله من أبر ؟ قال : (أمك) قال : ثم من ؟ قال : (أمك) قال : ثم من ؟ قال : (أباك ، ثم أدناك ثم أدناك)[٤] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى نبىّ الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحىٌّ والداك ؟ قال : نعم . قال : فيهما فجاهد)[٥] . وعنه رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوىّ يبكيان ؟ فقال : (ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)[٦] . وعن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : (هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى ، قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)[٧] . وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : (هما جنتك ونارك)[٨] .

وكثيرا ما قرن الله تعالى الأمر بتوحيده بالإحسان إلى الوالدين . قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾[٩] ، وقال فى سورة الإسراء : ﴿ وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾[١٠] . ثم بين حقوقهما على الأولاد خاصة حال الكبر فقال : ﴿ إما يبلغن

(١) سورة الزخرف آية : ٤٥ .
(٢) كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث بين الناس للعجلونى جـ ١ ص ١٧٣ ط الفنون . حلب سوريا .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى جـ ١٩ ص ٣٨ ط الأولى ١٩٣٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٩) سورة النساء آية : ٣٦ .
(١٠) سورة الاسراء آية : ٢٣ .

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾(١) . وتأمل معنى قوله تعالى : ﴿ عندك ﴾ ولم يقل إما يبلغن الكبر ، لأن العندية هنا تشير إلى معنى إنسانى كبير ، هو أن الوالدين حال الكبر كالضيف الموجود عندك ، مايلبث أن يرتحل ، فعليك بإكرامه . كذلك الوالدان قد قرب ارتحالهما من هذه الدار إلى الدار الباقية ، وقد قال الصادق المعصوم ﷺ : (رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه) . قيل من يا رسول الله ؟ قال : (من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)(٢) .

ثم بعد ذلك أمرنا بالإحسان إلى ذوى القربى . وقد عبر القرآن عنهم بـالأرحام ، وأمـر الله تعالى بصلتهم سـواء أكانت القـرابة من جـانب الأب أو الأم ، فقـال : ﴿ واتقـوا الله الـذى تسـاءلـون بـه والأرحام ﴾(٣) ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سره أن يُمد له فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه)(٤) . وعن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)(٥) .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون ، فقال : (يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام . والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جارٌ إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين . والكذب كله إثم إلا ما نفعت به مؤمنا ودفعت به عن دين ، وإن فى الجنة لسوقا ما يباع فيها ولا يشترى ، ليس فيها إلا الصور(٦) . فمن أحب صورة من رجل أو امرأة ظل فيها)(٧) .

كذلك أوصى الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، واليتيم هو الصغير الذى مات أبوه . وقد جاء بيان حقوقه فى سورة كاملة هى سورة النساء . وقد بين الله درجة كافل اليتيم فى الآخرة ، حيث أشار نبيه ﷺ بإصبعيه قائلا : (أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا)(٨) . وقال ﷺ : (إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم)(٩) .

ومن السلوك القويم الإحسان إلى المساكين . والمسكين هو الذى لا يقوى على العمل لعجزه بحيث أسكنته الحاجة . وقد أوصى الله تعالى رسوله بهما خيرا فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾(١٠) .

---

(١) سورة الاسراء آية : ٢٣ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة النساء آية : ١ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الصور : الشبه والهيئة .
(٧) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٦٠ ط وزارة الأوقاف .
(٨) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٧٢ ط وزارة الأوقاف .
(٩) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٧٤ ط وزارة الأوقاف .
(١٠) سورة الكهف آية : ٢٨ .

كذلك أوصانا الله تبارك وتعالى أن نقول للناس قولا حسنا . فالكلمة الطيبة صدقة ، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة . وهكذا جمعت الآية بين الإحسان العملى والإحسان القولى . كذلك أمر الله تعالى بتطهير القلوب بإقامة الصلاة ، وتطهير الأموال بإيتاء الزكاة . وهكذا أمروا بفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، ولكنهم تولوا عن تنفيذ ما أمروا به إلا القليل منهم . والقلة لا تكفى فى وجود الكثرة الفاسدة . فقد أمر الله تعالى جبريل ذات يوم أن يخسف الأرض بقرية . فقال جبريل : يارب إن فيها فلانا الصالح ؟ فقال الله له : به فابدأ ، فإنه رأى المنكر فلم يتغير وجهه من أجلى . ثم قال الله تعالى : ﴿ وأنتم معرضون ﴾ إمعانا فى توليهم عن الحق وانصرافهم عن تنفيذه . فإن من تولى قد يعود . أما من تولى وأعرض فأنّ يعود ؟

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)

المفردات : السفك : الصب والإراقة . التظاهر : هو التعاون . الإثم : هو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم . العدوان : تجاوز الحد فى الظلم .

وهذا ميثاق آخر أخذه الله على القوم بعدما أخذ عليهم ميثاقاً فى الآية السابقة ، أمرهم فيه أن يوحدوه ، وأن يحسنوا إلى الوالدين واليتامى والمساكين وذوى القربى ، وأمرهم فيه أن يقولوا للناس حسنا ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وكانت النتيجة كعهدنا بهم نكثاً للعهد ونقضاً للميثاق وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى تعقيباً على الميثاق السابق : ﴿ ثم توليتم وأنتم معرضون ﴾ ، ولم يقل ثم توليتم وأعرضتم ، إنما جاء التعبير بالجملة الإسمية وأنتم معرضون ، لأنها تفيد الثبات والدوام كأن الإعراض تغلغل فى خلاياهم وتمكن من أنسجتهم وأعضائهم وأجهزتهم ، فأصبح سداهم الإعراض ولحمتهم نقض المواثيق . وجاء فى الميثاق الذى بين أيدينا ، وهو موجه إلى اليهود المعاصرين للعصر المحمدى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من ديٰركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ . ولهذه الآية

قصة . ففى هذا الميثاق نهاهم الله عن أمرين : الأول : سفك الدماء . الثانى : الإخراج من الديار ؛ وأقروا بهذا . والاقرار سيد الأدلة ، إذ هو حجة مقصورة على المقر وشهدوا على ما أقروا ، والإشهاد حجة من أقوى الحجج . فهل صانوا هذا الميثاق وحفظوه من الخيانة ؟ كلا . اسمع معى إلى كلام العليم الخبير : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ . فكيف كان ذلك كذلك ؟ كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، كما كان فيها قبيلتان من العرب كافرتان هما : الخزرج والأوس ؛ فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء للخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء للأوس ، وكانت الحرب بين الأوس والخزرج دائرة على قدم وساق لاتكاد تضع أوزارها . وبحكم ما بين اليهود وبين القبيلتين من تحالف ، كان بعض اليهود يقتل البعض الأخر وفق انتمائه لإحدى القبيلتين ويخرجونهم من ديارهم ويتعاونون عليهم بالإثم والعدوان ، فبذلك كانوا يقتلون أنفسهم ، لأن أبناء الملة الواحدة كالنفس الواحدة . جاء فى الحديث الشريف عن الصادق المعصوم : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[1] .

وإنما تظاهر بعضهم على بعض استنصاراً للقبيلة التى تحالف معها . لكن يأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة ، أن بعض اليهود إذا وقع أسيراً ، كان البعض الآخر يأخذ ديته ويطلق سراحه ، ولو كان يحارب مع قبيلة معادية . وهكذا وقعوا فى التناقض كعهدنا بهم . قال جلّ شأنه : ﴿ وان يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ . كيف كان ذلك ؟ ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ؟ والمقصود بالكتاب هنا هو التوراة ، فقد نهاهم الميثاق عن سفك الدماء والإخراج من الديار ، فكفروا بهذا وخالفوه ، فسفكوا وأخرجوا . وأمرهم الميثاق فى التوراة أن يفدوا أسراهم ، فآمنوا بذلك ، فسفكوا من جهة ودفعوا فدية الأسرى من جهة أخرى ، فألقى الله تعالى عليهم اللائمة ، ونعى عليهم أفعالهم المحيرة . قال : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتب وتكفرون ببعض ﴾ . إن الإيمان لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فهو متماسك الأركان وطيد البنيان ، إذا اضطرب أحد أركانه اضطرب كيانه كله ، وهذا قول حق ؛ ثم حكم الله تعالى عليهم بالجزاء العادل ، قال : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم ﴾ أى الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض ، وهذا خلل فى الإيمان كما تنحرف الإبرة المغناطيسية عندما يحال بينها وبين الاتجاه المرسوم لها ، ما جزاء هؤلاء إلاّ خزى فى الدنيا وعار وشقاء ، وهذا شأن أصحاب المبادىء المنكوسة والقيم المعكوسة والمفاهيم المنحوسة . هذا فى الدنيا ، ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، أما فى الآخرة فإنهم سيردون إلى أشد العذاب ، وما أدراك ما أشده . اسمع معى إلى قوله جلّ شأنه : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقومِ * طعام الأثيم * كالمُهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذُق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[2] . فاعلموا يا هؤلاء أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الله يدرى كل ما تضمر يعلم ما تخفى وما تظهر

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٢ ط دار الفكر . (٢) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٤٩ .

وإن خـدعت النـاس لم تسـتطع خـداع من يـطوى ومن ينشـر

وفى أشد العذاب كلمة نحب أن نسجلها عن فم رسول الله ﷺ . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أن مقمعًا من حديد جهنم وضع فى الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض)[1] . وفى رواية لأحمد قال : قال رسول الله ﷺ : (لو ضرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت ثم عاد)[2] .

عن عبد الله بن الحارث بن جزير الزبيدى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً . وإن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة)[3] .

وحكم الله عليهم حكماً آخر جزاء ما قدموا فقال : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ . وما أعظم الفرق وما أبعد البون بين حياة فانية وحياة باقية . هؤلاء باعوا الباقية واشتروا الفانية ، فلا يخفف عنهم العذاب . وهذا شديد الوقع على النفس أن يظل العذاب شديداً لا هوادة فيه ولا تخفيف . قال تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين * ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بـالحق ولكن أكثركم للحق كارهون * أم أبرموا أمراً فإنـا مبرمـون * أم يحسبون أنـا لا نسمع سـرهم ونجواهم بـلى ورسلنا لـديهم يكتبون ﴾[4] . فهؤلاء لا يخفف عنهم العذاب فى الآخرة ولا يجدون من ينصرهم من دون الله حتى ولو اجتمع أهل السموات والأرض . قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾[5] ، وقال : ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴾[6] ، وقال جلّ شأنه : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[7] .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

المفردات : قفاه به : إذا أتبعه إياه ، ﴿ عيسى ﴾ بالسريانية : يسوع ، ومعناه السيد أو المبارك . ﴿ مريم ﴾ بالعبرية : الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس . ﴿ البينات ﴾ : الحجج الواضحة التى أوتيها عليه السلام من المعجزات . ﴿ أيدناه ﴾ : أى قويناه . روح القدس : أى الروح المقدس المطهر ،

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٩ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٨٠ .
(٥) سورة الحج آية : ١٨ .
(٦) سورة الكهف آية : ١٧ .
(٧) سورة السجدة آية : ٤ .

وهو جبريل عليه السلام ، الذى نزل على الأنبياء ويقدس نفوسهم ويزكيها ، ويطلق عليه الروح الأمين . قال : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾[1] . والغلف : واحدها أغلف وهو الذى لا يفقه ما يقال له .

اقتضت سنة الله تعالى أن يرسل إلى عباده رسلاً مبشرين ومنذرين ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[2] . ولما كان بنو إسرائيل قوماً غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع قساة القلوب ، كثرت الرسل إليهم ، وذلك لفساد أحوالهم . فما الرسل إلا دعاة إلى الله ، يهدون بالحق وبه يعدلون . ولقد أقام الله فى تلك الاية الحجة على بنى إسرائيل لتنقطع معاذيرهم ، فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل ﴾ فكيف تضلون وفيكم كتاب الله وقد اشتمل على الأحكام التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وما أعقل مؤمنى الجن عندما استمعوا إلى القرآن من سيد المرسلين محمد ﷺ ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾[3] . لقد كان هذا النفر من الجن ذا فقه ومعرفة ، إذ قالوا كتاباً أنزل من بعد موسى ولم يقولوا من بعد عيسى ، وهم يعلمون أن الرسالة المحمدية جاءت بعد عيسى ، وإنما قالوا من بعد موسى ، لأن التوراة كتاب أحكام ، كما أن القرآن كذلك ، أما الإنجيل فقد جاء بعد التوراة بالوصايا الروحية التى تذيب جليد المادة المتراكمة فوق القلوب ، ولذا كان المسيح يقول : (يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) . فكيف يضل قوم بينهم رسول ومعه كتاب ولم تنقطع الرسالات بعد موسى إليهم ، بل ظلت متتابعة كما قال تعالى : ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾[4] ، وكما قال جل شأنه هنا : ﴿ وقفّينا من بعده بالرسل ﴾ أى وأتبعنا إرسال الرسل إليهم ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، أى المعجزات الواضحات ، كإحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله . والأكمه هو الذى ولد فاقد البصر ، والبرص مرض جلدى خطير . وأيدنا عيسى بروح القدس ، أى جبريل ، والقدس هو الطهر ، أى بالروح الطاهرة . قال ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)[5]. قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾[6] . وجاء عيسى ببعض التخفيف عن بنى إسرائيل فقال لهم : ﴿ ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾[7] . ثم ألقى الله تعالى على القوم باللائمة لمواقفهم المشينة من الرسل ، وكان الأجدر بهم أن يصدقوهم ويطيعوهم وينصروهم ، لكن كان الواقع يدعو إلى الرثاء والأسى . صارت وقائع الأشياء حسب الهوى ، والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن عرف

---

(1) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ ـ ١٩٥ .
(2) سورة النساء آية : ١٦٥ .
(3) سورة الأحقاف آية : ٣٠
(4) سورة المؤمنون آية . ٤٤
(5) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٤٧ ط دار الفكر .
(6) سورة المائدة آية : ١١٠ .
(7) سورة آل عمران آية : ٥٠ .

الهوى فقد هوى . وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، فسارت الأمور على حسب ما قال الله فى شأنهم : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ . كذبوا موسى وعيسى ومحمداً ، وقتلوا زكريا ويحيى ، وإنما قال تقتلون هكذا بصيغة المضارع ، لأن القتل ظل عادة فيهم ، فهم قوم متعطشون إلى الدماء كالذئاب تنعشهم رؤ ية الدم .

ثم اسمع ماذا قالوا استكباراً وعناداً :

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ غلف ﴾ ، أى مغلفة فى أكنة محجوبة عن إدراك الحق وسماعه ؛ وقد قال حذيفة : قلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر . هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[1] . فاستحقوا من الله بعد ذلك اللعنة والطرد من رحمة الله ، لا ظلماً ، إنما بسبب كفرهم . قال تعالى ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ﴾ ، أى إذا آمنوا فإيمانهم قليل ، حيث قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، والقليل هنا كالعدم ، وقد يكون المعنى أنه لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ إلا القليل . وقد يطلق العرب لفظ القليل على لا شيء كما فى قولهم هذه الأرض قلّما تنبت أى لا تنبت شيئاً .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

المفردات : ﴿ يستفتحون ﴾ : أى يستنصرون ، وشرى واشترى يستعملان حيناً بمعنى باع ، وأخرى بمعنى ابتاع وأخذ ، والمراد هنا المعنى الأول . والبغى فى الأصل : الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شيء ، وباء : رجع . ومُهين : أى فيه إهانة وإذلال ، ووراء بمعنى سوَى ، كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام : ما وراء هذا الكلام شيء .

(١) سورة الأنفال الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ، ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ .

وهكذا أعمى القوم عنادهم فضلوا سواء السبيل . لقد بشروا واستفتحوا وطلبوا النصر لبعثة النبى ، كما وجدوه فى التوراة ، ووجدوا نعته وصفته ، وكانوا يستنصرون ببعثته على المشركين ، ويقولون إنه سيأتى موحداً كما بعث موسى بالتوحيد ، وسوف نكون معه فنقتلكم قتل عاد وإرم ، وإن هذا النبى قد أظلنا زمانه ، وهنا اعتراف صريح لا يعتريه شك ولا يعلوه أدنى غبار ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ . فماذا حدث ؟ فلما جاءهم ما عرفوا من الحق وبعث النبى الذى نعتوه ووصفوه وبشروا به واستفتحوا به على الكافرين واستنصروا به ، كفروا به وجحدوه حسداً من عند أنفسهم : لماذا جاء من ولد إسماعيل ولم يأت من ولد إسحق ؟ وهكذا انغمسوا فى ظلمات الباطل وتخبطوا فى دياجير الحسد ، حتى لقد سأل المشركون أحد كبار اليهود حيىّ بن أخطب وقالوا له : إنكم أهل كتاب فهل تجدوننا فى التوراة أهدى أم محمداً ؛ فقال لهم حُيىّ : بل أنتم أهدى من محمد . وهكذا قلب الحق باطلاً والباطل حقاً . ونزل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾[1] . ثم بين الله الدافع الذى من أجله زور الحق وغالط نفسه فقال : ﴿ أم يحسدون الناس على ما ءاتاهم الله من فضله ﴾[2] . قال المفسرون : المراد بالناس فى هذه الآية رسول الله محمد ﷺ ، وهكذا لجّ القوم فى طغيانهم يعمهون . جاءهم كتاب من عند الله مصدّقا لما معهم ، وهو القرآن الذى جاء مصدّقاً لما فى التوراة التى بين أيديهم ، وكانوا قبل مجىء هذا الكتاب وبعثة النبى يستنصرون ببعثته ويعترفون بنبوّته ، فلما بُعث هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى قلوبهم ، وكفروا بما عرفوا ، فاستحقوا لعنة الله . ولعنة الله على الكافرين الذين كفروا بالقرآن ونبى القرآن ، واستحقوا التعذيب بقوله تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم** ﴾ ، أى بئس الشىء الذى باعوا به أنفسهم ، وشرى هنا بمعنى باع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾[4] أى باعوه . فبئس الشىء الذى باع اليهود به أنفسهم ؛ إنه الكفر بغياً وحسداً من أجل أن أنزل الله الرسالة على محمد ، وهذا فضل من الله . وقد قال الكافرون قبل ذلك بعد بعثة النبى ﷺ : ﴿لولا نزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم ﴾[5] ويقصدون بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجلين عروة ابن مسعود الثقفى من الطائف ، والوليد بن المغيرة من مكة ؛ فقال لهم الله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا

(١) سورة النساء الآيتان ٥١ ، ٥٢ .
(٢) سورة النساء آية ٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٠٧
(٤) سورة يوسف آية : ٢٠ .
(٥) سورة الزخرف آية : ٣١ .

ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾(١) . لقد قالوها عناداً واستكبارا . قالوا : لا نؤمن بما أنزل على يتيم أبى طالب . وهؤلاء اليهود أنكروا الرسالة والرسول : لماذا لم يكن منهم من بنى إسرائيل ؟ ولماذا جاء عربياً من ولد إسماعيل ؟ فباءوا بغضب على غضب : باءوا بغضب من الله بكفرهم بموسى وعيسى ، وبغضب آخر بكفرهم بمحمد ورسالته . ولهؤلاء الكافرين ، ولكل كافر ، عذاب مهين يجعله حقيراً ذليلاً . ثم إن من مساوىء هؤلاء القوم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله على محمد ، وهم يعلمون أن رسالته خاتمة الرسالات ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن كتابه جاء مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل ، وبشّر به كل الأنبياء ، والله يقول فى الحديث القدسى الجليل : (لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا علىّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) . ماذا كان جوابهم ؟ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما سواه ، وهو الحق الذى لا ريب فيه والذى جاء مصدقاً لما معهم . وقد لقّن الله جلّ جلاله رسوله تلك الحجة : قل لهم يا محمد : إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم وكفرتم بما سواه ، فلماذا تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ أهذا هو الإيمان ؟! لا ثم لا . . فشرّ الناس من قتل نبيًّا أو قتله نبى . فأخبرونى إن كنتم صادقين : لم تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ إنهم عنصر دموى رهيب .

نسأل الله أن يوحّد الأمة ، وأن يكشف الغمة ، وأن يبدد الظلمة .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

المفردات : ﴿ البينات ﴾ : هى الآيات والدلائل التى تدل على صدق النبى والمعجزات التى تؤيد نبوته كالعصا واليد . ﴿ العجل ﴾ : هو الذى صنعه لهم السامرىّ من حليّهم وجعلوه إلهاً وعبدوه . وأشرب قلبه كذا : أى حل محل الشراب ، كأن الشىء المحبوب شراب يساغ ، فهو يسرى فى قلب المحب ويمازجه كما

(١) سورة الزخرف آية : ٣٢ .

يسرى الشراب العذب البارد فى اللهات . وحقيقة أشرب كذا : جعله شاربا له ، والمراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، ﴿ خالصة ﴾ : أى خاصة بكم . ﴿ تمنوا الموت ﴾ : أى تشوّقوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه . ﴿ بمزحزحه ﴾ : أى بمنجيه من العذاب . و﴿ البصير ﴾ : العالم بكنه الشىء ، الخبير به .

مازالت الآيات البينات تترى فى بنى إسرائيل . وعزيز على النفس أن يرى قوماً يعيشون فى رزق الله وخيره ويعبدون غيره . ويرون الآيات البينات واضحة وضوح الشمس فى ضحاها ، جلية جلاء القمر إذا تلاها ، مشرقة إشراق النهار إذا جلاّها ، ويأبون مع ذلك إلا أن يعيشوا فى ظلمة الليل إذا يغشاها ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ بالمعجزات الواضحات . . ثم ماذا ؟ بدلاً من أن يزيد هذا الإيضاح إيمانكم على إيمان ، كانت النتيجة عكسية . اتخذتم العجل إلهاً وقلتم هذا إلهكم وإله موسى فنسىَ موسى إلهه هنا ، فذهب يبحث عنه هناك . قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظـلمون ﴾[1] . وقال هنا : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ . هذا موقف تسيل له النفس مرارة ، وتتصدع له الكبد . ثم اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم والعهد المؤكد ورفعنا فوقكم الجبل ، لتأخذوا أحكام الله بقوة وعزم ، وقلنا لكم : ﴿ خذوا ما ءاتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ فقلتم سمعنا وعصينا . إنه لموقف شنيع .

تعصى الإلـه وأنت تظهـر حبـه   هـذا لعمرى فى القيـاس بـديـع
لـو كان حبّـك صـادقـاً لأطعتـه   إن المـحب لمـنَ يحـب مـطيـع

﴿ سمعنا وعصينا ﴾ !! أنعدّ هذا تمردا على طاعة الله ؟ حتى ولولم يقولوا عصينا بألسنتهم فقد قالوها بأفعالهم ، وما يصدر عنهم من مخالفات . ويرحم الله أصحاب محمد ﷺ ، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . هذا وبعبادتهم للعجل ، تغلغل حبه فيهم كأنهم أشربوا حبه فى قلوبهم فتغلغل وتمكن أيما تمكن . قال تعالى لهم : ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمـنكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ، أى بئس الذى يأمركم به إيمانكم المدعى إن كان إيمانكم أمركم بعبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، وتكذيب الرسل ، فبئس هذا الإيمان الذى يؤمن بالموبقات إن كنتم صادقين فيما ادعيتم .

ثم تحداهم الله بعد ذلك فقال : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صـدقين ﴾ . لقد كانوا يدعون أن الآخرة لهم وحدهم ، ولن يدخل أحد الجنة سواهم ﴿ وقـالوا لن يـدخل الجنـة إلا من كان هـوداً أو نصارى تلك أمـانيهم قـل هـاتـوا بـرهـانكم إن كنتم صادقين ﴾[2] . فتمنوا الموت يا من تدّعون أنكم شعب الله المختار ، ويا من تقولون إننا أبناء الله وأحباؤه . قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق . فإن كان عندكم الشجاعـة الأدبية فليتمن أحـدكم الموت ، إن كنتم صادقين فى دعواكم . والله جلت قدرته لما تحدّاهم بتمنى الموت يعلم علم اليقين أنهم لن

(١) سورة البقرة آية : ٥١
(٢) سورة البقرة آية : ١١١ .

يتمنوه أبداً ، وذلك بسبب ما كسبت أيديهم من شنيع الخصال وجرائم الأعمال . فكيف يتمنون الموت وهم يكرهون لقاء الله ؟ ولو تمناه أحدهم لمات على الفور . ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وبما هم فيه من ضلال بعيد . وقد أخبر الصادق المعصوم ﷺ فقال : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) . وقد أنشد عبد الله بن رواحة هذه الأبيات ، وروحه تتشوق إلى لقاء الله يوم مؤتة :

يـا حبـذا الجنـة واقـترابهـا طـيـبـة وبـارد شـرابهـا

وأن عمار بن ياسر فى حرب صفين قال :

غـداً نـلقـى الأحـبـة محـمـداً وصـحـبـه

وكان سلمان رضى الله عنه يقول : « عجبت لثلاثة وبكيت لثلاثة : عجبت لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه ، وعجبت لضاحك مِلء فيه لا يدرى أالله راضٍ عنه أم غاضب عليه . وبكيت لفراق الأحبة محمداً وصحبه ، وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت ، وبكيت للوقوف بين يدى الله تعالى لا أدرى أينطلق بى إلى الجنة أم إلى النار ؟ » . ولما حضرت بلالاً الوفاة صاحت زوجته : وامصيبتاه . قال لها : بل قولى وافرحتاه . . غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه .

ثم بيّن الله تعالى حقيقة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل فقال : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **على حياة** ﴾ بالتنكير هكذا ولم يقل على الحياة ، ويدل على أنهم أحرص الناس على أى حياة مهما كانت ذليلة وضيعة حقيرة ، والحرص على الحياة يورث صاحبه الجبن والبخل والذل ، فهو يخشى الجهاد ، لأنه حريص على الحياة ، فهو جبان ، ومن ثم فقد قالوا لنبيهم موسى : ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غلبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يـٰموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هـٰهنا قـٰعدون ﴾[1] .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ لما قال لهم يوم بدر : (أشيروا علىّ أيها الناس ، فقام أحدهم وقال : يارسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه وراءك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) وهذا هو الفرق بين الذين يحبون لقاء الله وبين الذين يحرصون على الحياة . والرجل الحريص على الحياة بخيل بماله ، ضنين بالمروءة ، وغد عند الشدائد ، لا يثبت أمام الأحداث ، ليس عنده وفاء وليس عنده صديق ، إنما هو نهّاز للفرص . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيوٰة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له

(١) سورة المائدة الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[١] . والرجل الحريص على الحياة ذليل فى سبيل الحصول على المادة ، يتسولها من الناس ولو أدى ذلك إلى ضياع ماء وجهه ، ورحم الله من قال : نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بإبرتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى . وإنما قال الله تعالى فى شأنهم ﴿ أحرص الناس ﴾ أفعل تفضيل ، لأننا جميعا حريصون على الحياة مهما كان هواؤ ها سموماً وطعامها زقوماً وماؤ ها آسناً ، فكل المخلوقات يستزيدون من الدنيا مهما شكوها ، ولو ملح عذبها وخشن ليّنها . وماكان قول النملة لأخواتها : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾[٢] ، ماكان هذا إلا حرصاً على الحياة . من ثم فإن هؤلاء اليهود ليسوا حريصين فحسب ، إنما هم أحرص الناس ، بل وأحرص من الذين أشركوا وهم لا يؤمنون بالبعث ، إلا أن اليهود أشد منهم حرصاً ، يود أحدهم لو عاش على وجه الأرض ألف سنة ، ولكن لن يزحزحه ذلك العيش الطويل عن عذاب الله مهما عمّر .

فـالـليـل مـهـما طـال فـلابـد من طلوع الـفجـر
والـعـمـر مـهـما طـال فـلابـد من دخـول الـقبـر

لما حضرت الوفاة نبى الله نوحاً قالت له الملائكة : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟ قال : رأيت الدنيا كدار لها بابان : دخلت من باب وخرجت من باب .

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ، فإنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : العدو : ضد الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع . والنبذ : طرح الشىء والقاؤه . الفريق : العدد القليل .

جبريل ملك كريم ، وهو رئيس الملائكة ، وقد ورد ذكره فى غير موضع من كتاب الله بالاسم والصفة . ففى هذه الآية الكريمة ورد ذكره باسمه ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ . وجبريل أو جبرائيل معناه عبد الله ، وقد وردت له فى القرآن العظيم صفات منها قوله جلّ شأنه : ﴿ علمه شديد القوى * ذو مرة

(١) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦ .
(٢) سورة النمل آية : ١٨ .

فاستوى ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾(٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثمّ أمين ﴾(٣) . ولقد حدد جبريل مكانته حسب ما علمه الله عندما انقطع عن الرسول خمسة عشر يوماً ، فسأله الرسول بعد عودته وقال : يا أخى يا جبريل ، لقد احتجبت عنى حتى اشتقت إليك ، فقال له الأمين جبريل : لقد كنت يارسول الله أشد شوقاً منك إليك ، ولكنى عبد مأمور ، إذا أمرت تنزلت واذا منعت احتبست ، ثم تلا عليه قوله تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كـان ربك نسيـا * رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾(٤) .

إذاً فجبريل هو سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، ينزل بالآيات والنذر ، كما ينزل بالانتقام على قوم غضب الله عليهم . أما ميكائيل فإنه ملك موكل بالغيث ، ينزل بالرحمة . ولقد شبه النبى ﷺ يوم بدر ، شبه أبا بكر بإبراهيم وعيسى فى الأنبياء ، وبميكائيل فى الملائكة ، وشبه عمر بنوح وموسى فى الأنبيـاء ، وبجبريل فى الملائكة . إذن فلماذا عادى اليهود الملك الكريم جبريل ؟ لقد ورد فى تفسير هذه الآية روايات عدة نوجزها فيما يلى لما فى كل رواية من المعانى ما يحتاج إليه طالب تفسير هذه الآية .

روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال : « حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى ، فقال رسول الله ﷺ : (سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام) . فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : (سلوا عما شئتم) . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ : (عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنى ؟) . فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق . فقال : (نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟) . فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله ﷺ : (اللهم اشهد عليهم) . (وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض ، وأن ماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الـولد أنثى بـإذن الله عز وجل ؟) . قالوا : اللهم نعم . قال : (اللهم اشهد) . (وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟) . قالوا : اللهم نعم . قال : (اللهم اشهد) . قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجىء معك أو نفارقك . قـال : (فإن وليى

(١) سورة النجم الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٣) سورة التكوير الآيات : ١٩ - ٢١ .
(٤) سورة مريم الآيتان : ٦٤ ، ٦٥ .

جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه) . قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : (فما يمنعكم أن تصدقوه ؟) . قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ إلى قوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب(1) .

وجاء فى رواية أخرى أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : أخبرنا عن الروح ؟ قال : (أنشدكم بالله وبآياته عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى ؟) قالوا : اللهم نعم ، ولكنه عدو لنا وهو ملك ، إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء ، فلولا ذلك لاتبعناك . فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قل من كان عدواً لجبريل . . ﴾(2) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس قال : أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : والله على ما نقول وكيل . قال : (هاتوا) ، قالوا : فأخبرنا عن علامة النبى ؟ قال : (تنام عيناه ولا ينام قلبه) . قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : (يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت) . قالوا : أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : (كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا) . قال أحمد قال بعضهم : يعنى الإبل فحرم لحومها . قالوا صدقت . قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : (ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب ، بيديه ، أو فى يديه ، مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى) . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : (صوته) ، قالوا : صدقت . قالوا : إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها : إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : (جبريل عليه السلام) ، قالوا : جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ؟ لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والمطر والنبات لكان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾(3) إلى آخر الآية .

وروى عن الشعبى قال : نزل عمر الروحاء فرأى رجالاً ينتدرون أحجاراً يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هٰهنا . قال : فكفَّر ذلك ، وقال : أيما رجل أدركته الصلاة بواد صلاها ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مررنا بهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ؛ فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا . فقلت : إنى آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن . قالوا : ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق بـه . قال فقلت لهم عند ذلك :

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ط الشعب .

(2) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٦ ط الشعب .

(3) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٦ ط الشعب .

نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه . قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت . قال : أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فإنا نعلم أنه رسول الله . قلت : ويحكم إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة وسلماً من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة . قلت : ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل . قالوا : إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا . قال قلت : وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال فقلت : فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، وما ينبغى لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل . قال : ثم قمت فاتبعت النبى ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال : (يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل) ، فقرأ علىّ : ﴿ من كان عدوا لجبرائيل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ حتى قرأ الآيات : قال قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر[١] .

قال البخارى : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله وهو فى أرض يخترف[٢] فأتى النبى ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : (أخبرنى بهذا جبرائيل أيضاً) . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ . (وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع المرأة وإذا سبق ماء المرأة تنزعت) . قال : أشهد ألاّ إله إلا الله وأنك رسول الله ، يارسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلمُوا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتون . فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ : (أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟) قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . قال : (أرأيتم إن أسلم ؟) قالوا : أعاذه الله من ذلك . فخرج عبد الله فقال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : هو شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه فقال : هذا الذى كنت أخاف يارسول الله[٣] .

ومن جو هذه الروايات مجتمعة لمسنا مدى عناد القوم وإصرارهم على الباطل . إنهم بمعاداتهم أمين الوحي جبريل استحقوا من الله أن يؤذنهم بالحرب . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب) . ومن يقدر على حرب الله ؟ ﴿ وكذلك أخْذُ ربك إذا أخَذَ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٤] . وقد حكم الله عليهم حكماً جاء جزاء وفاقاً ، فقال : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٨ ط الشعب .
(٢) يخترف : يجنى الثمر .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٧ ط الشعب .
(٤) سورة هود آية : ١٠٢ .

أطفأها الله ﴾(١) . وهل عادوا جبريل إلا لأنه ينزل بالقرآن على سيد الأنبياء ؟ والقرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ جاء مصدقاً لما بين يديه ومصدقاً لما معهم من التوراة ، ومن اتبعه وعمل بما فيه كان على هدى وبشارة ، فإنه لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، لا يمله الأتقياء . وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ويرحم الله عقلاء الجن الذين قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرءانا عجباً * يهدى إلى الرشد فئامنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾(٢) .

إن عداوة جبريل كعداوة أى ملك ، كعداوة أى رسول ، كلها تؤدى إلى الكفر . لأن الإيمان لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول . بهذا حكم العلى الكبير إذ يقول : ﴿ ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل ءامن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾(٣) ، وقال سبحانه فى حق قوم فرّقوا : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكـفرون حقا وأعتدنا للكـفرين عذاباً مهينا ﴾(٤) .

وقال فى حق قوم سلكوا الصراط المستقيم : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٥) .

والرسل يشملون رسل الملائكة ورسل الإنس . قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾(٦) . ثم قطع الله المعاذير على كل معاند جحود فقال : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ . فبعد وصف الآيات بالبيان التام والدليل الساطع والبرهان القاطع ، لا عذر ولا حجة ، إذ لا يجحد الشمس فى كبد النهار إلا من كان على بصره غشاوة ، ولذا جاء أسلوب الحصر قويا عندما حصر الكفر فى الفاسقين الخارجين عن حدود الله ، الناكثين للعهود ، الناقضين للمواثيق والوعود والذين ﴿ إذا ذكّروا لا يذكرون * وإذا رأوا ءاية يستسخرون ﴾(٧) ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ للمكذّبين * فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾(٨) . ﴿ قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطـغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾(٩) . فاللهم اجعلنا من أوليائك وتول أمرنا ، وكن ولينا ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٤ .
(٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٤) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٥) سورة النساء آية : ١٥٢ .
(٦) سورة الحج آية : ٧٥ .
(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٨) سورة المرسلات : الآيات : ٤٨ ــ ٥٠ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

وهؤلاء القوم لما كانت عادتهم العناد والجحود ، وصفهم الله بما ركز ورسب فى طباعهم من نقض العهود ، فجاء المعنى معبراً عنه بأداة شرط تفيد التكرار والاستمرار . قال تعالى : ﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ ، والنبذ معناه الطرح والرمى ، وهو يفيد عدم الاكتراث . ولما كان الفريق يشمل العدد القليل والكثير ، بيّن الله فى تلك الآية الكريمة أن الفريق هنا يراد به الكثرة ، فقال : ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ ، وقول الله صدق ، وحكم الله حق ، فما آمن منهم برسول الله ﷺ إلا القليل .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخر بيّن الله فيه من المساوىء ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان ؛ قال سبحانه :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

المفردات : كفر : أى سحر ، والسحر : لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره : خدعه ، وجاء فى كلامهم : عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث : (إن من البيان لسحراً) . والإنزال : الإلهام ، وسمى بذلك لأنهما ألهماه واهتديا إليه من غير معلم ، والملكان رجلان صاحبا هيئة ووقار يجلهما الناس ويحترمونهما ؛ بابل : بلد بالعراق لها شهرة تاريخية قديمة . والخلاق : النصيب والحظ ، وشروا : أى باعوا .

لقد سجل الله تعالى على اليهود مواقف تنبو منها الأذواق السليمة والفطر الصحيحة . ففى آية سبقت قال الله تعالى فى شأنهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[1] . وفى هذه الآيات التى بين أيدينا

(١) سورة البقرة آية : ٨٩ .

قال جلَّ ذكره : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتٰب كتٰب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ . ويستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين أن الكتاب مصدق لما معهم من التوراة . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وأن الرسول مصدق لما معهم أيضاً من التوراة ، والمراد به رسول الله محمد ﷺ ، فكفروا بالكتاب ونبذوا ما جاء به الرسول وراء ظهورهم . وفى هذا دلالة على مدى استهزائهم بأحكام الله وهم يعلمون أنه الحق . قال تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾[1] . ولقد صرح القران الكريم عما انطوت عليه نفوس القوم من العناد والإصرار . قال سبحانه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتٰب بكل آية ماتبعوا قبلتك ﴾[2] . ولما نبذ هؤلاء القوم ما فى الكتاب وما جاء به الرسول وهم يعلمون أنه الحق ، صور القرآن حالهم بأنهم لا يعلمون ، فلا خير فى علم لا يصحبه عمل .

ثم أضاف العلى الحكيم فى كتابه موقفا آخر لليهود يدعو إلى الأسى والحزن العميق . إنهم لم يكتفوا بنبذ العهود ونقض المواثيق ونكث الوعود . لقد اقترفوا جرما لا يقل شناعة عما اقترفوه من قبل . قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمٰن وما كفر سليمٰن ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ .

إن اليهود اتبعوا كلام السحرة من الشياطين وما كانوا يروونه من كتب السحر على عهد نبى الله سليمان بن داود ، وأساءوا الأدب على سليمان نفسه . فقد اتهموه بأنه يعمل بالسحر ليثبت ملكه !! معاذ الله أن يكون نبى الله كذلك ، وهو الذى قال فيه رب العزة : ﴿ ووهبنا لداود سليمٰن نعم العبد إنَّه أوابٌ ﴾[3] . وقال الله تعالى فى شأنه : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد * هذا عطاؤ نا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[4] . وأى سحر هذا الذى يثبت ملكاً أراد الله تثبيته ؟ لقد دعا سليمان ربه قائلاً : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾[5] . وهل السحر إلا صرف الأشياء عن حقيقتها ؟ فهو تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ، وتأثيره لا يتجاوز هذا المعنى ، والسحر كفر ، قال ﷺ : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[6] ، وقال رب العزة فى هذه الآية : ﴿ وما كفر سليمٰن ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ ، أى وما سحر سليمان ولكن الشياطين سحروا فكفروا بذلك . وفرق شاسع بين سحر السحرة ومعجزة الأنبياء . فتأثير السحر تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ناتجة عن اتصال شياطين الإنس بشياطين الجن . فيقوم شيطان الجن بتكفير شيطان الإنس بأن يأمره أن يتخذ صنما يعبده ، أو يأمره بوضع المصحف تحت قدمه فى مكان النجاسات ، إلى غير ذلك من صور الكفر . فإذا ما فعل شيطان الإنس ذلك وكفر ، استطاع شيطان الجن

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٥ .
(٣) سورة ص آية : ٣٠ .
(٤) سورة ص الآيات : ٣٦ - ٤٠ .
(٥) سورة ص آية : ٣٥ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٥٤٩ ط دار الفكر .

آن يقدم له من أنواع الأذى والضرر ما يستطيع به شيطان الإنس أن يعربد بشروره . وسوف نفصل حكم السحر والسحرة فيما سيأتى . أما المعجزة التى يجريها الله على أيدى الأنبياء فإنها حقيقة واقعة ، يخرق الله بها العادة ، فإذا ما انقلبت عصا موسى حية فتلك حقيقة لا وهم فيها ولا تخيل ، وإذا ما سمع للجذع أنين ، بعدما فارقه رسول الله ﷺ ، فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم . وإذا ما انشق القمر فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم ، ومن ثم فإن القرآن الكريم ذكر مشهدا مهيبا جمع فيه بين ما ورد عن سحرة موسى وبين ما جاء على يدى موسى من المعجزات . قال تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صٰغرين * وألقى السحرة سٰجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهٰرون ﴾[١] . وفى هذه الآية الكريمة ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ مواقف للعلماء نخلوا فيها مخزون فكرهم ، وقدحوا زناد رأيهم ، ونحن نسوق بعضها لتتضح الصورة فى فهمها . جاء فى تفسير المراغى ما نصه : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ أى واتبع فريق من أحبار اليهود وعلمائهم الذين نبذوا التوراة تجاهلا منهم بما هم به عالمون ، اتبعوا السحر الذى تلته الشياطين فى عهد سليمان بن داود وعملوا به ، وذلك هو الخسران المبين . وقد زعموا أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها ، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبا وبهتانا .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ أى وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيا ينافى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وتمويه ، والأنبياء مبرءون من ذلك .

﴿ ولكن الشيٰطين كفروا ﴾ أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا . ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، قد جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، ولاسيما فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا ، كما قال : ﴿ يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[٢] ، وقال فى آية أخرى : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾[٣] .

والآية نص صريح على أن السحر كان يُعلم ويلقن ، والتاريخ يؤيد هذا .

والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفى ، يعرفه الناس ويجهله الكثير منهم ، ومن ثم يسمون العمل به سحرا لخفاء سببه عليهم . وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١١٣ - ١٢٢ .
(٢) سورة طه آية : ٦٦ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١١٦ .

وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلموا بأسماء غريبة وألفاظ مبهمة ، واشتهر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن ليوهموهم أن الجن يستجيبون دعاءهم ويسخرون لهم ، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب ، ولمثل هذا تأثير فى إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده ، وهو يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر .

﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ فى الملكين قراءتان : فتح اللام وكسرها ، وهما رجلان شبها إما بالملائكة لانفرادهما بصفات محمودة ، وقد جرت العادة أن يقولوا هذا ملك وليس بإنسان ، وإما بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يُظهر الغنى عن الناس : هذا من الملوك . وكان الناس فى عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم ، لا يقصدون للفصل فى شئونهم الروحية إلا أهل السمت والوقار ، الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى .

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملكين غير السحر ، لكنه من جنسه ، وقد ألهماه واهتديا إليه بلا أستاذ ولا معلم ، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1] وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[2] .

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ أى وما يعلم الملكان أحدا حتى ينصحاه ويقولا له : إنما نحن ابتلاء من الله عز اسمه ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به . وفى هذا إيماء إلى أن تعلم السحر وكل ما لا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا ، وإنما الذى يُحظر ويمنع هو العمل به فحسب ، وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما ، إذ كانا يقولان إنهما ملكان ، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض . نوصيك بألاّ تكتب هذا لجلب امرأة إلى حب غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين عاشقين فاسقين ، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلـهية وصناعتهم روحية .

﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أى كانوا يتعلمون منهما ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين ، مما يسمى الآن (كتاب البغضة) . والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر : أمؤثر بطبعه أو بسبب خفى أو بخارق من خوارق العادات ، أم غير مؤثر ؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه : أتمائم وكتابة هو ، أم تلاوة رقى وعزائم ، أم أساليب سعاية ، أم دسائس تنفير ونكاية ، أم تأثير نفسانى ، أم وسواس شيطانى ؟ فأى ذلك أثبته العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ، ولا نتحكم فى حمله على نوع منها ، ولو علم الله الخير فى بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم فى العلم ، فهو الذى يجلى الغامض ويكشف الحقائق .

---

(١) سورة النحل آية : ٦٨ .
(٢) سورة القصص آية : ٧ .

قال تعالى : ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، أى إن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله بها مسبباتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإنما ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ، من قِبل أنه سبب فى إضرار الناس ، وهذا مما يعاقب الله عليه ، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه ، فإنا نرى منتحل هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم ، وذلك حالهم فى الدنيا ، فما بالك بهم فى الآخرة ، يوم يجزى كل عامل بما عمل . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ ، أى إنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التى توصل إلى السعادة فى الدارين ، فليس له حظ فى الآخرة ، لأنه قد خالف حكم التوراة التى حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان ، كعقوبة عابدى الأصنام والأوثان .

﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى ولبئس ماباعوا به أنفسهم السحرُ ، وعبر عن بيع الإيمان ببيع النفس ، لأنها إنما خلقت لمعرفة الدين والعمل به ، أى أنهم لو كانوا يعلمون حرمة السحر علما يصدر عن اعتقاد له أثر فى النفس ، ويصدقون بما توعد به مرتكبه من العقوبة ، لما ارتكبوه ولا أصروا عليه ، ولكنهم خانهم هذا النوع من العلم واكتفوا بعلم مبهم لا أثر له فى النفس ، فتسرب إليهم كثير من التأويل والتحريف لنصوص التوراة .

وهذا هو ما يفعل مثله بعض المسلمين اليوم ، إذ ينتهكون بعض حرمات الدين بمثل تلك التأويلات ، فيمنعون الزكاة بحيلة ، ويأكلون أموال الناس بحيلة أخرى ، ويشهدون الزور بحيلة ثالثة . . . وهكذا .

أما صاحب التفسير الواضح فيقول فى هذه الآية : « من قبائح اليهود أنهم نبذوا كتاب الله ،واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر والشعوذة فى زمن ملك سليمان ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ويضمون إليه أكاذيب ثم يلقونها الكهنة فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وماتم لسليمان ملك إلا بهذا . فيرد الله عليهم هذه الدعوى : إن سليمان ما فعل شيئا من هذا ، وما كفر باعتقاد السحر والعمل به ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه .

هؤلاء اليهود يعلمون الناس بقصد إغوائهم وإضلالهم ، ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران إلا أنهما كانا صالحين قانتين ، فأطلق الناس عليهما ملكين من باب التشبيه ، وفى قراءة ملِكين على التشبيه أيضا بالملوك فى الخلق وسماع الكلمة .

ولكن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحدا من الناس حتى يقولا له إنما هذا ابتلاء واختبار من الله ، فلا تتعلم السحر وتعمل به وتعتقد تأثيره وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته لتعلمه فقط ولتعرف شيئا تجهله ولا تعمل به ما يضر ، فلا محظور فى ذلك ؛ فتعلم الناس من الملكين ما كانوا يعتقدون أنه يفرق بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث فى العقد ، أو تأثير نفس وغير ذلك مما يحدث عنده التفريق غالبا .

والحقيقة أن السحر لا يؤثر بطبعه أو ما هم بضارين به أحدا من الناس إلا بأمر الله وإرادته ؛ فهذا كله ، إن صح ، فسبب ظاهرى فقط ، وأما من تعلم السحر وعمل به فإنه تعلم ما يضره ولا ينفعه ، إذ به استحق غضب الله عليه لما ينشأ عنه من إفساد الناس وضررهم ؛ وتالله لقد علم اليهود لمن ترك كتاب الله واستبدل به كتب السحر ماله فى الآخرة إلا العذاب ، وليس له نصيب من الثواب . ولبئس ما اشتروا به عذابهم والهم لو كانوا يعلمون ، نفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ، فكانوا أسوأ من الجهلة .

ولو أن اليهود آمنوا بالنبى ﷺ والقرآن وتركوا كتب السحر والشعوذة وأخذوا الوقاية من عذاب الله بامتثال أوامره ، لاستحقوا الثواب من عند الله ، وهو خير وأعظم أجرا ، لو كانوا يعلمون ذلك » ا هـ .

ونرى أن للمفسرين رأيين فى مفهوم الملكين : رأى يرى أنهما رجلان صالحان كاملان . ورأى يرى أنهما ملكان حقيقيان ؛ كما أن لهما رأيين فى لفظ ﴿ ما ﴾ فى قوله تعالى ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ ، فرأى يرى أنها اسم موصول بمعنى الذى ، وأنها معطوفة على لفظ السحر فى قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، ورأى يرى أن ﴿ ما ﴾ حرف نفى ، وأن الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، كأن النفى حرف مسلط على الكفر والإنزال ، وهذا كله لإثبات عصمة الملكين . ونحن نرى أن ليس هناك مانع من إرادة المعنى الحقيقى للملكين ، وأنهما ملكان نزلا إلى الأرض وفى مدينة بابل لمهمة كلفا بها ، وهى إبطال سوق السحر والسحرة ، فقد راجت سوق السحر فى تلك المدينة حتى ادعى السحرة أنهم يعلمون الغيب ، وهذا هو الذى نفاه الله جلت قدرته فى قوله حكاية عن جن سليمان : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور * فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾[1] . قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾[2] . وقال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾[3] . من هنا نعلم أن الملكين هاروت وماروت كانا مُكلَّفيْن بتعليم الناس أن السحر مفسد للنفوس ، أنه يضر ، لا بذاته ، ولكن بإذن الله ، فتأثيره كتأثير السبب فى المسبب . أما الأصل كله والأمر كله فبإذن الله . ومما يدل على عصمة الملكين وأنهما لم يفعلا ما يخالف العصمة قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، أى فلا تعمل بالسحر ، والفتنة هنا الابتلاء والمحنة كذلك ، يقولون للناس : إن هذا السحر يفرق بين المرء وزوجه ، وذلك بإلقاء الوساوس فى صدور كل منهما بالكراهية ، وإن السحر تخيلات فى الحس بحيث يجعل المرء يرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، كما حدث من سحرة فرعون ، قال تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾[4] وكما قال فى حق موسى : ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[5] .

(١) سورة سبأ الآيات : ١٢ - ١٤ .
(٢) سورة النمل آية : ٦٥ .
(٣) سورة الجن آية : ٢٦ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١١٦ .
(٥) سورة طه آية : ٦٦ .

كذلك إذا اتضحت حقيقة السحر والسحرة فسدت أسواقهم ، فليس السحر إنباء بالغيوب ، وليس السحر قدرة على الضر والنفع إلا بإذن الله وحده ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ولا تطرف فيه طرفة عين ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، فإذا كان السحرة يحاولون بسحرهم إلقاء الشرف النفوس ، فمثلهم كمثل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وما من شك فى أن التفريق بين الزوجين من الكبائر ؛ قال ﷺ : (ليس منا من خبب بين امرأة وزوجها)[١] ، أى سعى بالإفساد بينهما . وللسحر علاج كعلاج الحسد ، وهو قراءة المحصنات الثلاث : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ؛ تقرأها فى كفيك وتتفل ثلاث مرات ، وهو إخراج النَفَس بدون إخراج ريق ، وتمسح جسمك بكفيك ؛ كذلك قراءة آية الكرسى ؛ كذلك قراءة سورة البقرة . فقد ورد فى الحديث الشريف أن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، أى السحرة ، ولا يفرح إبليس بشىء كفرحه بمن فرق بين الزوجين ؛ قال ﷺ : (إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ماصنعت شيئاً ؛ ويجىء أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نِعم أنت)[٢] .

قال العلماء : وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل للرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو نقيصة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ؛ والمراد بالمرء : الرجل .

قوله تعالى : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . قال سفيان الثورى : إلا بقضاء الله ، وقال محمد بن إسحاق : إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصرى : لا يستطيعون النيل من أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه قوله تعالى : ﴿ ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ﴾ ، أى يضرهم فى دينهم ، وليس له نفع يوازى ضرره . قال ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٣] .

وهذا النص الكريم : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ إبطال لمزاعم السحرة الفجرة الذين يزعمون كذبا وبهتاناً أنهم يستطيعون أن يتصرفوا فى الكون كما يشاؤون ، فيضرون وينفعون ، وهم فى الحقيقة يضرون أنفسهم بعصيانهم لله ، ويدخلون النار فى الآخرة أول الداخلين . وهم فى الدنيا أشد الناس بؤساً وفقراً وضيقاً وضنكا ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٤] .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٦٦ ط دار الفكر .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٦٧٩ ط الشعب .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .
(٤) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

فعليك أيها العاقل ألا تغشى مجالسهم ، فقد يغفر الله لأمة محمد ليلة القدر الا لمدمن الخمر ، والمصدق بالسحر ، والعاق لوالديه ، والقاطع للرحم ؛ حتى من ذهب إليهم ولم يصدقهم لا يقبل الله منه عملاً أربعين يوماً . وهم فى الحقيقة كذابون دجالون محتالون مخادعون ؛ فاستعذ بالله من شرهم وقل : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق** ﴾ ، أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر متابعة الرسول ﷺ ولمن فعل فعلهم ذلك ، أنـه ما لـه فى الآخرة من خلاق ، أى من نصيب . وقال الحسن ليس له دين . قال قتادة : ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة ؛ وهكذا الحكم على كل من اشترى السحر واشتغل به وباع اتباع الهدى والسير وراء نهج النبوة الصادقة .

قوله تعالى : ﴿ **ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ ، ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول . لو كان لهم علم بما وعظوا به : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير** ﴾، أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكانت مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾[1] .

وهكذا اشترى هؤلاء الناس السحر وباعوا أنفسهم ، وكان الثمن خسرانا وضلالا وبهتانا وكـذباً وضراراً وعتوا فى الأرض ، فاستحقوا من الله أن يقول فيهم : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله** ﴾ . وقد استدر العلماء من قوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير** ﴾ ، استدلوا بها على تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل قال : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبيدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه .

وصح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر . وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدى أنه قال قال رسول الله ﷺ : (حد الساحر ضربه بالسيف)[2] .

فصل فى الأحكام الشرعية المتعلقة بالسحر والسحرة

ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمـد بن هبيرة ، رحمـه الله ، فى كتابـه (الإشراف عـلى مذاهب

(١) سورة القصص آية : ٨٠ .

(٢) الجامع الصغير جـ ١ ص ٥٧٠ ط دار الفكر .

الأشراف) بابا فى السحر ، فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبى حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ؛ من تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر .

وقال الشافعى رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر ؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين ، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعى ، فإنه قال : يقتل . والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم : لاتقبل . وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى : تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب ، فعند أبى حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك وأحمد والشافعى : لا يقتل ، يعنى لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا فى المسلمة الساحرة ؛ فعند أبى حنيفة أنها لا تقتل ، ولكن تحبس ؛ وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل . والله أعلم .

حكى القرطبى عن وهب أنه قال فى علاج السحر : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه ، فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته . (قلت) : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك ، وهو المعوذتان . وفى الحديث : (لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما) ، وكذلك قراءة آية الكرسى ، فإنها مطردة للشيطان .

أدب وتوجيه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

من قبائح القوم تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وكان من ذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ « راعنا يا محمد » لا يقصدون بها معناها الحقيقى ، بمعنى راعنا سمعك أو راقبنا ، إنما كانوا يقصدون بها معنى سيئا ، ويريدون بها المسبة ، فهى عندهم من الرعونة والحمق . ولما كان المؤمنون يقولونها للهادى البشير ، صلوات ربى وسلامه عليه ، كانوا يقصدون بها معناها الحقيقى ، وهو راقبنا ، فوجههم رب العزة

وأدبهم الأدب الرفيع فى مخاطبة الصادق المعصوم فقال لهم : ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى : انتظرنا وأمهلنا حتى نعى ما تقول . ولم يكن تحريف القول أمرا غريبا على اليهود ؛ فقد قال تعالى فى شأنهم : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾[١] . بل بلغ بهم السفه إلى حد أنهم حرفوا التحية التى كانوا يلقونها على رسول الله ﷺ . لقد حياه الله تبارك وتعالى فقال له : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ، ولكن اليهود إذا مروا به كانوا يقولون : السام عليك يامحمد . والسام هو الهلاك والموت ، فكانت السيدة عائشة رضى الله عنها ترد عليهم قائلة : وعليكم السام واللعنة إخوان القردة والخنازير . فكان الرسول ﷺ يقول لها ياعائشة : (إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش . .)[٢] . قالت يارسول الله ألا تسمع ماذا يقولون ؟ فقال لها : ألا تعلمين ماذا قلت لهم ؟ لقد قلت لهم : وعليكم ! إن الله تعالى أمرنى بقوله : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[٣] . ولقد قص الله تعالى فى القرآن الكريم هذا المشهد فقال : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾[٤] . ومن عظمة الإسلام أنه جعل شخصية المسلم شخصية قوية مستقلة ، بحيث لا يكن أحدنا إمعة ، فنهى عن التشبه بالكافرين قال ﷺ : (من تشبه بقوم فهو منهم)[٥] .

قوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ خطاب يعلمنا الله به الأدب فى مجالس القرآن . قال جل شأنه : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[٦] . وما أشد حاجة المسلمين إلى هذا الأدب لاسيما فى عصر تحولت فيه مجالس القرآن إلى ضجيج وعجيج ، بحيث يتمايلون ويطربون للنغم الذى يؤديه القارىء ، وهم فى غفلة معرضون عما فى الآيات من وعيد تنخلع له القلوب ، لاهية قلوبهم عن إجلال منزل القرآن وخشيته . وقد يستولى عليك الأسى ، عندما تسمع أحدهم وقد سمع قول الله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٧] يصيح بأعلى صوته قائلا : « الله يزيدك » . قلت : سبحان الله ! أيطلب المستمع للقارىء أن يزيده الله على السبعين ذراعا ؟ لو كان هذا يفقه معناها ويعيش فى هولها لكان كالسلف الصالح . نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ؛ وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وقد حذر رسول الله ﷺ من أداء القرآن بلحون أهل العشق فقال : (إياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين ، وسيأتى بعدى قوم يرجعون فى القرآن ترجيع أهل الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم) . . صدقت يارسول الله . لكأنك تنظر

(١) سورة النساء آية ٤٦ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .
(٣) سورة فصلت آية : ٣٤ .
(٤) سورة المجادلة آية : ٨ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٩٠ ط دار الفكر .
(٦) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .
(٧) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

من وراء الحجب وتستشف الغيوب بما منحك الله من نفاذ البصيرة ونور النبوة . فقد أصبح قوم يرجعون فى القرآن حسب المقامات الموسيقية من الصبا والرصد والنهاوند والسيكا . فإن كانت الآية تبشر بالجنة قرأت من مقام السيكا ، وإن كان فيها وعيد وعذاب قرأت من مقام الصبا . واحرّ قلباه ، واحرّ قلباه . إن مائدة القرآن حافلة بألوان الجلال والكمال والجمال ، لكننا لا نحب أن نسمع فوقها طنين الذباب . لقد عجبت لمستمع أحد حفال القرآن ، لما سمع قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾[1] انتفض من مكانه انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر . وصاح بأعلى صوته : « اللهم اجعلنا منهم » ، وهو لا يدرى زمر النار من زمر الجنة . وقد يكون غافلا لاهيا عن سماع القرآن كما قال شوقى فى نهج البردة :

لقـد أنلتـك أذنـا غـير واعيـة ورب مستمـع والقلب فى صمم

وقد بلغ السيل الزبى عندما أصبح الكثير لا يعرفـون من الإسلام إلا اسمـه ولا من المصحف إلا رسمه . همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم . إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك . السنة عندهم بدعة . والبدعة عندهم سنة ، لا يصلون إلا فى رمضان ولا يسمعون القرآن إلا من ذى صوت حسن .

قال الله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ ، ومنهم الذين يستهزئون برسول الله ويؤذونه بالكلام أو العمل . وأليم بمعنى : مؤلم موجع .

وبعد ذلك نبه الله المؤمنين إلى حقيقة واقعة لا مراء فيها فقال : ﴿ ما يود الذين كفـروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ . هذه حقيقة قررها علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وفصلها فى قوله : ﴿ يا أيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا بطانـة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾[2] . إذن لقد برح الخفاء وانكشف الغطاء عن قلوب هؤلاء ، مايودون ولا يتمنون أى خير ينزله الله على المؤمنين ، متجاهلين أن الله يختص برحمته من يشاء ، متناسين أن رحمة الله قريب من المحسنين وهو الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[3] . فسبحانك يا ذا الفضل العظيم والخير العميم . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليّا .

---

(١) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٢) سورة آل عمران الآيات : ١١٨ - ١٢٠ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

آيات النسخ

* مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

النسخ مبحث من مباحث أصول الفقه ، وهو فى لغة الأصوليين : بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة . وقالوا : هو رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . وسبب نزول آية النسخ أن المشركين واليهود قالوا : الا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ؛ فقد أمر فى حد الزانى بإيذاء الزانين باللسان حيث قال : ﴿ فآذوهما ﴾[1] ثم غيره وأمر بإمساكهن فى البيوت حيث قال : ﴿ فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾[2] ثم غيره بقوله : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[3] . سبحانك هذا بهتان عظيم . إن العليم الخبير عالم بأحوال عباده ومصالحهم وما يعود عليهم بالنفع . فإذا ما حكم بحكم فى زمان أو مكان ورأى من مصلحة العباد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر فليس ذلك عبثا ، معاذ الله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ﴾[4] ، أى تنزه عن العبث ، فكل فعله حكمة بالغة وإن خفيت على الناس . وإذا ما اقتضت حكمته نسخ حكم بحكم آخر فليس ذلك عن جهل كما يدعى اليهود ، فإن علم الله صفة من صفاته القديمة الأزلية ؛ فالله تعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، إذ العلم صفة انكشاف . فأى جهل أمام هذا العلم الذى أحاط بكل شىء ؟ وهل يقال للطبيب إذا صرف للمريض دواء لفترة زمنية ثم غير هذا الدواء بدواء آخر لفترة أخرى ، أيُقال للطبيب إنه عابث أو جاهل ؟ لا بل يقال عنه إنه نطاسى حاذق وبطبه عالم . فإذا كان هذا لا يجوز أن يقال للطبيب الذى جدد الدواء بدواء آخر والطبيب بشر له علم يُدل به إن كان للمرء فى الأيام تأخير . فما بالك بمن له المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . ومن ثمّ فقد تقتضى الحكمة الإلهية أن ينسخ آية (أى حكمها) أو ينسيها أو ينسأها . فالنسخ والنسيان والإنساء كل هذا لحكمة عليا بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ . والخيرية هنا إما أن تكون فى الثواب والأجر ، وإما أن تكون فى المصلحة والمنفعة ، وإما أن تكون مثلها فى الحكم ؛ هذا وقد يكون النسخ تدرجا فى التشريع كما فى تحريم الربا ، فقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى

(١) سورة النساء آية : ١٦ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦ .
(٣) سورة النور آية : ٢ .
(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[١] . ثم تدرج الحكم إلى تحريم الربا فى أبشع صوره ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٢] ؛ ثم تدرج الحكم إلى التحريم النهائى القطعى ، قال تعالى : ﴿ وأحلّ الله البيع وحرم الربا ﴾[٣] ، ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[٤] .

وما يقال فى تحريم الربا يقال فى تحريم الخمر ؛ فقد تدرج التشريع فى تحريم الخمر من قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[٥] ، إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٦] ، إلى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٧] .

ولا يقع النسخ فى الأخبار ، إذ يلزم على نسخها الكذب ، وهو محال على أصدق القائلين ، إنما يقع فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة .

وللنسخ صور نجملها فيما يلى : فقد يكون إلى الأيسر ، كما فى عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ؛ فبعد أن كانت حولا كاملا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾[٨] ، خففت هذه العدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[٩] .

وقد يكون النسخ بالمثل ، كما فى نسخ القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كُنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[١٠] .

وقد يكون النسخ إلى الأشد لزيادة الأجر والمثوبة ، كما حدث فى ترك موادعة المعتدين إلى مجاهدتهم وقتالهم . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[١١] .

وقد وقع النسخ أيضا فى السنة ، كما فى قوله ﷺ : (كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها . وكنت قد نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى ألا فكلوا منها)[١٢] . . وليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٦) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٧) سورة المائدة آية : ٩٠ .
(٨) سورة البقرة آية : ٢٤٠ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .
(١٠) سورة البقرة آية : ١٤٤ .
(١١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .
(١٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٩٧ ط دار الفكر .

فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد . وقد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل .

قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ ؛ هذا استفهام يفيد التقرير ؛ فالله تعالى لا يمنعه مانع ولا يعجزه شىء من أن يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء ، ونسخ الأحكام داخل تحت قدرته جلَّ فى علاه ؛ فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار . فله ملك السماوات والأرض ، وهو المالك الملك الحاكم المتصرف ، قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ﴾ ، وهذا استفهام أيضا للتقرير . فمن غيره يحكم ومن غيره يتصرف ؟ ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ ؛ الولى هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ؛ والولاية الحقيقية لله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[٢] ، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾[٣] ، ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾[٤] .

فمن اعتمد على عقله اختلَّ ، ومن اعتمد على ماله قلَّ ، ومن اعتمد على علمه ضلَّ ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس ملَّ ؛ ومن اعتمد على الله فلا اختل ولا قل ولا ضل ولا ذل ولا مل : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٥] .

قال رافع بن خزيمة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه ، وفجر الأنهار نتبعك . فنزل قوله تعالى : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾ . ﴿ أم ﴾ بمعنى بل ، والهمزة أى تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى فقالوا له : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[٦] . إن من فعل هذا فقد تبدل الكفر بالإيمان ، أى باع الإيمان واشترى الكفر . ومن كان ذلك شأنه فقد ضلَّ وحاد وجار عن سواء السبيل ، أى عن السبيل المعتدل والصراط المستقيم . وسواء الشىء وسطه ، وسواء السبيل أعظمه اعتدالا .

(١) سورة يوسف آية : ٤٠ .
(٢) سورة الزمر اية : ٣٧ .
(٣) سورة الحج آية : ١٨ .
(٤) سورة النور آية : ٤٠ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٦٠
(٦) سورة البقرة آية : ٥٥ .

حسد أهل الكتاب

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

المفردات : الحسد : تمني زوال نعمة الغير . ﴿ فاعفوا ﴾ العفو ترك العقاب على الذنب . ﴿ واصفحوا ﴾ الإعراض عن الذنب وترك العقاب وترك اللوم .

الحرب بين الكفر والإسلام حرب عقيدة ، والصراع بين الحق والباطل سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور . ولاتزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين بالحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله . ولا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختبىء اليهودى وراء الحجر فينادى الحجر قائلاً : يا مسلم إن ورائى يهودياً فاقتله . وقد أخبرنا القرآن الكريم باستمرارية تلك الحرب ، قال تعالى : ﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[١] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾[٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[٣] .

وليست الحرب مقصورة على امتشاق الحسام أو ضرب السيوف أو رمى الرماح ، إنما هناك حرب كامنة فى النفوس تتحرك عقاربها وتهيج ثعابينها ؛ فهاهم أولاء أهل الكتاب يودون من صميم قلوبهم لو يردون المؤمنين كفاراً بالله ورسوله . والدافع من وراء هذا ما فى قلوبهم من حسد ، والحسد هو تمنى زوال نعمة الله ، وهو داء عضال ومرض وخبال ؛ ذلك ناشىء من عند أنفسهم . بماذا نصح الله الأمة الإسلامية المؤمنة ؟ أمرهم بالعفو ، وأمرهم بالصفح ، كما أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ والعفو هو ترك العقوبة على الذنب ، كما أن الصفح هو ترك العقوبة والملام إلى أن يأتى الله بأمره ويأذن لهم بالقتال . ولقد جاء الإذن بالقتال بعدما لم يبق فى قوس الصبر منزع وغلى المرجل ثم انفجر . قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[٤] .

---
(١) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٢) سورة الكهف آية : ٢٠ .
(٣) سورة البروج آية : ٨ .
(٤) سورة الحج الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ . وهل يأتى النصر إلا من القدير سبحانه [illegible] لقلوب المؤمنين وبعث للطمأنينة فى نفوسهم ، وإلى أن يأتى الله بأمره فليكن هناك عفو وصفح ، ولتكن هناك مداومة على أداء الصلوات لتطهير القلوب ، وليكن هناك طهارة للمال بدفع الزكاة ، وليكن هناك وعد صدق من الله وحده بأن ما يقدمه العبد من الخير فسيجده عند الله خيراً وأعظم أجراً ؛ فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ؛ فإن الذى وعد بهذا هو البصير بالأعمال ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فجدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل . وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

موقف كل من اليهود والنصارى بالنسبة للآخر

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ هودا ﴾ جمع هائد وهم اليهود . ﴿ النصارى ﴾ قوم انحرفوا عن شريعة عيسى ابن مريم ، فاعتقدوا بصلبه ، وثلثوا التوحيد ، وزعموا بنوته لله . ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ جعل وجهه خالصاً لله وانقاد له .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[1] ، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى فى ذلك ، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال : ﴿ تلك أمانيهم ﴾ . وقال أبو العالية : أمانى تمنوها على الله بغير حق . وكذا قال قتادة والربيع بن أنس . ثم قال تعالى : ﴿ قل ﴾ أى يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ . قال أبو العالية : حجتكم . وقال قتادة : بينتكم على ذلك . [illegible]

(١) سورة المائدة اية . ١٨

صادقين ﴾ ، أى فيما تدعونه . ثم قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ ، أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾[١] الآية . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾ من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : ﴿ بلى من أسلم ﴾ أخلص ﴿ وجهه ﴾ أى دينه ﴿ وهو محسن ﴾ أى اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[٢] رواه مسلم . فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين ءامنوا وعملوا الصالحات وءامنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾[٤] ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴾[٦] .

وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان . وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾[٧] ، وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون ﴾[٨] . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ وقوله : ﴿ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحظورات فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما مضى مما يتركونه . كما قال سعيد بن جبير : ﴿ لا خوف عليهم ﴾ يعنى فى الآخرة ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يعنى لا يحزنون للموت ، أى لا يحزنون على ما فاتوه فى الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ﴾ . بين الله تعالى فى هذه الآية ما بين اليهود والنصارى من التباغض والتناقض والعداوة

(١) سورة آل عمران آية : ٢٠ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٦٢٥ ط دار الفكر .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٣ .
(٤) سورة محمد الآيات : ١ - ٣ .
(٥) سورة النور آية : ٣٩ .
(٦) سورة الغاشية الآيات : ٢ - ٥ .
(٧) سورة النساء آية : ١٤٢ .
(٨) سورة الماعون الآيات : ٤ - ٧ .
(٩) سورة الكهف آية : ١١٠ .

والعناد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله فى ذلك من قولهما : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب** ﴾ . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أن كلاً يتلو فى كتابه تصديق من كفر به،أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه .

أما قوله تعالى : ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم** ﴾ ، أى العرب الذين عارضوا دعوة الإسلام وناصبوها العداء ، وقالوا عن الهادى البشير ﷺ ليس محمد على شىء .

وقد حسم الله تلك القضايا حسماً مبرماً لا نقض فيه حين قال : ﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ ، أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم الميعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وذلك كقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾[1] ، وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[2] .

تخريب المساجد

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

المساجد بيوت الله . قال تعالى : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[3] ، وهى منازل السكينة ومهابط الرحمة . عن سلمان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر لله[4] وحق على المزور أن يكرم الزائر)[5] . وقد أوصى الإسلام أن تكون المساجد بسيطة لا زخرفة ولا تصفير ولا تحمير .. قال عمر : لا تصفر ولا تحمر ،

(١) سورة الحج آية : ١٧ .
(٢) سورة سبأ آية : ٢٠ .
(٣) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨ .
(٤) زائر الله : أى ضيف الله .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٦ ط وزارة الأوقاف .

ودَنّ الناس من المطر . وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد)[١] . وقد كان مسجد الهادى البشير عليه صلوات ربى وتسليماته غاية فى البساطة ؛ كان سقفه الجريد وأرضه الحصباء ؛ إمامه محمد ومؤذنه بلال وخادمته أم محجن ، وخرّج عمالقة الرجال الذين لن يجود الزمان بأمثالهم إلا أن يشاء الله : تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر ، والزعيم الملهم كعمر ، والحيى الكريم كعثمان ، والعبقرى الفذ كعلى ، والزاهد الأمين كأبى ذر ، والعالم النحرير كابن عمر ، والمفتى الخبير كابن عباس ، والقائد الجبار كخالد ، والمجدث الحجة كأبى هريرة ، والفيلسوف البارع كسلمان . فاسألوا التاريخ فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ إنهم لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا فى جامعة لا شرقية ولا غربية ؛ إنها إسلامية قرآنية ، فيها العميد المصطفى لا بلحق . ولقد كانوا يفخرون عندما يتخرجون من المساجد وقد علمهم الله العلم النافع ؛ فكانوا يقولون إن فلانا مسجدى ، كما نقول نحن إن فلاناً جامعى . واسمع معى إلى تلك الشهادة الربانية لعمار المساجد ، قال جلّ شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[٢] ، قال ﷺ : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)[٣] . ولقد نفى الله ذلك الشرف الرفيع عن المشركين فقال فى محكم كتابه : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾[٤] ، هؤلاء هم الذين يخربون بيوت الله ويسعون فى خرابها ، ما حالهم عند الله ؟ اسمع معى إلى هذا النص الكريم : ﴿ ومن أظلم ﴾ ؟ الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى ، فيكون المعنى : لا أحد فى الدنيا أظلم ممن منع مساجد الله ، لأنه يخرب بيوت أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأسرع الحاسبين ؛ وخرابها يكون بمنع الذكر فيها ، أى بمنع ذكر الله من صلاة وخطبة ودروس علم . فإذا كان الله قد أوعد الذين يسعون فى خرابها ، فما بالك فى الذين خربوها ؟ هؤلاء حكم الله عليهم بأحكام جاءت جزاءً وفاقاً ، لأنهم كانوا لا يرجون حساباً ؛ حكم عليهم بالخوف إذا دخلوا المساجد ، خوف رعب وفزع ، لأن ملائكة الله غاضبة عليهم لغضب الله عليهم ، كما حكم عليهم بالخزى فى الدنيا ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[٥] . لأنهم خوفوا الناس وأرهبوهم ومنعوهم من بيوت الله . وقد وردت فى المساجد أحاديث شريفة نطق بها الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه نورد بعضها فيما يلى :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة)[٦] . وعن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى لله مسجدا قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة)[٧] .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٤٣ ط دار الفكر .
(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة التوبة آية : ١٧ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٦٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .
المفحص العش الصغير والقطاة نوع من العصافير .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى بيتاً يعبد الله فيه من مال حلال بنى الله له بيتاً فى الجنة من در وياقوت)(١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(٢) .

وروى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة كانت تلقط القذى من المسجد فتوفيت فلم يؤذن النبى ﷺ بدفنها فقال النبى ﷺ : (إذا مات لكم ميت فآذنونى وصلى عليها وقال إنى رأيتها فى الجنة تلقط القذى من المسجد)(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ، جاء فى سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس ، فظل هكذا ستة عشر شهراً ، ولكنه كان يحب قبلة إبراهيم البيت الحرام ، واشتد به الحنين ، فكان يدعو الله تعالى أن يأذن له بذلك ، فأنزل الله عليه : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾(٤) ، فاغتاظت اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وقد وصفهم الله تعالى بالسفه لما قالوا ذلك فقال ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾(٥) ، ورد الله تعالى عليهم قولهم فقال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٦) ، وجاء فى سبب نزولها أيضاً عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة ، فقلنا يارسول الله : لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة . فأنزل الله تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ . فما من شك فى أن الله تعالى رب المشارق والمغارب ، ورب المشرقين ورب المغربين ، ورب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً . وهو سبحانه مع الجميع بعلمه وقدرته ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾(٧) . وهو سبحانه وتعالى واسع ؛ وسع كل شىء رحمة وعلماً ، عليم علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ، أى فهناك وجه الله منزهاً عن التحيز ، منزهاً عن المحسوسات ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة البقرة آية : ١٤٤ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٤٢ .
(٦) سورة البقرة آية ١٤٢ .
(٧) سورة المجادلة آية : ٧ .

مفتريات أهل الكتاب والمشركين

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

المفردات : ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له عما يصفون . ﴿ بديع ﴾ : مبدع . ﴿ قانتون ﴾ : منقادون .

قال البخارى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال قال الله تعالى : (كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولداً فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم)[١] .

لقد افترى أهل الكتاب وبعض مشركى العرب ، افتروا على الله فرية ما فيها مرية عندما نسبوا لله الولد ، وهو سبحانه تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ؛ أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ؛ واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا جسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناهٍ ولا متلون ولا متكيف ، وكل ما خطر ببالك فإن الله تعالى بخلاف ذلك . والقول السديد الذى يخاطب الله به العقل الرشيد هو قوله جلّ شأنه : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[٢] ، وقوله جلّ جلاله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾[٣] . ولقد صحح القرآن الكريم مفاهيم قوم جاءوا يسألون الهادى البشير صلوات ربى وسلامه عليه ويقولون : خبرنا يا محمد عن ربك ، أمن ذهب هو أم من فضة ؟ فأنزل الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء بتلك السورة التى تفيض إخلاصاً وتوحيداً ، وتشع بهاءً وضياءً ، وتملأ الكون جلالاً وتسبيحاً وكمالاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً وتمجيداً وجمالاً : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ؛ فمن قرأها مرة أعطاه الله ثواب من قرأ ثلث القرآن ، ذلك لما احتوت عليه من أشرف القضايا ، وهى قضية التوحيد . لقد رد الله على هؤلاء المفترين رداً حاسماً جازماً يدعو العقول إلى أن تتفهم ما تنطق به

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣١ ط الشعب .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة طه آية : ١١٠ .

الألسنة . قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾[١] .

أتدرون عمن تتكلمون ؟ وإلى من تنسبون الولد ؟ أشابه المخلوقات فى شىء ؟ سبحانه . هو الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، لقد ضجت السموات العلا والأرض من هذا القول الكاذب الشنيع ، قال سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[٢] .

وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ إن النصارى الذين ادعوا هذا القول الباطل رد عليهم مولانا جلَّ ذكره بقوله : ﴿ بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ أى طائعون عابدون مخلصون مسبحون الليل والنهار لا يفترون . إن الإنسان قد يحتاج إلى الولد ليقوم بالإنفاق عليه إذا كبرت سنه أو ضعفت قواه ؛ والله له ما فى السموات والأرض ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٣] .

وفى الآية الأخرى قال سبحانه : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[٤] ، وسمى هذا افتراءً فقال : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾[٥] ، ثم حدد مصيرهم وجزاءهم فقال : ﴿ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[٦] . فما الداعى إلى اتخاذ ولد وهو الغنى الواحد فى ذاته ، لا قَيِّمَ له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له ؟ وكيف يتخذ ولداً وقد سمى الولد لهواً فى قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لـٰعِبِين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذنـٰه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾[٧] . فالغنى لا حاجة به إلى الولد ، فما بالك إذا كان المنسوب إليه الولد هو مالك السماوات والأرض رب العرش العظيم ؟ إن الإنسان قد يتخذ الولد ليخلد ذكراه بعد موته ، والله حى لا يموت . قال سبحانه : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾[٨] . فما هى الحاجة إلى أن يتخذ الرحمٰن ولداً ؟ أمن أجل أن يسانده ويقويه ويعتز به : ﴿ من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً ﴾[٩] . لقد حل الله تلك القضية حلاً موجزوياً عندما قال لعبده المسيح وأمه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان

(١) سورة الأنعام الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥ .
(٣) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٤) سورة يونس آية : ٦٨ .
(٥) سورة يونس آية : ٦٩ .
(٦) سورة يونس آية : ٧٠ .
(٧) سورة الأنبياء الآيتان : ١٦ ، ١٧ .
(٨) سورة الفرقان آية : ٥٨ .
(٩) سورة فاطر آية : ١٠ .

الطعام ﴾(١) ؛ هذه الكلمة ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ مفتاح القضية كلها : فالذى يأكل الطعام يجوع ويظمأ ، والطعام هو الذى يكوّن الخلية ، والخلية هى التى تكوّن الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكوّن الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكوّن الأجهزة ، والذى شأنه كذلك ينام ، ومن جاز عليه النوم جاز عليه المرض ، ومن أكل وشرب لابد له أن يتخلص من الفضلات بالذهاب إلى الخلاء . فأى إله هذا الذى تكون تلك شؤونه ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾(٢) . إن هذا الذى ينسبون إليه الولد ، من صفاته وأفعاله أنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

قال سبحانه : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ ، أى خالقهما ومنشئهما على غير نسق سابق ، لأنه أوجدهما من العدم ، وإذا قضى أمراً : أى أراده ، لا يحتاج إلى معين أو مساعد أو مخطط أو مهندس إنشاء أوبناء أو مخترع أو عالم فى أصول الصناعات ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾(٣) . ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(٤) . وهؤلاء الذين يعجبون لخلق عيسى لغير أب أليس عيسى أهون من خلق آدم الذى لا أم له ولا أب ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وهذا موقف آخر من مواقف العناد والإصرار على اللجاج . قال ابن عباس قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله فى ذلك قوله : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ قال النصارى تقوله وهو اختيار ابن جرير قال : لأن السياق ورد فيه ، وقال الإمام القرطبى : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد ، وهذا ظاهر السياق . وقال آخرون : هذا قول كفار العرب . أما قوله تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ ، فالمقصود بهم أهل الكتابين من اليهود والنصارى . أما قوله تعالى : ﴿ أو تأتينا آية ﴾ ، فقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات حسية ، من ذلك قولهم ، كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾(٦) . وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا

(١) سورة المائدة آية : ٧٥ .
(٢) سورة الكهف الآيات : ١ - ٥ .
(٣) سورة النحل آية : ٤٠ .
(٤) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .
(٥) سورة آل عمران الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .
(٦) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾[١] ، وكما فى قوله جلّ شأنه : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾[٢] . قوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ يبينه قوله جلّ شأنه : ﴿ أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون ﴾[٣] ، وقوله تبارك اسمه : ﴿ ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٤] ، فكأن قلوبهم كانت على قلب رجل واحد منهم ، فالأمراض واحدة ، والجدال هو الجدال ، واللجاج هو اللجاج ، وذلك كله نابع عن قلوب عشش فيها الشيطان ، وفرخ فيها الإلحاد ، وباض فيها الزندقة .

وماذا يحدث لو جاءتهم هذه الآيات ؟ هل كانوا سيؤمنون أو يغيرون مواقف العناد فى نفوسهم ؟ إن ظاهر الآيات القرآنية يدل أن علام الغيوب مطلع على ما فى قلوبهم من العناد والإصرار والاستكبار ، قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٦] ، وقال جلّ ذكره : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[٧] . ومن قبل هؤلاء المشركين قال الناس لموسى : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[٨] . فكأن عنصر الزمن ملغى بين هؤلاء وأولئك ، وكأنهم تخرجوا فى مدرسة واحدة ودرسوا على أستاذ واحد هو الشيطان . أعاذنا الله منه . فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه . اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

قوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . المراد بالآيات : الحجج القاطعة والبراهين الساطعة والأدلة الصادقة على صدق المرسلين وثبوت النبوة لهم . قد بيناها ووضحناها بما لا يدع مجالاً للشك ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٩] ، ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختارٍ كفور ﴾[١٠] .

وهذه الآيات إنما ينتفع بها أهل اليقين الذين يريدون الوصول للحق ولا يجرون وراء الهوى ولا يتبعون شهوات النفس . وطريق الحق لا يختلف ، فالحق أبلج والباطل لجلج ، وقد انكشف الغطاء وبرح الخفاء ، فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح ، فطوبى لقوم سمعوا النداء فقالوا : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[١١] . وهنيئا لقوم من الجن استمعوا إلى القرآن

(١) سورة الفرقان آية : ٢١ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٤ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٥٣ .
(٤) سورة فصلت آية : ٤٣ .
(٥) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٦) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٧) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٨) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .
(٩) سورة الكهف آية : ٢٩ .
(١٠) سورة لقمان آية : ٣٢ .
(١١) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .

فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[١] . هنيئا لهم وقد أثنى عليهم رب العزة فى قوله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[٢] .

مع خاتم الأنبياء

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

هذا خطاب ربانى لصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى إرسالاً متلبساً بالحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأنت مبعوث العناية الإلهية ، فأكرم به من نبى ، أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وأقلام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيدى يارسول الله معذرة	إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالبدر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجاً	وفى يديك لواء العدل والنور

قال ابن عباس : ما خلق الله ولا برأ ولا ذرأ أفضل من محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾[٣] .

والله ما خلق الإله ولا برا	بشراً يرى كمحمد بين الورى
ياسيد العقلاء ياخير الورى	يامن أتيت إلى الحياة مبشّرا
وبعثت بالقرآن فينا هادياً	وطلعت فى الأكوان بدراً نيّرا

قال ابن مسعود :- اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختاره لنبوته ؛ ثم اطلع على قلوب العباد بعده فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته .

وماخاطب الله نبياً فى القرآن إلا باسمه ، ولكنه خاطب محمداً ﷺ بعنوان النبوة والرسالة ، قال تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[٤] ، ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ﴾[٥] ،

---

(١) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .
(٣) سورة الحجر آية : ١٢ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٩ .
(٥) سورة هود آية : ٤٨ .

﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾(١) ، ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾(٢) ، ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ﴾(٣) ، ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾(٤) ، ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾(٥) ، ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾(٦) .

فإذا ما خاطب سيد المرسلين خاطبه قائلاً : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾(٧) ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾(٨) . هذا تكريم له ، حتى إذا خاطب نساءه قال : يا نساء النبى ، وحتى فى مقام الملاطفة والعتاب يقول له : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

أرسلناك بشيراً بالجنة ونذيراً بالنار ، وأنت القائل : (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى)(٩) . لقد ورد ذكرك فى التوراة مشتملاً على بعض ما ورد فى القرآن .

قال عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، فقال : (أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأميين ؛ وأنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ؛ لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً) . رواه أحمد(١٠) .

قوله تعالى : ﴿ ولا يسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ، أى لست مسئولاً عما اقترفوا من الجرائم ، إنما ﴿ عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾(١١) ، ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾(١٢) ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾(١٣) ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾(١٤) . إنما أنت المبلغ لأحكام الله . ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾(١٥) ، ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾(١٦) ، ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾(١٧) ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾(١٨) ، ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾(١٩) ، ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾(٢٠) ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢١) ، ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٢٢) ، ﴿ وقل

(١) سورة الصافات الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) سورة طه الآيتان : ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٥٥ .
(٤) سورة ص آية : ٢٦ .
(٥) سورة مريم آية : ٧ .
(٦) سورة مريم آية : ١٢ .
(٧) سورة المائدة آية : ٦٧ .
(٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥ .
(٩) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .
(١٠) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٩ ط الشعب .
(١١) سورة الرعد آية : ٤١ .
(١٢) سورة الغاشية آية : ٢٢ .
(١٣) سورة الأنعام آية : ١٠٧
(١٤) سورة ق آية : ٤٥ .
(١٥) سورة القصص آية : ٥٦ .
(١٦) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .
(١٧) سورة النحل آية : ٣٧ .
(١٨) سورة فاطر آية : ٨ .
(١٩) سورة المائدة آية : ٩٩ .
(٢٠) سورة الرعد آية : ٧ .
(٢١) سورة سبأ آية : ٢٨ .
(٢٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(١) ، ﴿ قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾(٢) ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣) ، ﴿ فإن تولوا فقل ءاذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾(٤) ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

هذا دليل قاطع على أنه هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . نشهد يا رسولَ الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، ومحوت الظلمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده حتى آتاك اليقين ؛ فجزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، ورسولاً عن قومه . ألست أنت الذى قلت : (لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة ؟) . فيا صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والموقف المشهود ، نسأل الله ألا يحرمنا أجرك ، ولا يفتنا بعدك حتى نشرب من يدك الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبداً . ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾(٥) .

تنبيه وتحذير

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

وبعدما خاطب الله تعالى رسوله بالبشارة والنذارة بين له سبحانه أن الصراع بين الحق والباطل دائم دائب مستمر ، وأن الكفر كله ملة واحدة ؛ فاليهود والنصارى لن يرضوا عنك مهما بذلت معهم من الأدلة والبراهين ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾(٦) . وإذا كان الأمر كذلك فاحذرهم ، لأنهم لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعت قبلتهم . والمقصود بهذا الخطاب وفى هذه العبارة بالذات أمته ، فهو ﷺ قد ثبته الله على الحق وأيده به وقال له فى محكم كتابه : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم

(١) سورة هود الآيات : ١٢١ - ١٢٣ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ .
(٥) سورة النساء آية : ٦٩ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٤٥ .

عـابـدون مـا أعبـد * لكم دينكم ولى دين ﴾[١] ، وقـال لـه : ﴿ قـل أفغيـر الله تـأمـرونى أعبـد أيهـا الجاهلون ﴾[٢] . ثم بين الله تعالى عاقبة اتباع ملتهم بعدما لقنه الحجة البالغة فى قوله : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ ، وهذه عبارة حصر وقصر تفيد أن غير هذا ليس بهدى ؛ وفى آية أخرى : ﴿ قل إن الهدى هـدى الله ﴾[٣] ، وفى آية : ﴿ من يهـد الله فهو المهتـد ﴾[٤] ، وفى آية : ﴿ من يُضلِلِ الله فـلا هادِىَ له ﴾[٥] ، وفى آية : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نـور ﴾[٦] ؛ ثم قال سبحـانه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ . فالولى هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ولولم يكن قريباً ، فمن خالف الله وعصى أوامره وأشرك به ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجإٍ يومئـذٍ وما لكم من نكير ﴾[٧] ، ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٨] ، ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٩] .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على عقله زل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على ذكائه اختل ؛ ومن اعتمد على الله فلا مل ولا ضل ولا زل ولا ذل ولا مل ولا اختل .

قال رسول الله ﷺ : (لا تزل طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[١٠].

سيدى أبا القاسم يارسول الله . .

صلت عليـك مـلائـك الـرحمن	وسـرى الضياء بسـائـر الأكـوان
لـمـا طلعت على الـوجـود مـزوداً	بحمـى الإلـه ورايـة القـرآن

قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا يتلون الكتاب حق تلاوته ﴾ ؛ المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم ، والمراد بحق التلاوة أى الإحسان فى قراءته بأحكامه ، سواء كان الذين أوتوا الكتاب من أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة سيدنا محمد ﷺ أم من أمة سيدنا محمد ﷺ الذين قال الله فيهم : ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهـم ويزيدهـم من فضله إنه غفور شكور ﴾[١١] ، والذين قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾[١٢] . وقد يكون المراد بالذين أوتوا الكتاب هم أهل الكتاب الذين أسلموا ويتلونه ، أى يتلون

(١) سورة الكافرون الآيات : ١ - ٦ .
(٢) سورة الزمر آية : ٦٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٢٠ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٨٦ .
(٦) سورة النور آية : ٤٠ .
(٧) سوره الشورى ايه : ٤٧
(٨) سوره الحج ايه . ٣١ .
(٩) سوره ال عمران ايه : ١٦٠
(١٠) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٣٤ ط الشعب
(١١) سوره فاطر ايه . ٣٠ .
(١٢) سوره فاطر ايه ٣٢ .

القرآن ، قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرءاناً فرقناه لتقرأهُ على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[١] ، والذين قال الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهُم مرتين بما صبروا ويدرءُون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٢] . وحق التلاوة يشمل إتقان قراءته مرتلاً بتؤدة ، كما يشمل التأثر بتلاوته : (اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، واقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاب . وسيأتى بعدى قوم يرجعون فى القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يتجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم) . والمراد بحق تلاوته أن يقف الإنسان عند وعده ووعيده ؛ ورحم الله أصحاب محمد ﷺ ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وحق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وحق تلاوته أن يكون خلقه القرآن ؛ فإذا كان الكون قرآناً صامتاً فإن القرآن كون ناطق ، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان نبى الله ﷺ قرآناً يمشى بين الناس . ويرحم الله مجتمعاً تأثر بالقرآن كانت الزوجة إذا خرج زوجها أول النهار قالت له : اتق الله ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد آخر يومه سألته : ماذا نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله ؟ فإذا ما صلى العشاء وجاء إلى بيته وأخذ مضجعه لينام تزينت له بالوضوء وسألته : هل لك من حاجة إلىّ ، فإذا كانت له حاجة قضاها وإلا استأذنته أن تقوم لله فتؤدى ركعاتها فى جوف الليل . هذا مجتمع القرآن فى حومات الوغى وساحات القتال . كتب سعد بن أبى وقاص بعد نصر الله له فى موقعة القادسية كتب يقول لعمر : إن المسلمين إذا جن عليهم الليل سمعت لهم دوياً بالقرآن كدوى النحل ، فهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار . . .

قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، أى من يكذب بهذا القرآن ولا ينفذ أحكامه ولا يقيم حدوده ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾[٣] .

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ١٠٥-١٠٩ .
(٢) سورة القصص الآيات : ٥٢ - ٥٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٣ - ١٠٥

خطاب إلى بنى إسرائيل

يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وهذا هو الخطاب الثالث الذى خاطب الله به بنى إسرائيل بهذا العنوان فى هذه السورة . قال تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾(١) . وفى الخطاب الثانى قال : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾(٢) . وهذا هو الخطاب الثالث ، والله تعالى يمن عليهم ويتكرم ويذكرهم بنعمه ؛ فقد أرسل إليهم رسلاً ، وجعل منهم ملوكاً ، وأرسل لهم من الخيرات ما تعجز الأفئدة عن أداء شكره . وقد سبق تعداد تلك النعم : نجاهم من آل فرعون ، وفرق بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر من الحجر عيوناً ، ورزقهم من الطيبات ؛ ومن ثم فقد حذرهم من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . وفى الآيات السابقة قال لهم : إن هذا اليوم لا يقبل فيه عدل ، وفى هذه الآية قال لهم إن هذا اليوم لا تنفع فيه شفاعة ، وتلك تضية منطقية ؛ فحيث إن الشفاعة لم تقبل هناك فإنها لا تنفع هنا . وفى الآية السابقة على هذه الآيات قال : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾(٣) ، وقال هنا : ﴿ لا يقبل منها عدل ﴾ ، وحيث لا يؤخذ فإنه لا يقبل ؛ فالمعانى يكمل بعضها بعضا ، فحيث لا قبول للشفاعة فلا نفع لها ، وحيث لا أخذ للفدية فإنه لا قبول لها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾(٤) . هذا وقد سبق تفسير هاتين الآيتين فليرجع إليه من شاء .

ابتلاء الله إبراهيم

* وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ إذ ﴾ هنا ظرف فى محل النصب على المفعولية على تقدير : اذكر يا محمد للكفار ولأهل الكتاب منهم ما حدث للخليل إبراهيم عندما طلب الله منه وابتلاه بكلمات . وخص إبراهيم بالذكر لأنه أبو الأنبياء ، فهو أبو إسماعيل الذى كان من ذريته سيد الأنبياء والمرسلين ، وأبو إسحق الذى كان من ذريته أنبياء بنى

(١) سورة البقرة آية : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) سورة البقرة آية : ٤٨ .
(٤) سورة لقمان آية : ٣٣

إسرائيل ، فالعرب وبنو إسرائيل من ذرية الخليل إبراهيم . ولقد كان إبراهيم حنيفا مسلما ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾[١] ، ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[٢] ، ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٣] ، ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[٤] .

وإبراهيم هو الذى ضرب جبهات الشرك بيد من حديد ؛ مرة فى جبهة الأصنام والتماثيل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وءاباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٥] ثم أقسم بالله قائلا : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾[٦] .

وضرب جبهة الشرك فى قلعة الكفر بعدما أرخى العنان للخصم : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموٰت والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[٧]

هذه صورة قرآنية معبرة أتم تعبير عن موقع هذا النبى ومكانته ؛ فهو إمام الموحدين الذى رفع راية التوحيد خفاقة عالية تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء على ربوع قلعة الأصنام وعاصمة الشرك . ومعنى الابتلاء : الاختبار ليعلم الناس مكانة هذا المبتلى بتلك الأحكام وكيف قام بها خير قيام وأداها على أتم وجه وأحسن صورة . وكلمات الله قد يراد بها الكلمات القدرية كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾[٨] ، وقد يراد بالكلمات الكلمات التشريعية من الأوامر والنواهى ، كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[٩] . والكلمات التى بين أيدينا فى آية الابتلاء كلمات تشريعية ، اختبر الله بها خليله فأداها على خير وجه وأكمله . فما هى تلك الكلمات ؟

(١) سورة البقرة آية : ١٣١ .
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) سورة النحل الآيات : ١٢٠ - ١٢٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٦١ .
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٨٢ .
(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .
(٧) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٩ .
(٨) سورة التحريم آية : ١٢ .
(٩) سورة الأنعام آية : ١١٥ .

قال ابن عباس : المقصود بها المناسك والطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد ؛ فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ؛ وفى الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، والاستنجاء . وجاء فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة) . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء[(١)] .

وقال ابن عباس : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم . قال الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ ، قلت لهم : وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، منها عشر فى سورة براءة : ﴿التَّيِبُون العُبدون الحٰمِدون السٰئِحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[(٢)] . وعشر فى أول سورة قد أفلح المؤمنون قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون* والذيم هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . وعشر فى سورة الأحزاب ، قال تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[(٣)] .

وقال الحسن : إن الابتلاء كان فى الكوكب والقمر والشمس والقذف فى نار الدنيا وذبح ولده والهجرة من وطنه فوفى بكل هذا فاستحق ثناء الله عليه فى قوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾[(٤)] .

وقال آخرون : إن الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم جاءت فى هذه الآيات ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾[(٥)] . ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾[(٦)] .

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله التى سبق بيانها وأداهن كما أمره الله ، سأل ربه بعدما قال الله له ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾ ، أى رسولاً يبلغ شرع الله ، أميناً على وحى الله ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وفياً لدين الله ، أسوة حسنة للناس ، وقدوة طيبة لعباد الله ؛ سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٥٤٣ ط الشعب .
(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٤) سورة النجم آية : ٣٧ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٢٥ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٢٨ .

أثمة ، قال له الله : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ، أى سأجعل الصالحين من ذريتك أثمة ، أما الظالمون فإن عهدى لا ينالهم . وقد أفاض السلف فى تفسير هذا النص الكريم : فمن قائل إن المقصود بالظلم هنا هو الشرك ، والمشرك لا ينال عهد الله ، لأنه ليس له عند الله عهد ولا ذمة ؛ فقد برئت منه ذمة الله . ومن قائل إن المراد بالعهد طاعة الله ، وطاعة الله لا تنال الظالم ، فليس للظالم طاعة . ومن هنا فقد قالوا : إن الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً . وقد أخبر الله عن ذرية إبراهيم وإسحق فقال : ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾(١) ، فالمحسن يناله عهد الله سواء كان ذلك العهد نبوة أو طاعة أو خلافة فى الأرض ، أما الظالم لنفسه فلا مجال له فى تلك المسئوليات .

البيت مثابة وأمن

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ البيت ﴾ : غلب استعماله فى بيت الله الحرام بمكة . ﴿ مثابة ﴾ : أى مرجعاً يثوب إليه هؤلاء الزوار وأمثالهم . ﴿ وأمناً ﴾ : أى موضع أمن . و﴿ مقام إبراهيم ﴾ : هو الحجر الذى كان يقوم عليه حين بناء الكعبة . ﴿ المصلى ﴾ : موضع الصلاة ، أى الدعاء والثناء على الله تعالى . ﴿ وعهدنا ﴾ : إذ أوصاه به . ﴿ الثمرات ﴾ : المأكولات مما يخرج من الأرض والبحر . والاضطرار : الإكراه . يقال اضطررت فلاناً إلى كذا ، أى ألجأته إليه وحملته عليه .

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه الهادى البشير : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ . أى اذكر لقومك ما نالهم من الشرف العظيم والكرم الرفيع بسبب البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل فى مكة ، واستجبنا دعوة إبراهيم فجعلنا البيت مثابة يثوب إليه الناس ويأتون إليه من كل فج عميق ، فإذا ما رجعوا إلى بلادهم أخذهم الحنين والشوق إليه ، فيثوبون إليه مرة ومرة ، وذلك من ثمرات الدعوة المباركة : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾(٢) ، فكان الأمر كما دعا الخليل واستجاب الله ، فما من مسلم يذهب إلى البيت ويعود إلى دياره إلا ولواعج الشوق تعتلج فى

(١) سورة الصافات آية : ١١٣ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

قلبه ، فيطير على جناح السرعة معتمراً أو حاجاً أو معتمراً وحاجاً ، ليطفىء غليل الشوق ، كذلك يطفىء الغلة المنهل العذب حتى أصحاب الأعذار يقولون :

يـاذاهبين إلى البيت الحرام لقد ... سـرتم وسرنـا نحن أرواحـا
لقـد أقمنا عـلى عـذر وعن قـدر ... ومن أقـام على عـذر فقد راحـا

إن الله تعالى لما أمر خليله ببناء البيت وبناه ، أمره أن يؤذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوتى ؟ قال : يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا الإبلاغ . فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه . فقالت الأرواح فى عالم الغيب الأمين : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . فمازالت الأفئدة وستظل تهوى إلى البيت شوقاً وتأتى إليه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . مصداقاً لقوله جلّ شأنه : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجـالاً وعلى كـل ضامرٍ يأتين من كل فـجٍ عميق * ليشهدوا منـافع لهم ويـذكـروا اسم الله فى أيـام معلومات ﴾[1] .

فالمثابة هو البيت الذى يثوب الناس إليه لينالوا ما عند الله من المثوبة والأجر . والنعمة الثانية من أنعم الله على المسلمين فى البيت الحرام نعمة الأمن والأمان ، وهى نعمة لا تعدلها نعمة بعد نعمة الإسلام . وقد وصف الله أهل الجنة بقوله : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرقٍ متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾[2] .

وقد قدم الله نعمة الأمن على نعمة الرزق فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[3] .

وقد امتن الله تعالى على قريش بأن جعل البيت أمناً فقال : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[4] . وقال سبحانه : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حـولهم أفبالبـاطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[5] .

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم ... لبيت طهـور الساح والشرفـات
أرى الناس أفواجاً ومن كل بقعة ... إليـك انتهوا من غـربة وشتـات

(١) سورة الحج الآيات : ٢٦ - ٢٨ .
(٢) سورة الدخان الآيات : ٥١ - ٥٦ .
(٣) سورة النحل آية : ١١٧ .
(٤) سورة القصص آية : ٥٧ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٧ .

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت لـديك ولا الأقـدار مختلفات
أقـدم أعـذارى وذلى وخشيتى وجئت بضعفى شافعاً وشكاتى
وأنت ولى العفـو فامحـو بناصـع من الصفح ماسودتّ من صفحات

إن هذا البيت آمن ، حتى أن الرجل يرى فيه قاتل أبيه فلا يقتله ، إنه الأمان كله : نباته وطيره ووحشه وبره ، نعمة من الله وفضلاً .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، المقام هو مكان الحجر الذى كان إبراهيم يقوم فيه وهو يبنى البيت . وقد قال عمر يارسول الله : ما ضر لو صلينا فى مقام إبراهيم ؟ قال الهادى البشير : لم أومر بذلك يا عمر : فنزل قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، أى مكاناً للصلاة يصلى فيه المسلم ركعتين بعد الطواف استحباباً .

قال البخارى باب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ مثابة يثوبون ويرجعون . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، وقلت يارسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : ياعمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات ﴾(١) . الآية .

قوله تعالى : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ . والعهد هنا معناه الأمر أو الوحى ، أى وأمرناهما أو أوحينا إليهما أن يبنيا هذا البيت بنية طاهرة خالصة لله ، وأن يقوما بتطهيره من كل أذى ورجس ونجس ، ومن كل ما يعبد من دون الله ، لأنه أشرف بيت . طهراه للطائفين به والعاكفين ، أى المقيمين عنده والمصلين من الراكعين الساجدين وقد وسع ربنا كل شىء رحمة وعلماً ، فإنه ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة : ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

ومن فضله جلَّ شأنه أن أبواب السماء تفتح عند النظر إلى البيت الحرام ، وعند إقامة الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند الالتحام فى القتال ؛ وما أدراك إذا ما فتحت أبواب السماء : تنزل الرحمات ، وتستجاب الدعوات ، وهناك يكون القبول كله .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ . جاء فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : (لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح)(٢) .

(١) سورة التحريم آية : ٥ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٥٠٧ ط الشعب .

وروى النسائى عن رسول الله ﷺ : (إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها ، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها)[١] . وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها[٢] لا يقطع عضاهها[٣] ولا يصاد صيدها)[٤] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : (اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا ، وبارك لنا فى مدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه) . ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[٥] .

وإنما قال فى هذه الآية : ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ ، وقال فى سورة إبراهيم : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾[٦] بالتعريف ، لأنه يحتمل والله أعلم أن الدعوة الأولى كانت قبل بناء البيت ، ثم دعا الدعوة الأخرى بالتعريف بعد بناء البيت وبعد ما رزق بإسحق الذى كان يكبره إسماعيل بثلاثة عشر عاماً ، ومن ثم قال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى سميع الدعاء ﴾[٧] .

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ . من حب إبراهيم للمؤمنين وحرصه عليهم أنه سأل الله أن يجعل رزقه مقصوراً على المؤمنين فحسب ، ولكن رب العزة قال له : ومن كفر ، فليس الرزق فى الدنيا مقصوراً على المؤمنين ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن يحب . قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾[٨] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[٩] ، وقال جل جلاله : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[١٠] ، وقال سبحانه : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[١١] ، وقال تبارك اسمه : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٣٠ ط دار الفكر .
(٢) اللابتان : الحرتان . واحدتها لابة . وهى الأرض الملبسة حجارة سوداء . وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهى بينهما .
(٣) العضاة : كل شجر فيه شوك .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٥١٢ ط الشعب .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٥٩ ط الشعب .
(٦) سورة إبراهيم آية : ٣٥ .
(٧) سورة إبراهيم آية : ٣٩ .
(٨) سورة الإسراء الآيات : ١٨ - ٢٠ .
(٩) سورة هود الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(١٠) سورة لقمان الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(١١) سورة يونس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .

يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[١] .

وفى الصحيحين : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم)[٢] . وفى الصحيح أيضاً : (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ثم أضطره إلى عذاب النار ﴾ ، الاضطرار : هو الإلجاء إلى الشىء ، وهومن باب قوله جل شأنه : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾[٤] ، وليس هذا إلا لما اقترفوه من الذنوب ، ﴿ وكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٥] . ﴿ وبئس المصير ﴾ . أسلوب ذم ، والمذموم هنا جهنم ، أى بئس المثوى جهنم وبئس ما يصيرون إليه جهنم ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما ﴾[٦] ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[٧] .

دعاء إبراهيم

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ القواعد ﴾ : واحدها قاعدة ، وهى ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من المسافات (طاقات البناء) ، ورفعها : إعلاء البناء عليها ، وتقبل الله العمل : قبله ورضى به ، ﴿ مسلمين ﴾ أى منقادين لك ، يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ، الأمة الجماعة ، والمناسك : واحدها مَنْسَك (بفتح السين) من النسك ، وهو غاية الخضوع والعبادة ، وشاع استعماله فى عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج وأعماله ؛ تاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه ، لأن اقتراف

(١) سورة الزخرف الآيات : ٣٣ - ٣٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٥٤٨ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ط الشعب .
(٤) سورة الحج آية : ٤٨ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .
(٦) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٧) سورة الأعراف آية : ٤١ .

الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد : رحمه وعطف عليه ، والكتاب : القرآن ، والحكمة : أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة . قال ابن دريد : كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى حكمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة ؛ ويزكيهم : أى يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصى ، العزيز : أى القوى الغالب ؛ الحكيم : أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال الإمام ابن كثير : لما قرأ وهيب بن الورد هذه الآيات : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ أخذ يبكى ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك ؟ وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلص فى قوله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[1] ، أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة ، أى خائفة ، أن لا يتقبل منهم .

وحتى يكون بناء البيت واضحاً جلياً وما يتعلق به من زمزم والسعى بين الصفا والمروة ، نسوق هذا الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليقفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ وقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؛ قال : نعم ؛ قالت إذا لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾[2] حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال يتلبط ــ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب من الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذ بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ؛ قال ابن عباس : قال النبى : (فلذلك سعى الناس بينهما) . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت « صه » ــ تريد نفسها ــ ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس قال الرسول ﷺ (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ــ أو قال لو لم تغرف من الماء ــ لكانت زمزم عينا معينا) ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . كان البيت مرتفعاً من الأرض

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا . قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : قال (فأكفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم . وشب الغلام وتعلم العربية منهم وألفهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : جاءنا شيخ كذا كذا ، فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . قال : ماطعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبى ﷺ : (ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم لدعى لهم فيه) . قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك ، وكان إسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك.قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، فأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولون : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[1] . ا . هـ .

لذلك يستحب لكل من عمل عملاً صالحاً أن يختمه بهذا الدعاء ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع

(١) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ ط ١ الشعب .

العليم ﴾ . ثم دعا إبراهيم ربه قائلاً ومعه إسماعيل يدعو : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ ويقصد بالإسلام هنا أدق معانيه ، وهو الإخلاص . فالإخلاص سنام الأمر وذروته ، وهل الإسلام إلا أن يسلم لله وجهه ؟ والإخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عباده . والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة . وقد ذاق حلاوة الإسلام من قال : رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينا ومحمد ﷺ نبيًّا ورسولا

ولما كان الأنبياء قوما أصفياء القلوب أنقياء السريرة أتقياء الأفئدة ، فإن الدعوة الإبراهيمية الإسماعيلية امتد أثرها فى بطون الأزمان حيث جاءت ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . وقد استجاب الله . ثم قالا : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى عرفنا مواضع النسك من الإحرام والطواف والسعى وعرفات ومنى ، فإن المناسك هى مواضع العبادات ، وغلب إطلاقها على أفعال الحج . ثم قالا : ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة حتى نتوب فترضى عنا . قال تعالى : ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليه إنه بهم رءوف رحيم ﴾ .

فالمراد بالتوبة على النبى رضاه عنه وعن المخلصين معه ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى كثير التوب ؛ فليس لأحد سواك هذه الصفة ؛ فأنت الرحيم بعبادك ، غافر الذنب وقابل التوب . أليس أنت الذى تبسط يدك بالليل ليتوب مسىء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسىء الليل . ألست أنت الذى تنادى فى ثلث الليل الأخير : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه .

يا من له علم الغيوب ووصفه ... ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى ... كرماً فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا ... أنت الإله المنعم الفتاح

ثم دعوا الله جل جلاله دعوة نفع الله بها البلاد والعباد : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ فيهم ﴾ ، أى فى هذه الأمة . ﴿ منهم ﴾ ، أى عربياً . فكانت هذه الدعوة خير خلق الله ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين . فهو الأمّىّ الذى علّم المتعلمين ، وتلا عليهم كتاب رب العالمين ، ودرس لهم الحكمة الصافية ، وهى سنة سيد المرسلين ، وذكا نفوسهم وطهرها من الغيظ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء والظلمات والشرك والظلم والفساد ، فكان خير المفلحين وسيد الموحدين وإمام المتقين ؛ فهو النبى الخاتم الذى قال متحدثاً بنعمة الله عليه : (أنا دعوة أبى إبراهيم ، وكان آخر من بشّر بى عيسى ابن مريم)(٢) . لقد وقف عيسى خطيباً فى بنى إسرائيل وقال : يا بنى إسرائيل ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه

(١) سورة التوبة آية : ١١٧ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٤١٤ ط دار الفكر .

احمد ﴾[1] ، فكان ذلك النبى الأمى الفقير ، الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطىء الله رب العالمين .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

نور أضاء فبدد الظلماء والأرض صارت جنة خضراء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء
أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
يا نور أحمد فى جلالك روعة الله بارك ذكره وأضاء

ويختتم الخليل وابنه هذه الدعوات بالثناء على الله بما هو أهله فيقول : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلب ، فهو القاهر فوق عباده ، ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يعبث ؛ إذ هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق .

ملة إبراهيم وحكم المخالفين

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

المفردات : رغب فى الشىء : أحبه ، ورغب عنه كرهه ، وسفه نفسه : أذلها واحتقرها ، واصطفيناه : أى أخترناه ، وأصل الاصطفاء أخذ صفوة الشىء ، وهى خالصه ، أسلم : أى أخلص لى العبادة ، التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى ، مسلمون : أى مخلصون بالتوحيد ، والشهداء واحدهم شهيد ، أى حاضر ، حضور

(١) سورة الصف آية : ٦ .

الموت : حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا ، الأمة : الجماعة ، وحلت : مضت وذهبت ، لها ما كسبت : أى ما عملت ، ولكم ما كسبتم : أى أنتم مجزيون بأعمالكم .

ويتحرك بنا زحف الآيات فى قدسية وطهارة ونقاء ، يضيء أمام الموحدين . فبعد الحديث عن إبراهيم وما ابتلاه الله به ، وذكر الدعوات الطيبات التى دعا بها ربه ، ومنها أن يبعث فى هذه الأمة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، واستجاب الله جلت قدرته وعظمت حكمته هذه الدعوات ، قال سبحانه : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(١) ، وقال جل جلاله : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾(٢) ؛ ثم ذكر أجل نعمه على عباده فقال : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) .

وكفى بهذا الفضل فضلاً ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(٤) . فكفانى عزا أن أكون لك عبدا ، وكفانى فخراً أن تكون لى ربا :

ومما زادنى شرفاً وقدراً ... وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ... وأن صيرت أحمد لى نبيا

ولقد وجدت هذه الأمة التى شرفها الله ببعثة نبيها ، وكانت أمة لا تغيب عنها الشمس ، امتدت حدودها من الصين شرقاً إلى باريس غربا ، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبا ، وجعلت من البحرين الأبيض والأحمر بحرين يجريان فى أمة الإسلام ، وجعلها الله خير أمة أخرجت للناس إذا تكاملت فيها تلك المقومات : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، فإذا كان الله فضل بنى إسرائيل على العالمين ، فإنما ذلك على عالمى زمانهم ؛ وفرق بين التفضيل والخيرية ، فالخيرية نابعة من ذات الأمة متأصلة فى كيانها ، والتفضيل يأتى من خارج الأمة لأمور يجود المولى الكريم بها عليهم ، ككثرة بعثة الأنبياء منهم ، كما قال نبينا ونبيهم موسى : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾(٥) ، ولذا عقب الله تعالى فى آية الخيرية بقوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾(٦) ، فكان إبراهيم جديراً بالإمامة ، حقيقاً بالقيادة ، حرياً بالراية ، ومن يرغب عن ملته ويكرهها ويبغضها كان دليلاً على أنه سفه نفسه واحتقرها وأذلها ، لأنه كره ملة نبى رفع راية التوحيد فى جميع الجهات . ولقد اصطفاه الله واجتباه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾(٧) . واذكروا أيها الناس إذ قال له ربه أسلم ، أى استقم على

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(٢) سورة الجمعة آية : ١ .
(٣) سورة الجمعة الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة الجمعة آية : ٤ .
(٥) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٧) سورة الأنعام آية : ١٦١ .

إسلامك وإخلاصك ، لا بمعنى ادخل الإسلام ، فقد كان مسلماً موحداً من مهده إلى لحده ، كما يقول مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ يأيها النبى اتق الله ﴾(١) ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن تقياً قبل الأمر بالتقوى ، إنما المعنى : اثبت وداوم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿يأيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله﴾(٢) ، فترى أن الله خاطبهم بالإيمان وأمرهم به ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا كان المقصود بالأمر هنا المداومة والثبات . وقد صدق سيدنا رسول الله ﷺ وهو يقول لعمه أبى طالب عندما قال له دع هؤلاء القوم وشأنهم ، قال له الرسول الأكرم : ﴿ والله يا عم لووضعواالشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ﴾ ، فاغرورقت عينا أبى طالب بالدمع وقال كلمته المشهورة : يابن أخى قل ما شئت ، فوالله لا أسلمك إليهم أبدا(٣) .

إن إبراهيم الحنيف أخلص قلبه لله وأسلم كيانه كله لرب العالمين ، السيد المالك الملك المتصرف القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، وهل خرج من ملك الله شىء عن علمه وإرادته وقدرته؟إنك لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنه مخلوق للواحد الديان .

تـأمـل فى الـوجـود بعـين فكـر ترى الـدنيـا الـدنيـة كـالخيـال
فكـل الكـائنـات غـداً ستفنى ويـبقـى وجـه ربـك ذو الجـلال

ولكى يرى نور الإسلام فى ذرية إبراهيم ويمتد ضياءه فى عقبه ، جعل كلمة التوحيد باقية فيهم إلى يوم يبعثون ، فعندما حضرته الوفاة وصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه ، وجاء نص الوصية : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(٤) ، وتلك أيضا وصية الله لكل مؤمن : ﴿ يـأيها الـذين آمنوا اتقـوا الله حق تقاتـه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمـون * واعتصمـوا بحبـل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾(٥) .

إن الإسلام هو الروح العظيم الذى ينساب فى جنبات الأرض كالبحر الطهور ، يغسلها من أرجاسها وأدنائها وأنجاسها ، أليس هو أن تسلم لله وجهك ؟ أليس هو السلام ؟ أليس أن يسلم الناس من لسانك ويدك ؟ أليس الإسلام هو الانقياد والخضوع والرضا والتصديق بكل ما جاء به سيد الأنبياء ؟

ثم يوجه الله هذا الخطاب إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الذين انحرفوا عن طريق الجادة وتنكبوا الصراط فرموا إبراهيم باليهودية والنصرانية وذريته كذلك قال لهم : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ أى بل أكنتم شهداء ، أى حاضرين ، عندما حضر يعقوب الموت ؛ أتدرون ماذا قال لبنيه فى وصيته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ لقد سألهم : ﴿ ما تعبدون من بعدى ﴾ ؛ فماذا قالوا ؟ ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم

(١) سورة الأحزاب آية : ١ .
(٢) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص ٢٦٦ ط دار التراث .
(٤) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ .

وإسماعيل وإسحق ﴾ هؤلاء هم الصفوة المختارة ، إنهم كوكبة التوحيد الذين سطعوا فى سماء الهدى والعدل ؛ ثم يزيدون الأمر وضوحاً فيقولون : إلها وحدا حتى لا يظن جاحد أو جهول أن الآلهة تعددت فى قولهم إلهك وإله آبائك ، فجاء التفسير واضحاً فى قولهم : ﴿ إلها واحداً ونحن له مسلمون ﴾ وقد جعلوا إبراهيم أباً ليعقوب مع أنه جده ، لأن يعقوب بن اسحق وذلك لأن الجد أب ، إذ هو أصل من أصول الإنسان ؛ وجعلوا إسماعيل أبا ليعقوب مع أنه عمه ، لأن عم الرجل صنو أبيه ، أى مثله . وهكذا تعطينا لغة القرآن ثروة دفاقة بالمعانى ، فالقرآن أستاذ معلم ، ومدرسة عليا . ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى هؤلاء القوم ، فيقول لهم : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ : أى جماعة قد سبقت ومضت ، لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ؛ فكل نفس بما كسبت رهينة ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ولقد قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه : (يا فاطمة بنت محمد اعملى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) . إن من عظمة هذا الدين المسئولية الفردية ، كل امرىء بما كسب رهين ؛ فإن الله أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشيا . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[1] .

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارسى ... وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

زعم باطل

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١٠٣ .

المفردات : الحنيف : المائل ، وأطلق على إبراهيم لأنه خالف الناس جميعاً ومال عن الكفر إلى الإيمان ؛ الأسباط : واحدهم سبط ، وسبط الرجل ولد ولده ؛ والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ؛ وما أوتى موسى : هو التوراة ، وما أوتى عيسى : هو الإنجيل ، والشقاق : مأخوذ من الشق ، وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد فى شق غير شق صاحبه لما بينهما من عداوة ، الصبغة : فى اللغة اسم لهيئة صبغ الثوب وجعله بلون خاص .

زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، فدمغهم الإسلام بتلك الحجة قال لهم : إنكم جميعاً مؤمنون بأن إبراهيم كان على هدى ؛ فكيف يكون على هدى ولم يكن يهودياً ولا نصرانيا ، بل كان حنيفاً مسلماً ؛ إذن فإن كلامكم زعم باطل . أما القول السديد والرشيد فإنه واضح فى اتباع ملة إبراهيم ، فهذا هو الطريق الموصل إلى الجنة المنجى من عذاب النار ، فقد كان إبراهيم حنيفاً مائلاً عن الشرك ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾[1] . وكيف يدخل الجنة من فرق بين الله ورسله وقال : إن الإيمان بالبعض والكفر بالبعض منج ، بل إن القول الحق هو ما قاله الله فى كتابه : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[2] .

[فيا أمة محمد . . إذا سمعتم هؤلاء يرددون هذا الهراء فقولوا : آمنا بالله وحده لا شريك له ، وآمنا بما أنزل إلينا على رسولنا محمد ، وهو الكتاب الكريم ، والقرآن العظيم ، وما أنزل من الكتب والصحف إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وآمنا بما أوتى موسى من التوراة الصحيحة ، وأوتى عيسى من الإنجيل الصحيح، وآمنا بما أوتى النبيون من ربهم ، فالكل عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لاإله إلا الله . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[3] ، وقال جل شأنه : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[4] ، ووصف النبيين بقوله : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ؛ فمن جاء بغير الإسلام فقد برئت منه ذمة الله . قال نوح لقومه : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[5] ، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب بقوله : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[6] . وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[7] ، وقال يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[8] ، وقال سليمان : ﴿ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين)[9] ، وقال عيسى : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾[10] ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب

(١) سورة آل عمران آية : ٦٥ .
(٢) سورة النساء آية : ١٥٢ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٩ .
(٥) سورة يونس آية : ٧٢ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٧) سورة يونس آية : ٨٤ .
(٨) سورة يوسف : ١٠١ .
(٩) سورة النمل آية : ٣١ .
(١٠) سورة آل عمران آية : ٥٢ .

العالمين ﴾ (١) ، وأنزل الله على رسوله ومصطفاه يوم عرفة أربع بشريات ، الأولى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ (٢) والثانية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (٣) ، والثالثة : ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾ (٤) والرابعة : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (٥) ؛ فإذا كان الله أكمل دينه ، فدين الله لا ينقص أبدا ، وإذا كان أتم نعمته فنعمة الله لا تضيع أبدا ، وإذا كان رضى لنا الإسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ (٦) . إن الإسلام دين رشيد ، يخاطب العقل السليم بالمنطق السديد ، يأمر بالإيمان بكل الأنبياء ، فلا يأمر بالإيمان بمحمد وحده ، إنما بجميع الأنبياء بما فيهم موسى وعيسى ، ومن ثم يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) . فإن آمن هؤلاء القوم إيماناً مثل إيماننا فقد اهتدوا ، ومن يهد الله فهو المهتد ، وإن تولوا وانصرفوا وركبوا رؤوسهم كبراً وعتوا وعدواناً وظلماً ، فإنما هم فى شقاق وعداء وخلاف .

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴾ (٧) ، وهذا الخطاب موجه إلى البشرية التى تنكبت سواء السبيل ، فزلت أقدامها وتعثرت أقلامها ، وانفلت خيالها ، واتبعت الهوى ، ومن عرف الهوى فقد هوى فحل عليه غضب الله ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ ، وما داموا فى شقاق ، فثق من حفظ الله لك يا محمد ﴿فسيكفيكهم الله﴾ سيكفيك مكرهم وأذاهم ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد * ومن يهد الله فماله من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ (٨) ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ . نعم سيكفيك الله شرهم ، والله يعصمك من الناس ، وكان وعد الله مأتياً ، فانتصر الرسول على يهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ويهود خيبر ، وفرض الجزية على نصارى نجران ، وانتصرت أمته على الفرس والروم ، كما انتصرت على جميع الأعداء فى كل الميادين .

الله أكـبـر إن ديـن محـمـد ... كـتـابـه أقـوى وأقـوم قـيـلا
لا تـذكـر الكتب السـوالف عنـده ... طلع الصبـاح فـأطفئـوا القـنـديـلا

إن الذى سيكفيك شرهم هو السميع الذى يعلم القول فى السماء والأرض ، يسمعه ويعلمه ، العليم بحقائق الأشياء ودقائقها . قل لهم لقد صبغنا الله صبغة التوحيد ، فما نحن عليه هو صبغة الله وفطرته ، ومن أحسن من الله صبغة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ليس أحد أحسن صبغة من الله الذى حلانا بتلك الصبغة التى لا تزول أبدا ، ولا تستطيع يد الدهر أن تمحوها ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وما كتبه الله لا يمحوه أحد ، ونحن له عابدون قانتون تائبون حامدون راكعون ساجدون ، آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، وحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين .

(١) سورة النمل آية : ٤٤ .
(٢) سورة المائدة آية : ٣ .
(٣) سورة المائدة آية : ٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ٣ .
(٥) سورة المائدة آية : ٣ .
(٦) سورة الجن آية : ١٤ .
(٧) سورة الكهف آية : ١٧ .
(٨) سورة الزمر الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

الله ربنا وربكم

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

أقام الله تبارك وتعالى فى هذا المشهد ثلاثة براهين ، ألزم فيها المعارضين الحجة القاطعة بصحة الإسلام وصدقه ، فوجه الخطاب إلى رئيس الأمة ونبيها ، محمد ﷺ ، قل لهؤلاء المجادلين المتخاصمين : أتجادلوننا فى دين الله ، وتزعمون أنكم أحق بالله منا ، وأعرف به منا ، وهو ربنا وربكم ، ليس رباً لقوم بأعيانهم ، إنما هو رب العالمين أجمعين ، وهو لا يجازى العبد بناء على انتسابه إلى قوم سبقوا ، إنما يجازى العباد بميزان حق ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[2] .

والميزان الصادق الذى حكم الله تعالى به الأمور هو المسؤلية الفردية : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، قال جل شأنه : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾[3] .

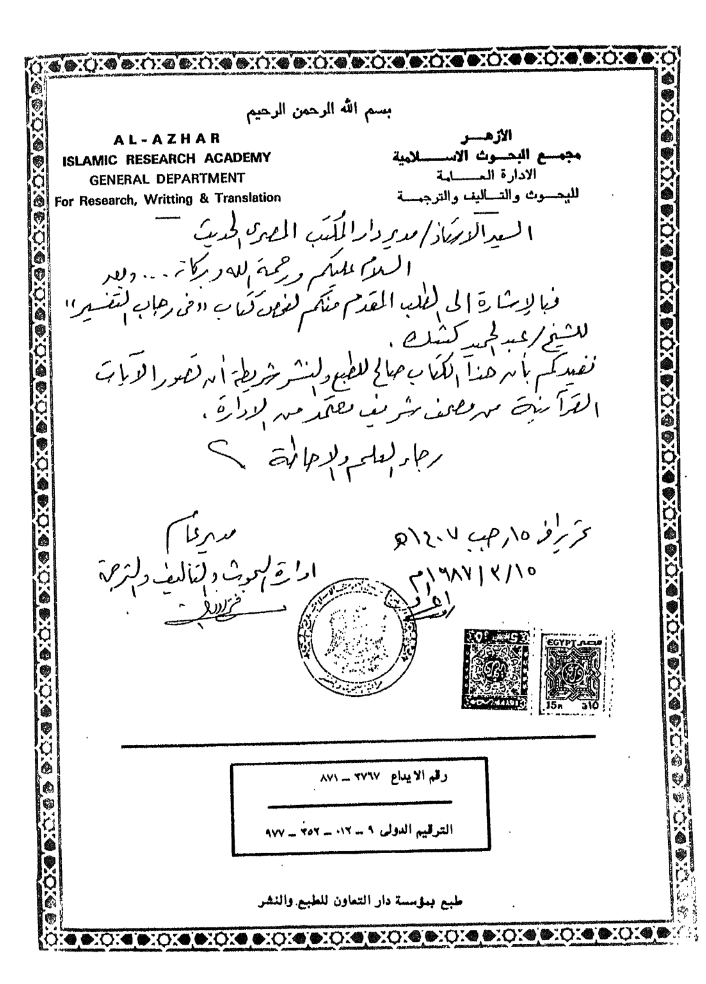
فما جزاء هؤلاء المحاجين المجادلين بعد بيان الحق ؟ قال تعالى : ﴿ والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾[4] ، وبعد ذلك قال تعالى : قولوا لهم ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ والإخلاص من أجل النعم التى ينعم الله بها على عبده ، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، والإخلاص أن تقصد بعملك وجه الله وحده لا شريك له . ثم خاطب الله أهل الكتاب بقوله : ﴿ أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ : أى بلغ من جحودكم وإنكاركم للحق أنكم رميتم قادة التوحيد ونجوم الهدى باليهودية والنصرانية ؟ ثم أقام عليهم الله برهاناً ثانياً فقال : ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾ ؟ أى من الذى يحكم فى قضايا العقيدة إلا علام الغيوب ؟ فإن العقيدة من أعمال القلوب ، فهل كشفتم عن قلوب هؤلاء فحكمتم على ما فيها ؟ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، بل كانوا موحدين حنفاء لله غير مشركين به ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .
(٢) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٣) سورة الشورى آية : ١٥ .
(٤) سورة الشورى آية : ١٦ .

إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(١) . ثم أقام القرآن عليهم برهاناً ثالثا . قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ أى لا أحد أظلم ممن كتم شهادة بينها الله له ، فأنتم كتمتم وحجبتم عن الناس ما جاء فى كتبكم من الشهادة ببعثة محمد ﷺ ، وأنتم تقرأونها وتعلمون مدلولها علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل عين اليقين . ﴿ وما الله بغافل عما تعلمون ﴾ ، ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾(٢) ؛ ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾(٣) . ثم فصل الله فى القضية فصلاً قاطعاً جازماً فقال : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ ، أى سبقت . فإذا كنتم تفخرون بالانتساب إلى هؤلاء الأنبياء ، فإن انتسابكم إليهم لا ينفع يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ، لأن المقياس الصحيح هو العمل الصالح ؛ لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وتلك الأمة التى سبقت لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ، وكما أنهم لا يسألون عن أعمالكم ، كذلك أنتم لا تسألون عما كانوا يعملون ، فكل مسئول عن عمله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ، فمن أحب فى الله أو بغض فى الله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان .



(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ٧٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٨٩



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السيد الأستاذ/ مدير دار المكتب المصري الحديث

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد

فبالإشارة إلى الطلب المقدم منكم لفحص كتاب "في رحاب التفسير" للشيخ/ عبد الحميد كشك.

نفيدكم بأن هذا الكتاب صالح للطبع والنشر شريطة أن تصور الآيات القرآنية من مصحف شريف معتمد من الإدارة.

رجاء العلم والإحاطة

تحريراً في ١٥ رجب ١٤٠٧هـ
١٥/٢/١٩٨٧م

مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

رقم الايداع ٣٧٦٧ ـ ٨٧١

الترقيم الدولى ٩ ـ ٠١٢ ـ ٢٥٢ ـ ٩٧٧

طبع بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

ظل الداعية الإسلامى الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقى بأحبائه من المسلمين ، من فوق منبره فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، فى خطب الجمعة ، وفى دروسه وفتاويه التى كانت تشغل كل أيام الأسبوع ، فتنشرح الصدور ، وتصفو الأفئدة وتتطهر النفوس وتتغذى العقول والأرواح .. وتتنزل السكينة والرحمة ...

واشتهر مجلس الشيخ ، وذاع صيته حتى بلغ آفاق الأرض إلى عنان السماء .. وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن وقرى .. وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامى كله .. وفى يوم الجمعة يمتلىء المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من المصلين فيؤمون ما يحيط المسجد من شوارع وطرقات .. وما أن ينتهى الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلقف الأيدى الأشرطة كى تسمعها النساء فى البيوت ، ولكى تطير إلى قارات الدنيا الست تنقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ما قاله الشيخ فلا يحرمون من نفعه .

وفى سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره .. ومنع من أن يلقى الأحبة .. فى دروس أو فتاوى .. فكانت الضارة النافعة .. فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. وعجيبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير .. فعكف الشيخ على القرآن الكريم .. مأدبة الله ، الذى لا تنقضى عجائبه ولا تنفد أنواره التى تبدد الظلمات .. يحيى به لياليه يطالع آياته .. ويعاينها ويفسرها .. تفسيرا يضيف إلى كل ما سبقه الكثير ، تفسيرا يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها ، فى عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يكتنفه من ظلمات ركـام الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما فى الصدور .. فتتبدد الظلمة .. وتنقشع الغمة ..

وعاش الشيخ أيامه فى هذه الأعوام الست ـ ولا يزال ـ فى رحاب التفسير معتكفا عليه فى بيته ، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة ، مهما برق لمعانه أو اشتد إغراؤه ، أو زاد إلحاحه .. فقد استشعر لذة القرآن وأظلته نعماؤه .. وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظروف للاضطلاع بهذه المهمة التى تحتاج لهذا التفرغ الكامل ..

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه .. وهو لا يزال يمضى فى طريقه يشق عباب البحر وشاطىء النهاية يلوح من بعيد .. يزداد منه اقترابا كل يوم .. طالبا منا أن نقدمه إلى المسلمين فى كل مكان كما قدمنا من قبل مكتبته التى انتشرت فى كل مكان .. وسخر الله لنشرها حتى الكفار من الموارنة والملحدين يزورون طبعاتها ويصلون بها إلى ما لم نصل إليه من بقاع الأرض ، قاصدين لعاعات الدنيا التى ما قصدناها .. فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومنّه وكرمه .

نسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم مبرأ من كل ما عداه من أغراض ، فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى الجنة وشفيعا يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر ، ونورا لنا يوم ندخل قبورنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين . آمين يارب العالمين .

احمد يحيى

(الثمن جنيهان)



طبع بالمطابع رقم (٧) لمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر